مكتبة

تيتيو لوكوك

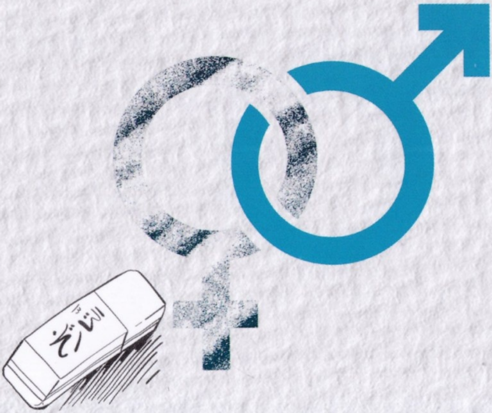

المنسيّات العظيمات

لماذا غيّب التّاريخ النّساء؟

ترجمة: المنتصر الحملي

صفحة ٧

Les Grandes Oubli ées,

Pourquoi L'histoire A Effacé Les Femmes

Titiou Lecoq

مكتبة

t.me/soramnqraa

المنسيّات العظيمات

لماذا غيّب التاريخ النّساء؟

تيتيو لوكوك

ترجمة: المنتصر الحملي

صفحة 7

صفحة 7

كتاب
المنسيّات العظيمات
المؤلّف
تيتيو لوكوك

الطّبعة الأولى:2024
التّرقيم الدّوليّ
978-603-8387-83-2
رقم الإيداع
1445/11982

© L'Iconclaste, Paris, 2021

حقوق التّرجمة العربيّة محفوظة
© صفحة سبعة للنّشر والتّوزيع

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة ترجم

مكتبة
t.me/soramnqraa

جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

الفهرس

توطئة 7

مقدّمة 11

1 - هل كانت امرأة ما قبل التّاريخ موجودة بالفعل؟ 13

2 - الفينوسات ومكانة الأنثى 25

3 - ابتداع عبادة الزّعيم في العصر الحجريّ الحديث........ 39

4 - المحاربات والمواطنات في العصور القديمة 51

5 - الملكات والفارسات يمارسن السّلطة 69

6 - النّساء يَبْنِينَ كاتدرائيات 85

7 - الاحتجاز الكبير 97

8 - الهروب من مطاردة السّاحرات 109

9 - مؤلِّفة، تغييبُ كلمة ومهنة 119

10 - نساء عالمات (في بريق عصر التّنوير)..................137

11 - ثائرات مقموعات 151

12 - الفستان والعذراء والدّمية في القرن التّاسع عشر 167

13 - مقاومتهنّ النّظامَ الذّكوريَّ للقرن التّاسع عشر 187

14 - بداية القرن العشرين: أيّ مكان للنّساء، الميدان أم المنزل؟ ..209

15 - الحرب العالمية الثّانية: التّقليل من أهمّيّة دور المرأة 227

16 - الكفاح في سبيل الحقوق منذ فترة ما بعد الحرب..........245

17 - الفكر المتحيّز جنسيّا ما زال راسخًا 263

خاتمة (محاربة النّسيان) 273

شكر 285

لأولادي.

... إنّهم أكبر من الكون.

توطئة

بقلم ميشيل بيرّو (Michelle Perrot)

«ما الذي نستشفه، يا فتاتي الصغيرة، عندما لا يُحكى لنا من التاريخ سوى تاريخ الرجال؟» عندما يؤكدون لنا أن «المذكر يكتسح المؤنث»، ليس في قواعد اللغة وحدها، بل في المجالات كلها فعليًا؟ هناك أمور كثيرة تدعونا إلى الاستغراب والثّورة. إنّ ما تفعله تيتيو لوكوك في هذا الكتاب المنعش والجذِل هو «محاولة لمحاربة صندوق النّسيان l'oublioir (لفظ استعمله سيزير Césaire عند حديثه عن السّود) الّذي ألقيت فيه النّساء لقرون طويلة».

بيد أن النساء لم يلتزمن الصمت أبدًا، لكن أحدًا لم يستمع إليهن أو يذكرهن أو يسميهن، ومحيت آثارهن تمامًا. ولهن تاريخ لم يكن يومًا خطيًا، بل ميزته فترات من التقدم والتراجع، وثغرات عبرن من خلالها عن أنفسهن لكن رمال النسيان سرعان ما غطتها. لقد استكشفت تيتيو لوكوك، المرأة الحرّة، الذّهن الشّغوف والفضوليّ، الكاتبة الّتي أثبتت جدارتها، أعمال المؤرّخات (وبعض المؤرّخين) وأشادت بها، هذه الأعمال الّتي شهدت تطوّرا كبيرًا منذ نصف قرن، ولكن غالبًا ما ظلّت في طيّ الكتمان. لقد امتلكت ناصيتها، وعملت على تكييفها من أجل نقلها إلى جمهور أوسع. فتعبر بها الدّائرة الأولى

من سعة الاطّلاع بنجاح باهر، وتقوم بتبليغها في لغة بسيطة وواضحة ومفعمة بروح الدّعابة، فيها مزاوجة بين الحكاية والتّفكير في آن واحد لقد امتلكت تلك القوة الدافعة لأنّها مسكونة بروح الاحتجاج لجيل يعيش زخم حركة «أنا أيضًا» MeToo#، ولأنّها حاملة لمنظور مختلف ترغب في إيصاله للقرّاء.

تنطلق لوكوك بدءًا من عصور ما قبل التّاريخ... بين الجنسين، لتبرز المنسيات اللواتي صنعن التاريخ، فتنبش أسماء ووجوهًا وتجارب، ولا تكتفي بالأسماء الشهيرة في زمانها مثل الملكتين الميروفنجيّتين برونهاوت Brunehaut وفريديغوندا Frédégonde اللتين غيبتهما أمواج البحر فحسب، بل تنبش خصوصًا أسماء غير مشهورة حاولن شق طريقهن في الفضاء العام، بل حتى أسماء غير معروفة من الأساس... استطاعت تيتيو، المتمرّسة بمراقبة المجتمعات، أن تميّز أياديهنّ الخفيّة، وتسمع صرخاتهن وهمساتهن، في ثنايا خبر، أو قضيّة قانونيّة، أو رسالة عُثِرَ عليها، أو صورة، أو قصّة. ليس الهدف هنا البحث عن «نساء خالدات الذكر»، نساء مهمات لكنهن معروفات بالأساس، بقدر إبراز نساء «عاديات» ينسجن الحياة اليومية ويلعبن الأدوار الثانوية التي قلما يتم الحديث عنها. إنه إبراز جولي دوبييه Julie Daubié بدلاً من جورج ساند George Sand، وناتالي ليميل Nathalie Lemel عوضا عن لويز ميشيل Louise Michel؛ إبراز النساء الفاعلات المقاومات المصممات بدل الضحايا، النساء اللواتي يرسمن فاعلية نسائية غيرت العالم في صمت.

إنّ المقصود قبل كلّ شيء هو فهم الآليات الّتي تفسّر علاقات القوّة في كلّ عصر. كانت هناك فترات تاريخيّة أفضل من غيرها، فالعصر الحجريّ القديم كان أكثر مساواة من العصر الحجريّ الحديث الّذي أسّس لعبادة الزّعيم؛ وفي العصور الوسطى، أو القرن الثالث عشر على الأقل، كانت «النّساء موجودات في كلّ مكان»، فعملن في التجارة والشعر والموسيقى وزخرفة الكتب، وكن بهلوانات وموسيقيات متجولات، بل وحتى بنين الكاتدرائيات؛ كما تميزت عشرينيات القرن العشرين بالنساء المتحررات وحركة تحرير النساء MLF. لكن ومضات التقدم هذه تتناوب مع لحظات من الانزواء على غرار «الانغلاق الكبير» في القرنين الخامس عشر والسّادس عشر، لحظات اتّسمت بكراهية رجال الدّين للنّساء، والقانون السالي، ومحارق السّاحرات. لم يكن القرن السّابع عشر بدوره جيّدا، حيث طالت يد الاستبداد اللّغة، فقامت الأكاديميّة بتطهيرها من المؤنّث الّذي كان يفسدها (مثال ذلك تطهيرها من كلمة مؤلّفة autrice). أمّا القرن العاشر، وبعد أن خابت الآمال في الثّورة، فقد مثل عودة قويّة إلى نظام الفصل بين المجالات والجنسين استنادا إلى القانون المدنيّ، نصبِ الفحولة المنتصرة، وإلى المادّة 324 منه الّتي تضفي الشّرعيّة على «الجريمة العاطفيّة» المتمثلة في قتل المرأة الزّانية، والّتي لم يتمّ حذفها إلاّ في عام 1975. ولا تزال بعض البنى التي تتغذّى من «فكر متحيّز جنسيًّا» حية إلى الآن، ومن الصّعب زوالها. فنحن لم ننته بعدُ من مسألة «التّكافؤ التّفاضليّ بين الجنسين»، العزيز على قلب فرانسواز إيريتيي Françoise Héritier.

كلّ هذا هذا يشكّل سببًا إضافيًّا للغوص في هذه السّرديّة الرّائعة والمشوّقة والحقيقيّة. «إنّ هذا التّاريخ يمنحنا حرّية هائلة. بل إنّ هذا هو الغرض من التّاريخ. أن يساعدنا على تغيير العالم». هكذا كتبت تيتيو لوكوك، وكتابها هذا يساهم في تحقيق ذلك. إنّه كتاب جدير بالقراءة حتمًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدّمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

أبدا لم تلتزم النّساء الصّمت

لقد علمونا أن للتاريخ اتجاه، وأن هذا الاتجاه بالنسبة إلى النساء كان انتقالهن من حالة العبودية الكاملة إلى التحرر الكامل، كما لو كانت المسيرة نحو المساواة عملية طبيعية، لكن ذلك غير دقيق، بل هو تشويه للحقائق.

إنّ أولئك اللاّئي عملن، اللاّئي حكمن في الماضي وتحدّثن وقُدنَ وأبدعن، قد تمّ تغييبهنّ من التّاريخ. وقد قيل لنا إنّه لم يكن هناك شيء يمكن أن يقال عنهنّ بما أنّه قد تمّ منعهنّ. وإنّه إذا لم تظهر النّساء في التّاريخ، فذلك يعود إلى أنّهن كنّ جدّ مشغولات مع الأطفال والأعمال المنزليّة وإعداد حساء البطاطس.

ولكنّ هذا غير صحيح.

أوّلا، لقد كانت هناك فترات عديدة من التاريخ عاشت خلالها النّساءُ الحرّيّة. كما كانت هناك بالطّبع أوقات استأنف فيها أعداؤهنّ العمل ضدّهنّ –هذا يعني أنّه كانت هناك فترات انفتاح وفترات انغلاق. فتاريخ المرأة ليس بالتّاريخ الخطّيّ. ثانيا، حتّى خلال

الفترات الّتي تميّزت أكثر من غيرها بكراهيّة النّساء، كان هناك نساء يكافحن. نساء يتحدّثن ويكتبن ويبتكرن، فالنساء لم يلتزمن الصمت البتَّة.

لا يزعم هذا الكتاب أنّه يقدّم تاريخا شاملا للنّساء في فرنسا الحضريّة منذ العصر الحجريّ القديم وحتّى يومنا هذا. ولكنه سيروي لكم ما لم يحكَ لكم في الفصل، والأشياء المذهلة العديدة التي نكتشفها أو نعيد اكتشافها، وكيف تنقلب رؤية التاريخ عند اختيار النظر إليه من زاوية الجنس الأنثويّ.

الأبحاث مستمرة منذ سنوات، ولأننا غادرنا مقاعد الدراسة، لم يعد بإمكاننا الاستفادة من هذه المعارف. ولكنني محظوظة لأن عملي يتضمن قراءة نتائج هذه الأبحاث، ولأنني أمتلك هذه الميزة، فيمكنني أن أقدّم لكم تلك النّتائج بشكل مختصر. يبقى الأمر موكولا لكم للبحث عن النّقاط الّتي تهمّكم والتّعمّق فيها. ستلاحظون أنّني أستشهد بالعديد من أسماء المؤرّخات، فأنا لدي رغبة عميقة في المساهمة في التعريف بأعمالهن وتقديرهن بصفتهن نساء (ولكنّكم سترون أنّنا سنتحدّث في الوقت المناسب عن الكتابة الشّاملة مرّة أخرى). وغرضي من الاقتباس منهن أن تتمكنوا من معرفة أعمالهن وقراءتها أو الاستماع إلى مداخلاتهنّ.

1

هل كانت امرأة ما قبل التّاريخ موجودة بالفعل؟

أنا الآن في الصف الثاني، عمري ثماني سنوات، أرتدي جينزا أزرق ولديّ طقم أقلام من نوع هالّو كيتي. تخاطبنا المعلّمة قائلة: «أيّها الأطفال، افتحوا كتب التّاريخ على الصّفحة 12». كم أنا متحمّسة ومتلهّفة لمتابعة دروس التاريخ! أقلّب الصّفحات، أنكبّ عليها وأنظر فيها، إذ برسم ذي ألوان متوهّجة تتخلّلها ظلال بنّيّة وبرتقاليّة، يصعق بصري.

يظهر في هذا الرّسم رجل ضخم وقويّ وهو منتصب عند مدخل كهف، ويرتدي جلود حيوانات. من الواضح أنّه قد أشعل النّار المضطرمة أمام قدميه للتّوّ، ولكنّه ينظر إلى البعيد البعيد، وعيناه ترمقان الأفق، استعدادا لمواجهة مصيره، وقياس نفسه أمام العالم، ومقارعة الوجود بيديه العاريتين. إنّه ما يزال حتّى الآن مجرّد بعوضة في عالم مُعادي، ولكن قريبا سيصبح سيّدَ الكون. إنّه ما يزال حتّى الآن مجرّد بعوضة في عالم مُعادٍ. وخلفه، تظهر امرأة كثّةَ الشّعر، منطوية على نفسها على الأرض، ورأسها مائل باتجاه الأسفل، ويبدو

أنّها تخيط شيئا ما وذهنها خالٍ من أيّ فكر، وهي أشبه ما تكون بهُيولى له شعر. وبشكلها هذا، يبدو جليًّا أنه لا يمكن التعويل عليها لقيادة البشرية إلى عالم الجيل الخامس، ولو ترك الأمر لها، لما تطورت البشرية من الأساس.

هذا هو عصر ما قبل التّاريخ كما تعلّمتُه. كي يبقى المرء فيه على قيد الحياة، كان عليه أن يمتلك خصيتين بالضرورة، إذ ما كان للنجاة أن تكتب له إن كان يمتلك مجرد مبيضين. لم يُقَلْ لي إنّ النّساء كنّ عديمات الفائدة، بل لم يكنَّ موجودات أصلا. ولكن قيل لي ببساطة إنّهنّ لم تكنّ موجودات. ألا ترون أنّ لعبارة «نساء ما قبل التّاريخ» وقعٌ غريبٌ على الأذن؟ إنّها تصعق السّمع لسبب بسيط: هو أنّها لم تستخدم من قبل، ولم يتحدث عنهن أحد قط. ولم يتمّ الحديث عنها قطّ. ظاهرة التّنافر هذه نفسها نجدها في عبارة «امرأة نياندرتال femme de Néandertal ». فحتّى وقت قريب، كان مفهوم ما قبل التّاريخ مقتصرا على الذّكر حصريّا.

في كتاب التّاريخ الّذي درست منه في ذلك الوقت – أعني في الثّمانينيات – كنّا نرى رجالا يشعلون النّيران ويصنعون الأدوات ويستخدمون المقذوفات لقتل الحيوانات، ويطوّرون فخاخا بارعة لاصطياد الطّرائد الكبيرة، ويذهبون إلى الكهوف في أوقات فراغهم ليرسموا على جدرانها روائع فنّيّة. لقد كنّا أجيالا وأجيالا من الطّلاب نتعلّم ذلك. وكان الأمر نفسه يتكرّر على شاشة التّلفزيون. وبالمناسبة، فإنّني لا أنصحكم بإعادة مشاهدة حلقات الرّسوم

المتحرّكة المسمّاة «كان يا مكان... الإنسان Il était une fois l'homme » المكرّسة لهذه الحقبة من الزّمن.

كان هذا التقسيم الجنسانيّ للعمل، حيث ينصرف الرّجل إلى المهامّ الخارجيّة فيما تُصرَف المرأة إلى الدّاخل وإلى الأعمال المنزليّة، انعكاسا للمجتمع الغربيّ في القرن التّاسع عشر، وهي الحقبة الّتي زُوِّرت فيها دراسة عصور ما قبل التّاريخ. فما تخيّله علماء عصور ما قبل التّاريخ الأوائل لم يكن إلاّ نسخة من التّنظيم الاجتماعيّ الّذي عرفوه في باريس أو برلين أو لندن. أمّا اليوم، فإنّ عددا من المتخصّصين يعملون على تفكيك هذه الافتراضات المسبقة من أجل النّظر إلى الدّلائل الأثريّة من منظور جديد. لكن كلّ هذا لم يكن معلوما عندما كنت طالبة. فأنا كنت أنطلق من فرضيّة بسيطة جدًّا في الحياة، مفادها أنّه إذا كانوا قد درّسوني شيئا ما، فذلك يعني أنّ هذا الشّيء صحيح. وهكذا استوعبت قدرا معيّنا من المعرفة اتّضح لاحقًا أنّها خاطئة.

دعونا نَعُدْ إلى الهُيولى البائسة المنكفئة على أربع في كهفها، ولنسمّها غويندولين Gwendoline.

بقيت غويندولين مغفلة إذا لقرون عديدة. بل إنّ الاهتمام بها أمر جديد تماما. وكم أودُّ أن أقول إنّ لديّ سبقًا صحفيًّا عظيمًا، وهو أنّنا قد اكتشفنا للتّوّ أنّ غويندولين كانت تحكم العالم في العصر الحجريّ القديم، وأنّنا انحدرنا من نظام أموميّ عظيم أو على الأقل كنّا في ذلك العصر نعيش في ظلّ مساواة هانئة.

ولكن لسوء الحظّ، إنّ ما يسمّى بالأمانة الفكريّة يمنعني من القيام بذلك.

ينبغي أن نفهم أنّ عصور ما قبل التّاريخ طويلة جدا، فهي تمتدّ من 5.5 مليون سنة إلى 3500 سنة خلت قبل عصرنا. وهذا يعني أنّها تمثّل 99.7٪ من الثّلاثة ملايين سنة من التّطور البشريّ. فإذا كانت معرفتك بعصور ما قبل التّاريخ مقتصرة على فيلم حرب النّار La Guerre du feu ، فإليك بعض المعلومات المرجعية: تُقسَّم هذه الفترة إلى ثلاثة عصور رئيسيّة، هي العصر الحجريّ القديم Paléolithique، والعصر الحجريّ الوسيط Mésolithique، والعصر الحجريّ الحديث Néolithique (العصر الحجريّ القديم ينقسم بدوره إلى الأدنى والمتوسّط والأعلى). وحتّى لو اقتصرنا على العصر الحجريّ القديم الأعلى (وهو الأقرب إلينا)، فإنّه يغطّي 30 ألف عام. مقياسنا هنا ليس القرون كما هو الحال في التّاريخ الحديث، بل هو آلاف السّنين.

لنأخذ مثالا ملموسا على ذلك: إنّ أشهر كَهْفَين مَطليين بالرّسوم في فرنسا، وهما كهف شوفيه Chauvet وكهف لاسكو Lascaux، تفصل بينهما فترة زمنيّة أطول من الفترة الّتي تفصلنا عن كهف لاسكو.

من الصّعب بالتّالي أن نتخيّل وجود شكل واحد فقط من التّنظيم البشريّ على مدى هذه الآلاف من السّنين. ومن ثمّ، لا يمكننا الإجابة بطريقة شاملة عن سؤال: كيف عاش البشر في عصور ما قبل

التّاريخ؟ أو عن السّؤال المتعلّق بالموضوع الّذي يهمّنا: هل هيمن الرّجال على النّساء في عصور ما قبل التّاريخ؟

وخلال هذه الفترة الزمنية، وعلى امتداد العالم يمكننا أن نتخيّل أن بنى أموميّة وأبويّة قد سادت، بل ربما أيضا بنى تميزت بالمساواة.

دعونا ننظر إلى التّنوّع الاستثنائيّ لأنماط الحياة والثّقافات على هذا الكوكب اليوم. حتّى لو أخذنا في الاعتبار أنّ هذا التّنوّع قد ازداد وضوحا مع مرور الوقت والاكتشافات التّقنية، فإنّنا ندرك أنّ البشر في جميع أنحاء العالم يجب أن يكونوا قد جرّبوا طرائق شديدة الاختلاف لبناء المجتمع على مدى مئات الآلاف من السّنين من تطوّر جنس الإنسان. الحياة معين لا ينضب. وهناك شيء واحد لا يداخله الشّكّ: أنّنا كنّا بحاجة لبعضنا بعضا، ولذلك كنّا نعيش في مجموعات.

ومثلما لم تكن عصور ما قبل التّاريخ مجرد نهر هادئ طويل يعبر منطقة البيريغور le Périgord، كذلك لم تكن هناك امرأة ما قبل التّاريخ بل نساء ما قبل التّاريخ، كما تذكّرنا المؤرّخة كلودين كوهين Claudine Cohen. لنتوقّف عند سؤال كثيرا ما يُطرح: هل كانت النّساء في تلك الحقبة الزّمنيّة يصطدن؟ هذا ما كانت تخبرنا به مقالات لافتة للنّظر في نوفمبر 2020، اعتمادا على عمل راندال هاس Randall Haas وفريقه. كان عالم الآثار هذا يقود الحفريات في جبال بيرو عندما اكتشف شخصا مدفونا في قبر من حجارة منحوتة كانت تُستخدم لصيد الطّرائد الكبيرة. ومع ذلك، فقد تمّ

تحديد هذا الجسد على أنّه جسدُ أنثى. وهناك هياكل عظميّة نسائيّة أخرى اكتشفت مع أثاث جنائزيّ مماثل في القارّة الأمريكيّة. وها قد انتهى بنا الأمر اليوم إلى قراءة منشورات علميّة في عناوين أخبار وكالة فرانس براس الرئيسيّة السّريعة من قبيل: «في مجتمعات الصّيادين وجامعي الثّمار، النّساء أيضا مارسن الصيد».

في الآن نفسه، يلاحظ الباحث سيباستيان فيلوت[1] Sébastien Villotte، الّذي يعمل أيضا على بقايا من عصور ما قبل التّاريخ، تشوّها على الهياكل العظميّة لا يمكن تفسيره إلاّ بممارسة الرّمي المتكرّر. ولكنّ الفرْق بين الرّجال والنّساء في أبحاثه ملحوظ جدّا من النّاحية الإحصائيّة، ويذهب في اتّجاه تقسيم جنسانيّ للأنشطة حيث يكون الرّجال وحدهم قد مارسوا أنشطة الرّمي الّتي تترافق مع الصّيد.

فمن نصدّق إذًا؟ سيباستيان أم راندال؟ من يدرس قبورا في الفضاء الأوروبّيّ أم من ينقّب قبور أمريكا الجنوبيّة؟

ولنكون واقعيين، هل سيكون من المستغرَب أن تكون نتيجة تحليلاتهما مختلفة؟ أم أن العكس هو المفاجئ؟

---

(1). يَدرُسُ سيباستيان فيلوت Sébastien Villotte الآفات الّتي تصيب الهياكل العظميّة لعصور ما قبل التّاريخ والّتي تتشكّل نتيجة لنشاط متكرّر. ومن خلال دراسة عيّنة مكونة من حوالي 120 فردا من العصر الحجريّ الحديث و60 من العصر الحجريّ الوسيط و30 من العصر الحجريّ القديم، من مواقع أوروبّيّة مختلفة، وَجد أنّ لدى الأفراد الذّكور عيبا صغيرا في كوعهم الأيمن يتشكّل نتيجة لأنشطة الرّمي. وقد لوحظ هذا العيب حتّى لدى فتيان من عصور ما قبل التّاريخ، ممّا يشير على ما يبدو إلى أنّ النّشاط المعنيّ كان يمارس بانتظام منذ الطّفولة أو المراهقة.

لن أقول لكم إنّه لم يكن هناك تقسيم جنسانيّ للأنشطة أو إنّ جميع الغويندولينات في العالم كنّ صيّادات عظيمات. الواقع أكثر تعقيدا من حيث الأساس: فقد كان هناك تنوّع في المجتمعات البشريّة.

هذا ما يظهره لنا علم الأعراق (الإثنوغرافيا) أيضا. لمحاولة فهم نمط حياة أسلافنا، يمكننا دراسة مجتمعات الصّيادين – جامعي الثّمار الّتي لا تزال موجودة في وقتنا الحاليّ[2]. فكيف تُعامَلُ النّساء في هذه المجموعات؟ إنّ معظمهنّ في وضع المهيمَن عليهنّ. ولكن هنا تتعقّد الأمور لأنّ الهيمنة نفسها تختلف في درجاتها وفي أدائها. وقد قدّمت فرانسواز إيرتييه مثالين من طرفي طيف الهيمنة، وهما شبه المساواة الّتي سادت بين سكّان ناسكابي Naskapis، وهو شعب هنديّ أمريكيّ في كندا، وشبه استعباد نساء شعب الأونا Ona الّذين كانوا يقيمون في تييرا دل فويغو بأمريكا الجنوبيّة[3].

لذلك، فإنّ السّؤال «هل كانت نساء ما قبل التّاريخ يصطدن؟» سؤال بلا معنى. فعصور ما قبل التّاريخ ليست متجانسة. لا شكّ وأنّ النّساء في أماكن معينة، وفي فتراتٍ معيّنة، كنّ يصطدن. ومن ثم سيكون من الضّروريّ مراجعة صيغ طويلة ومملة مثل القول إنّ

(2) - مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذه الشّعوب ليست أكثر بدائيّة منّا، وأنّه من الواضح تماما أنّ أنماط حياتهم قد تطوّرت على الرّغم من ارتباطهم بالتّقاليد. وبالمثل، لم تمثل مجتمعات ما قبل التّاريخ حالة بدائية، بل أشكالا اجتماعيّة كاملة. وهذه العصور ليست هي الأصل. إذ لا بد من البحث عن الأصل في الأساطير، وهو سؤال دينيّ وليس علميّا.

(3) - Françoise Héritier في ""Le sang du guerrier et le sang des femmes، Les Cahiers du GRIF، رقم 29، 1984.

«نساء هذه المجموعة في هذا المكان في ذلك الوقت كنّ يصطدن طرائد كبيرة» أو على شاكلة ««نساء هذه المجموعة في هذا المكان في تلك الفترة كنّ يصطدن طرائد كبيرة» أو «يبدو أنّ نساء هذه المجموعة في هذا المكان في تلك الفترة كنّ مستبعَدات من صيد الطّرائد الكبيرة». من المؤكّد أنّ هذه العناوين تنقصها الدّقّة في البحث على الإنترنت. وهناك ما هو أسوأ من ذلك: ففي المكان نفسه، وفي لحظة معيّنة، يجب ألا نتصوّر أنّ البشر كانوا يعيشون بشكل متطابق، فبعض المجتمعات تخصّصت في صيد الخيول بينما برعت أخرى في صيد الرّنّة، وبالتالي كان لكلّ مجموعة تقاليدها ومعارفها، بما في ذلك أدوار الجنسين.

ومن المرجّح جدّا أنّ توزيع العمل في عصور ما قبل التّاريخ لم يعتمد على المعايير الاجتماعيّة والثّقافيّة فحسب، بل أيضا على المناخ والفصل وتركيبة المجموعة في لحظة معيّنة وقدرات كلّ شخص، وعمره (النّساء بعد سنّ اليأس مثلا). بالإضافة إلى ذلك، كانت بعض المهام تتطلّب وجود المجموعة بأكملها، كتقطيع الطّرائد، على سبيل المثال، الّذي كان لا بدّ من إنجازه في وقت قصير. لم تكن هيمنة الذّكور بالضّرورة أمرا حتميّا تمتثل له جميع المجموعات، بل كان من الممكن تكييفها مع السّياق. (كمثال معاصر على ذلك، تجلّت هذه المرونة في بلدنا عندما غادر الرجال للمشاركة في الحرب العالمية الأولى، فاضطلعت النساء بمسؤولية عملهم).

قد تعمل النّساء على سبيل المثال في قطع الصوّان، إذا أظهرن موهبة في ذلك. عندما يعثر على قبر يشير على ما يبدو إلى مكانة معيّنة للشّخص المدفون، فمن المحتمل ألا يشير ذلك إلى مكانته ضمن التسلسل الهرمي بقدر إشارته إلى جدارته، كأن يكون صيّادا ماهرا أو معالجة متميزة، مثل رجل مينتون Menton. إنّه مدفن يعود تاريخه إلى 24 ألف عام، يتميز بالغنى ممّا يشير إلى مكانة اجتماعيّة مرموقة. كان المتوفّى يرتدي غطاءَ رأس من الصدف، وقلادة مصنوعة من أنياب الغزلان المثقوبة، ونصلين من الصّوان، وقد عُثر على مسحوق حديديّ، ومغرةٍ حمراء عليه. لذلك ذهب الاعتقاد إلى أنّه كان رجلا. ولكن الأعمال الأخيرة أثبتت أنّ المدفن كان لامرأة تبلغ من العمر 37 عاما. فما الّذي يمكن استنتاجه من هذا؟ نستنتج أنّه يمكن ربط علامات الأبّهة هذه بالنّساء. لا أكثر ولا أقلّ.

إذا كان الاعتقاد بأن النساء كن يستبعدن تلقائيّا من أنشطة مثل الصّيد قد ساد لفترة طويلة، فذلك لأنه كان يُعتقَد أيضا أنّ مثل هذه الأنشطة غير متناسب مع الأمومة. ولكن هنا مرّة أخرى، كنّا ضحايا للأحكام المسبقة. لقد ساد التصور أنّ هؤلاء البدائيين كانوا يمارسون الجنس دون توقف، وبالتالي كانت النّساء حوامل باستمرار، ويحملن طفلين يتشبّث كلّ منهما بأحد الثديين. لكننا أصبحنا اليوم على بيّنة بأنّهنّ كنّ يمارسن المباعدة بين الولادات لمدّةَ ثلاث سنوات أو أربع على الأقلّ بين كلّ طفلين. وهن لم يستخدمن لذلك ما يسمى انقطاع الحيض الإرضاعي، وهو نقص الخصوبة طالما كن يرضعن طفلا، بل أيضا النّباتات المجهِضة دون شك.

لكن المفارقة هنا تكمن في أن أولئك الّذين يقولون إنّ النّساء لم يكن بإمكانهنّ الصّيد لأنّهن كنّ مضطرّات للبقاء لرعاية الأطفال هم غالبا الأشخاص نفسهم الّذين يؤكّدون أنهن بالتالي كن يمارسن القطاف، لأن القطاف برأيهم عمل هادئ وسهل وغير متعب، عمل خاص بالفتيات. إنّ القطاف، في الواقع، هو عمل مرهق. ولقد قام علماء الأعراق الّذين درسوا الصّيادين وجامعي الثّمار في مجتمع كونغ سان من جنوب إفريقيا بعمليّة حسابيّة أظهرت أنّ النّساء يقطعن بين ثلاثة كيلومترات وعشرين كيلومترا في اليوم (ثلاثة أيّام في الأسبوع)، ويحملن في طريق العودة ما بين سبعة كيلوغرام وخمسة عشر كيلوغراما من الأغذية النّباتيّة. وبالتّالي إذا كانت النّساء قد كلفن بالقطاف، فلم يكن ذلك بالتأكيد لأنه كان أقلّ إرهاقا لهنّ من الصّيد.

علاوة على ذلك، لم تكن المباعدة بين الولادات فقط هي الّتي سمحت بتحرّر النّساء. كانت هناك أيضا - ومن المثير للاهتمام أنّنا لم نفكّر في هذا الأمر لفترة طويلة - الجدّات. هناك ما يسمّى «فرضيّة الجدّة l'hypothèse de la grand- mère». إنّ المطلوب من العلماء حلُّ هذا اللّغز المربك: لماذا تبقى النّساء على قيد الحياة لفترة طويلة بعد انقطاع الطّمث؟ نعم، إنّه سؤال علميّ حقيقيّ. من وجهة نظر تطوّريّة، كان يجب أن تنتهي حياتنا في اللّحظة نفسها الّتي تنتهي فيها وظائفنا الإنجابيّة، مثلما هو الحال مع الرّئيسيات الأخرى. إذًا ما الفائدة من الجدّات؟ ما هي وظيفتهنّ البيولوجيّة؟

فقط مع الحيتان القاتلة والحيتان الطّيّارة، تبلغ الإناثُ نفسَ هذا المتوسّط من العمر الطّويل بعد نهاية قدرتها الإنجابيّة. لقد أظهرت إحدى الدّراسات أنّ المعرفة الّتي تمتلكها الحيتان القاتلة بعد انقطاع الطّمث مفيدة للمجموعة بأكملها: ففي حالة نُدرة الغذاء، يصبحن قادةً لهذه المجموعة. إنّ لديهنّ فائدة اجتماعيّة.

سيكون سنّ اليأس، وفقا لفرضيّة الجدّة، ميزة تطوّريّة للجنس البشريّ، لأنّ الجدّات قادرات على رعاية أطفالهنّ وأحفادهنّ. يجب القول إنّه من الواضح أنّ التّكاثر البشريّ لا يصبّ في صالح الإناث. فالانتقال إلى مرحلة المشي على القدمين قد جعل الولادة أكثر صعوبة وألما وخطورة. بالإضافة إلى ذلك، حتّى تتمكّن جمجمة الوليد من المرور، تلد النّساء أطفالا أبعدَ ما يكونون عن الاكتمال. ولذلك سيختبر الأطفالُ الرّضّعُ الجزء الأكبر من نموّهم خارج الرّحم. عند الولادة، يكون صغار البشر في حالة من الضّعف التّامّ وبحاجة إلى الكثير من الرّعاية لفترة طويلة. وهكذا، سوف يُتيح سنّ اليأس للنّساء التّوقّفَ عن المخاطرة بحياتهنّ أثناء الولادة ورعايةَ الأمّ الشّابّة والأحفاد في آن واحد، ومن ثمّة تحسينَ فرصهنّ في البقاء على قيد الحياة. سيكون هذا أحد الأصول التّطوّريّة – وليس عائقا مخزيا أو مرضا مزعجا مثلما يميل مجتمعنا إلى اعتقاده. إنّ انقطاع الطّمث هو حظّ طيّب.

وهكذا، لم تكن الأمومة في العصر الحجريّ القديم تعني بالضّرورة أنّ النّساء بقين محبوسات في ملاجئهنّ للتّنظيف بالمكنسة

المصنوعة من شعر الماموث. إنّ الفكرة الّتي مفادها أنّ الأسرة هي أمٌّ تمكث في المنزل لرعاية الأطفال وأبٌ يذهب للصّيد، تعود إلى القرن التّاسع عشر. في الواقع، تعتبر بعضُ عالمات الأنثروبولوجيا الحاليات، على غرار كورتني ميهان Courtney Meehan وروث مايس Ruth Mace، أنّ جزءًا من نجاح التّطوّر البشري يعود بالتّحديد إلى ما يسمّى التّنشئة الوالديّة الجماعيّة alloparentalité، الّتي تعني حشد المجموعة بأكملها لرعاية الأطفال، بما في ذلك إرضاعهم رضاعة طبيعيّة، وأنّه يمكن لنساء أخريات في المجموعة أن يتولّين المسؤوليّة. إنّ بقاء الأمّ في المنزل، إذا نظرنا إليه من زاوية التّاريخ البشريّ بأكمله، هو اختراع حديث للغاية، مرتبط جدًّا بثقافة غربيّة من القرن العشرين. إنّه تقريبًا حادثٌ تاريخيّ، انحرافٌ عن الأنظمة المعتادة. وهو ما يفسّر، حسب رأيي، الإرهاق الّذي تعاني منه الأمّهات. فنموذجنا الحاليّ يطالبهنّ بالكثير ولم يعد يعتمد بشكل كاف على هذه التّنشئة الوالديّة الجماعيّة.

2

الفينوسات ومكانة الأنثى

دعونا نلق نظرة الآن على الدّليل الأخير المتاح لنا لفهم هذه الأزمنة البعيدة: ونعني به الفنّ الجداريّ. تُظهر لنا دراسةُ الكهوف الطّريقة الّتي كان ينظر بها أسلافُنا إلى العالم ومكانِهم فيه، وبعبارة أخرى معتقداتهم المتعلّقة بنشأة الكون cosmogonie.

وهنا تلقّيت صدمة. أو بالأحرى صدمة مزدوجة. في بداية الأمر، عندما بدأتُ في الاهتمام بعصور ما قبل التّاريخ، اكتشفت أنّه كان يُعتقد أنّ الكهوف قد رسمتها نساء. أي جدّاتي الأوليات... ولكن هذا أمر جنونيّ ...

في الواقع، نحن لا نعرف شيئا عن ذلك. ولكن ليس لدينا أيّ دليل على الإطلاق على أنّ هذه الأعمال والمنحوتات والنّقوش واللّوحات كانت من صنع رجال حصريّا. لا دليل مطلقا باستثناء تحيّزاتنا الخاصّة الّتي تجعلنا دائمًا نقرن الفنّ بالرّجل، والقوّة الفنّيّة بالذّكورة. من خلال آثارِ أقدامٍ عُثر عليها في بعض الكهوف، علمنا أنّ أطفالا كانوا حاضرين، وهذا يعني بداهة حضور نساء ورجال أيضا. هناك نقاش بشأن آثار لأيدٍ ينبغي أن يكون بعضها آثارا لأيدي نساء، ولكنّنا ما زلنا لا نعرف بعدُ كيف نستخلص منها الدّلالة. فهل

كانت تلك البصمات توقيعًا على لوحة جداريّة، أم شهادة بسيطة للمجموعة؟ على أيّ حال، ما يجب أن نحتفظ به من ذلك هو أنّ الكهف لم يكن مكانًا ذكوريًّا فقط.

فيما يتعلّق بالفنّ الجداريّ، يعتمد البحث هنا أيضا على سكّان أستراليا الأصليين، لأنّهم شعوب استمرّوا في ممارسته وكان وجودهم في جزيرة معزولة كفيلا بالإبقاءِ على بعض الخصوصيات. ومع ذلك، فإنّ نساء هؤلاء السّكّان الأصليين قد شاركن في خلق الأعمال الفنّيّة. وفي بعض الأحيان، خصِّصت بعض المساحات لهنّ وحدهنّ. إذًا، لا علم وصف الأعراق البشرية ولا الآثار المادّيّة يسمحان لنا باستبعاد فرضيّة وجود نساء فنّانات.

جاءت صدمتي الثّانية عندما استوعبت صدمتي الأولى. فقد ذُهلت عندما أدركت أنّني لم أفكّر مطلقا في أنّ هذه الأعمال ربّما كانت من صنع نساء. لم يخطر هذا على بالي ولو لجزء من الثّانية. يتمّ الحديث في كثير من الأحيان عن «التّفكيك»، وتُستخدم هذه الكلمة كما اتّفق. ولكنّ التّفكيك هو هذا بالضّبط. هو أن تعتقد طوال الوقت بأنّ رجالا، على شاكلة مايكل أنجلو ولكن في جلود حيوانات، هم بالطّبع من رسموا لاسكو Lascaux – قبل أن ندرك أن هذه الرّؤية لا يدعمها أيّ دليل ملموس. أعيد القول مرّة أخرى، إنّه لا شيء على الإطلاق يسمح لنا في الوقت الحالي بمعرفة ما إذا كانت هذه المنحوتات والمنقوشات واللّوحات من عمل رجال أم نساء.

السّؤال الآخر الّذي يثيره هذا الفنّ هو دلالته. كما تذكّرنا بذلك كارول فريتز Carole Fritz، عالمةُ الآثار والمتخصّصة في فنّ عصور ما قبل التّاريخ، فإنّ جميع المجتمعات الخالية من الكتابة لديها أساطير. وهي تلحّ أيضا على نقطة أخرى لافتة للنّظر تتعلّق بأعمال العصر الحجريّ القديم: ألا وهي تجانسها. لنعدْ إلى كهفينا الشّهيرين، لاسكو وشوفيه. حسنا، دعونا نكرّر القول إنّ ما يلفت الانتباه، حتّى لو كان الزّمن الّذي يفصل بين شوفيه ولاسكو أطول من ذاك الّذي يفصل بيننا ولاسكو، هو أوجه التّشابه بين الصّور المكتشفة في الموقعين. هناك تشابه بينها في الموضوعات – من حيث الحضور الدّائم للحيوانات - وكذلك في طريقة تمثيلها. تذهب كارول فريتز إلى أنّه إذا كانت هذه الأعمال هي لفنّانين فرديين مستوحاة من إلهام شخصيّ، فإنّ الحصيلة كان ينبغي أن تكون أكثر تنوّعا. لأنّ كلّ فنان كان ليبتكر زخارفه الخاصّة به، ولكانت هناك فروق قاطعة بين الأعمال. وهكذا، فإنّ أوجه التشابه هذه على مدى آلاف السّنين تدلّ على أنّه كانت هناك رقابة اجتماعيّة تمارَس على ما كان ينبغي رسمه وعلى كيفيّة رسمه. لقد كان تقليدا قويّا جدّا إلى درجة أنّه استمرّ لآلافَ السّنين.

ومن ثمّ، فإنّ الطّريقة الّتي نُظِّمت بها هذه اللّوحات يجب أن تكون تعبيرا عن معنى، بل وعن أسطورة. على سبيل المثال، كثيرا ما تكون الشّخصيات الأنثويّة في هذه التّمثيلات مرتبطة بالجاموس، بينما تكون الشّخصيات الذّكوريّة مرتبطة بالحصان. ومن هنا، قد يتجادل المتخصّصون حول الدّلالة الّتي ينبغي استخلاصها. من

ذلك مثلا أنّ عالم الأنتروبولوجيا جان لويك لو كيلاك Jean-Loïc Le Quellec، وهو يتقفّى قصص الأجداد المتوارثة عبر الزّمن، يرى أنّ هناك أسطورة عن نشأة الكون، ووفقا لهذه الأسطورة وُلدت الكائنات الحيوانيّة والبشريّة في أعماق الأرض ثمّ خرجت منها إلى سطحها عبر أحد الكهوف. قد يكون الفنّ الجداريّ إذًا تجسيدًا لهذه الأسطورة.

ولكنّ فنّ عصور ما قبل التّاريخ لا يقتصر على رسوم الكهوف أو نقوشها. هنالك أيضا المنحوتات، وهنا سنتطرّق إلى موضوع الفينوسات Les vénus الحسّاس، وهو الاسم الّذي أُطلق على تماثيل صغيرة تمثّل أجسادَ نساء.

عندما عُثِرَ عليها، كانت الفرضيّة الأولى، الّتي لم تُفَكَّك جدّيًّا، هي أنّها كانت منحوتات إباحيّة. فقد كانت تلك التّماثيل ترسم أثداء كبيرة وأردافا ضخمة وفرجا بارزًا للغاية. لا بدّ إذًا وأنّ رجالا هم من نحتوا أجساد هؤلاء النّساء بغاية الاستمناء، أي أنها كانت بمثابة الأفلام الإباحية في ذلك الوقت.

في وقت لاحق، تمّ الاتّجاه نحو فرضيّة آلهة الخصوبة، خاصّة فيما يتعلّق بتلك التّماثيل الّتي تمثّل بوضوح نساءً حواملَ. ولكنّ المسألة بالنّسبة إلى الشّعوب البدويّة لم تكن تتعلّق بالخصوبة. فقد كان الاهتمام في ذلك الوقت متركّزا بالأحرى على تحديد النّسل.

كما تصوّر البعضُ الآخر أنّ هذه الأعمال كانت أنواعا من الدّمى وألعاب الأطفال.

فهي، بشكل عامّ، صغيرة الحجم، وبعضها نُحِتَ ليُحمَلَ كقلادة حول الرّقبة. فهل كانت تمثّل أنواعا من الآلهة؟ إنّها ذات أشكال مختلفة جدًّا بحيث يصعب معها تحديد هويّة إلهة منها تحديدا دقيقا.

يجب عليّ أن أضع الآن حدًّا للتّشويق لأقول إنّنا لا نعرف من تكون.

(إنّ عصور ما قبل التّاريخ هي تلك الفترة الّتي ننتقل فيها من «لا نعرف» إلى «لسنا متأكّدين من أيّ شيء».) لقد عُثر على أكثر من 250 فينوسا، وهي تماثيل منحوتة يتراوح ارتفاعها بين 4 سم و25 سم، بعضها نحيل، وبعضها الآخر ممتلئ الجسم، وقد صُنعت على مدى فترة زمنية تمتدّ على 25.000 سنة، وفي منطقة تمتدّ تقريبا من إنجلترا إلى سيبيريا. من الصّعب إذًا أن نتصوّر كيف يمكن أن يُنسَب إليها استخدام واحدٌ ودلالة واحدةٌ.

من بين الفرضيات الأكثر احتمالا، هناك واحدة شدّت انتباهي. ربّما لم تكن هناك حاجة إلى إله الخصوبة في ذلك الوقت، ولكنّهم كانوا يعلمون أنّ الحمل والولادة والنّفاس هي لحظات خطيرة قد تودي بحياة الأمّهات وأطفالهنّ. فماذا إذًا لو كانت بعض هذه التّماثيل النّسائيّة الصّغيرة، وخاصّة منها تلك المجسّمة لنساء ممتلئات كأنّهنّ حوامل والصّغيرة بما يكفي لتناسب راحة اليد أو لحملها حول الرّقبة، ماذا لو كانت تعويذاتٍ لجلب الحظّ السّعيد؟ ماذا لو كانت أنواعا من التّمائم الواقية لمرافقة الحمل؟ هذا التّأويل سيكون متناغما مع حقيقة أنّه لم يتمّ العثور عليها في مواقع مقدّسة، بل بالأحرى بين

نفايات. وأنّها بمجرّد انتهاء الوضع، يمكن التّخلّص منها. (خاصّة إذا لم تقم بالعمل المتوقَّعِ منها...)

سيقودنا هذا إلى سؤال ثانٍ: في هذه الحالة، إذا كانت التّماثيل موجَّهة للنّساء وليس للرّجال، ألن يكون من الجائز أيضا أن نتصوّر أنّ من نحتها هنّ نساء؟ أي أنّها مصنوعة من قِبل نساء من أجل النّساء... وهكذا فإنّ فرضيّة وصف عصور ما قبل التّاريخ بالإباحيّة هي فرضيّة عرجاء وغير مقنعة.

في منتصف السّبعينيات، ذهبت عالمة الآثار ماريا جيمبوتاس Marija Gimbutas إلى أنّ هذه المجسّمات الأنثويّة كانت دليلا على وجود عبادة إلهة عظيمة في مجتمع أموميّ. ومنذ ذلك الحين، شكّكت غالبية المجتمع العلميّ في هذه النّظريّة. السّبب الأوّل أنّه لا يوجد أيّ دليل يثبت ذلك. والسّبب الثّاني أنّ عالمة الآثار تنطلق من مبدأ أنّه كانت هناك ثقافة واحدة تسيطر على كلِّ أوروبّا على مدى آلاف السّنين.

ولكنّ الحقيقة الثّابتة والباقية هي أنَّ النِّساء كنّ هنّ الممثَّلات. حتّى في الكهوف، نجد العديد من رموز الفرْج. إنّ أقلّ ما يمكننا قوله هو إنَّ العضو الجنسيّ الأنثويّ لم يكن مُخزيًا قبل 20.000 عام (فهو يزعج اليوم أكثر بكثير على الإنستغرام Instagram). لقد كانوا يرسمونه وينقشونه وينحتونه. إنّه لأمر مدهش لنا ومنعش للغاية، في ثقافتنا الّتي لا يوجد فيها الفرج كصورة، حيث ما يُرسم على الجدران أو يُنقش على الطّاولات باستمرار هو القضيب

والخصيتان، أن نرى كلّ هذه الفروج المنمنمة بشكل أو بآخر. عندما كنت مراهقة وتساءلت عن سبب رسمنا دائما لأعضاء الأولاد الجنسيّة، توصّلت إلى تفسير عمليّ مفاده أنّه كان من الأسهل إعادة رسمه. ولكنّ فنّ عصور ما قبل التّاريخ يحرّرني من هذا الوهم. إنّه من السّهل جدًّا تمثيل الفرج، وقد تمّ القيام بذلك منذ آلاف السّنين باستخدام مثلّثات تتّجه إلى أسفل بخطّ عموديّ. إنّ إخفاء الفرْج هو ظاهرة حديثة.

بالنّسبة إلى كارول فريتز Carole Fritz، فإنّ حقيقة أنّه لا يوجد في الكهوف سوى 5٪ من التّمثيلات البشريّة وأنّ هذه التّمثيلات هي أنثويّة في معظمها، تخبرنا بشيء ما عن هيمنة المؤنث. هذه حقيقة لا يمكن إنكارها، إنّها مرئيّة ولذلك يجب أن تكون لها دلالة. يعيدنا هذا إلى أسطورةٍ عن أصل العالم لم تهيمن عليها شخصيات ذكوريّة بعدُ. يمكن أن يقرأ فيها المرء انبهارا بالمرأة الحامل وبالولادة. انبهارا بهذا الجسد الّذي يُنجب شخصا آخر، أكان فتى أم فتاة، سيصبح فيما بعدُ شخصًا بالغًا. ها هنا يوجد شيء استثنائيّ، خاصّة عندما نضيف إليه رؤية الولادة - أعتقد أنّ معظمنا سوف يوافق على التّأكيد بأنّ الولادة هي لحظة في غاية الرّوعة. فبالرّغم من أنّنا نحوز على كلّ المعرفة العلميّة الّتي تسمح لنا بتفسيرها، إلاّ أنّ هناك دائمًا شيئًا سحريًّا يحدث في تلك اللّحظة. ولا أفهم لماذا لا يكون بشر ما قبل التّاريخ أيضا قد أُعجبوا بها. هذا لا يعني مع ذلك أنّ المجتمعات الّتي أنتجت هذه الأعمال كانت أموميّة، ولكنّها على الأقلّ قد أعطت مكانة خاصّة لما هو أنثويّ.

لئن احتلّت الأنثى في عصور ما قبل التّاريخ مواقع مختلفة، إلاّ أنّ هناك حقيقة تاريخيّة ثابتة: فمنذ ذلك الحين، تسيّد النّظام الأبويّ إلى حدّ كبير. فهو موجود في أكثر من 80٪ من المجموعات البشريّة. نحن لسنا بعيدين عن انتصار بالضّربة القاضية. يوجد حاليّا حوالي خمسين مجتمعا في العالم تسمّى بالمجتمعات الأموميّة بالمعنى الواسع جدّا للمصطلح(4). للوصول إلى هذا الرّقم، تقترح الباحثة هايد غوتنر أبندروث Heide Göttner-Abendroth، الّتي ما انفكّ عملها يثير الجدل، إدخالَ تعديل في تعريف النّظام الأموميّ. فلا ينبغي التّفكير فيه من منظور الهيمنة. فالمجتمع الأموميّ لن يكون مجتمعا قائمًا على هيمنة الإناث، وكأنه انعكاس للنّظام الأبويّ. بل سيتميز على وجه التحديد بمنظومته القائمة على المساواة، حيث لا تخضع أيّ مجموعة لمجموعة أخرى. سيكون مجتمعَ الإقامة الأموميّة matrilocale (حيث يعيش المرء في أسرة والدته) والانتسابِ الأموميّ matrilinéaire (حيث ينتسب الأبناءُ إلى أمّهم). يمكن من ثمّة، وفقًا لهذا التّعريف، تصنيف بعض الجماعات الاجتماعيّة اليوم على أنّها أموميّة.

ولكنّ النّظام الأبويّ ساد على النّطاق العالميّ. وهذا لا يمكن إلاّ أن يدفعنا إلى السّؤال التّالي.

---

(4) - قبل خمسين عاما، قُدّر أنّ مجتمعات الانتساب الأموميّ، حيث يكون الانتساب إلى الأمّ، تمثّل 15٪ من جميع المجتمعات، وأنّ مجتمعات الانتساب الأموميّ والإقامة الأموميّة، حيث يعيش المرء في عائلة أمّه، تمثّل 7٪.

من أين جاءت هذه الهيمنة؟ يكتسبُ السّؤال أهمّيّة أكبر طالما أنّنا استبعدنَا سببًا طبيعيًّا وفيزيولوجيًّا مرتبطًا بالأمومة. إنّ الأمومة ليست «إعاقةً» يمكن أن تُفسّر هيمنة الذّكور. وعلاوة على ذلك، إذا كانت هيمنة الذكور تستند إلى حتميّة بيولوجيّة، فإنّه ما كانت لتوجد مجتمعات أخرى بخلاف المجتمعات الأبويّة. ولكن ليس هذا هو الحال.

كيف استقرّت هيمنة الرّجال هذه على النّساء؟ كيف تقبّلت النّساء أن يُنظر إليهن، أن ينظرن إلى أنفسهنّ، على أنّهنَّ أقلّ شأنًا من الرّجال؟ كيف أمكن لنصف البشريّة إخضاعُ النّصف الآخر، حتّى عندما لم يكن الفارق في القوّة الجسديّة بمثل هذه الأهمّيّة؟ لماذا التزمت النّساء بنظام اجتماعيّ أضرّ بهنّ إلى هذا الحدّ؟

ربّما لن يتمّ توضيح هذه المسألة المتعلّقة بأصل هيمنة الذّكور بشكل كامل، ولكن بإمكاننا أن نقدّم بعض الافتراضات.

أوضحت عالمة الأنثروبولوجيا فرانسواز إيريتياي Françoise Héritier هذه الهيمنة من خلال «الامتياز الثّمين لإعطاء الحياة».

لم يكن أكثر ما يمكن أن يدهش الرّجال أنّ النّساء يلدن، بل أنّهنّ يلدن ذكورا، وأنّه بإمكانهنّ من خلال أجسادهنّ الأنثويّة إنتاج شيء مختلف. وأنّه لهذا السّبب كان يجب عليهم المرور بهنّ للحصول على أبناء. ومن هنا سيتملّكون أجساد النّساء لإنجاب الصِّبيان. لقد كان من الممكن أن يصبح هذا الجسد مادّة خامًا يتمّ تبادلها واستغلالها. وبالتّالي تُحرَمَ المرأةُ من حرّيتها في التّصرّف في جسدها. لقد عادت

فرانسواز إيريتياي بهذه الهيمنة إلى العصر الحجريّ القديم، دون أن تكون قادرة على تقديم أيّ دليل. ولكن، حتّى لو بدا واضحًا أنّ جزءًا من فرضيَّتها صحيح، فإنّه لا يفسّر تماما كيف قبلت النّساء بهذه الهيمنة ولماذا.

في الواقع، لا ينبغي للمرء أن يبحث عن مؤامرة ذكوريّة كبيرة. فربّما كان الأمر ببساطة متعلّقا بمعتقدات قديمة تطوّرت وتعزّزت على مدار آلاف السّنين.

يقترح عالم الأنتروبولوجيا ألان تستار Alain Testart في هذا الصّدد فرضيّة في كتابه الأمازون والطّبّاخة L'Amazone et la Cuisinière [5]. وقد اعتمد فيه على أعمال عالمة الأنتروبولوجيا باولا تابيتPaola Tabet عن الأدوات.

لاحظت هذه العالمة[6] أنّ النّساء في المجتمعات الأبويّة كنّ محرومات من الأدوات مقارنة بالرّجال. فهؤلاء هم من كانوا يستخدمون التّقنيات الجديدة، بينما كنّ هنّ يستخدمن الأدوات البدائيّة، بل ويعملن حتّى بأيد عارية. «عندما يعمل الجنسان معا في الزّراعة، فإنّ أطول العمليات وأكثرها رتابة واستمرارا، وعموما العمليات بأيد عارية، هي الّتي تُسنَد للنّساء. (تجدر الإشارة إلى أنّ هذه العلاقة بالتّكنولوجيا لم تتغيّر اليوم إلاّ بنسبة قليلة. في الوقت الحاضر، في إطار زوجين متغايرين، غالبا ما يحتكر الرّجل أداة

(5) - غاليمار، 2014.

(6) - في نصّها المعنون بـ La Construction sociale de l'inégalité des sexes. Des outils et des corps.

إلكترونيّة بمجرّد ظهورها. وبالمثل، فيما يتعلّق بتوزيع الأعمال المنزليّة، ثبت أنّه كلما زاد إدراك مهمّة ما على أنّها شاقّة، زاد احتمال قيام المرأة بها، على غرار تنظيف المراحيض.) يجب أن نتساءل عمّا يعنيه أنّ أحد الجنسين لديه الإمكانيّة لتجاوز قدراته الجسديّة بفضل الأدوات الّتي توسّع قبضته على الواقع والمجتمع، بينما الآخر، على العكس من ذلك، يجد نفسه معتمدا على جسده فقط، وعلى العمليات بيديه العاريتين أو على أبسط الأدوات المتوفّرة في كل مجتمع». وقد اختتمت مقالها هذا الّذي نشرته عام 1979 بضرورة استكشاف المجالات الجديدة الّتي فُتِحت في عصور ما قبل التّاريخ حول هذه المسألة المتعلّقة بالسّؤال عن الزّمن الّذي أقصيت فيه النّساء من استخدام تقنيات معيّنة وكيفيّة حدوث ذلك. وهكذا فتحت الطّريق أمام البحث في النِّظام الرّمزيّ، بما أنّها استبعدت أيّ تفسير بيولوجيّ.

بعد ذلك، بتوفّر بيانات من كلٍّ من عصور ما قبل التّاريخ والقبائل في جميع أنحاء العالم، يلاحظ ألان تستار أنّ هذا التّقسيم موجود في المجتمعات الأبويّة: فالصّيد هو مجال خاصّ بالرّجال. وعند تساؤله عن السّبب، قام بتفكيك الأفكار المعتادة، وأكثرها شيوعًا هي أطروحة التّنقّل الّتي بموجبها كان الحملُ والرّضاعةُ يمنعان النّساءَ من الحركة. بالإضافة إلى أنّه كانت هناك عمليّات صيد غير متحرّكة، بين شعب الإنويت على سبيل المثال، تُستبعدُ منها أيضا.

ولكن هناك حالات تشارك فيها النّساء في الصّيد: فالصّيد بالعصيّ (بام! ضربة كبيرة على رأس الفقمة) هو أنثويّ، وكذلك الصّيد بالشّباك. كما أنّهنّ يشاركن في عمليات الصّيد الجماعيّة، ضمن مجموعة إحضار الطرائد وبالتّالي كن جالبات الطرائد.

انطلاقا من كلّ هذه البيانات، يلاحظ الباحث معطًى ثابتًا حقيقيًّا واحدًا هو أنّ الأسلحة الّتي لا تستخدمها النّساء هي تلك التي تتسبّب في إراقة دماء الحيوانات. فاستبعادهنّ ليس استبعادا من الدّم - إذ بإمكانهنّ التّعامل مع الجثث بعد ذلك - بل من الحركة الّتي تتسبّب في تدفّق الدّم. يقرأ ألان تستار في ذلك قرارا رمزيّا. فالمرأة، الّتي تنزف، (أثناء الحيض ولكن أيضا أثناء الحمل وبعد الولادة) تُستبعَد من تدفّق الدّم لأنّها تشبهه كثيرا. وكما لاحظت فرانسواز إيريتياي، فإنّ جميع أنظمة الفكر البشريّ تنظَّمُ حول مفهومي التّطابق (التّماثل) والاختلاف. إنّ الاعتقاد العميق بأنّه من الضّروريّ الفصل والمباعدة بين الأشياء المتطابقة من شأنه أن يفسّر استبعاد النّساء من أنشطة معيّنة.

هذا الفصل الضّروريّ بين دم المرأة ودم الحيوان، يربطه آلان تستار أيضا بحظر سفاح القربى، والزّواج الخارجيّ، أو بالخوف من زواج الأقارب، أي من اختلاط نفس الدّم. «لآلاف السّنين، وربّما منذ عصور ما قبل التّاريخ، ينبع التّقسيم الجنسيّ للعمل من حقيقة استبعادِ النّساء من المهامّ الّتي كانت تذكّرهنّ كثيرا بالجرح الخفيّ والمزعج الّذي يحملنه بداخلهنّ. لقد وجدت المرأة نفسها مستبعدة

من الصّيد الدّمويّ لأنّها هي نفسها تنزف بشكل دوريّ، ومستبعدَة من ذبح الماشية ومن المجازر للسّبب نفسه، ومستثناة من الحرب والكهانة في جميع الأديان الّتي تنطوي على تضحية دموية».

لقد أدّت العلاقة بدم الحيض إذًا إلى التّقسيم الجنسانيّ للعمل في المجتمعات الّتي تطوّرت نحو النّظام الأبويّ حيث الهيمنة الذكوريّة تزداد شدة. أطروحة الدّم هذه ما تزال محلّ نقاش[7]. ونقطة قوّتها الكبيرة حسب رأيي، هي أنّها تنطلق من المعتقد. فهي لا تبني الهيمنة على حقيقة بيولوجيّة، وإنّما على منظومة من المعتقدات والأساطير استطاعت أن تضفي الشّرعيّة على بناء معاملة مختلفة للمرأة الخصبة، وهي منظومة يمكن للنّساء أنفسهنّ أن يلتزمن بها، دون الحاجة إلى أن يُضرَبن بالعصيّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(7) - استمر ذلك لفترة طويلة بما أنّ إميل دوركهايم، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، قد فكر بها في نهاية القرن التّاسع عشر.

3

ابتداء عبادة الزّعيم في العصر الحجريّ الحديث

بُنِيت العلاقة الحقيقية القائمة على السّيطرة في وقت لاحق، وتحديدا في العصر الحجريّ الحديث، مع ظهور عبادة الزّعيم والفحولة والسّيف. كان منهجًا كاملا...

إذا كان علينا تلخيص العصر الحجريّ الحديث... فدعونا نعرِّفها بأنّها الفترة الّتي تجهلونها. إنّ ما أثار استياء أحد المتخصّصين الفرنسيين، ونعني هنا جان بول ديمولJean-Paul Demoule، هو أنّ الأمر يتعلّق بعشرة آلافِ سنة لم تُدرج في المناهج الدراسيّة لفترة طويلة. في أيّامنا، درسنا رجال ما قبل التّاريخ، ثمّ انتقلنا إلى العصور القديمة والغاليين مع فرسنجيتوريكس Vercingétorix. بيد أنّ ما حدث بينهما هو ما قامت عليه حضارتنا. ولكن، كما يلاحظ ديمول، لم يكن هذا الإغفال مجرَّدًا من الفائدة. فقد كانت الفكرة الكامنة وراءه هي أنّ المدن والزّعماء والجيوش معطيات بديهيّة وشبه طبيعيّة. وبالتّالي لم يكن هناك ما يستدعي التّساؤل عن زمن حدوث كلّ ذلك، ولا عمّا إذا كان أيّ شيء آخر ممكنًا.

ولكن إذًا، فيم تتمثّل الاختلافات بين العصر الحجريّ القديم والعصر الحجريّ الحديث؟

كان العصر الحجريّ القديم، حسب ديمول، يتميّز أكثر بشكل من أشكال المساواة، على الأقلّ وفقا لما يمكن استنتاجه من المقابر. فعلامات الصّراع فيه قليلة، والإصابات الّتي لوحظت من الممكن أنّها قد نجمت عن الصّيد. وأكثر من ذلك، لدينا حتّى أدلّة على وجود أشكال من التّعاون والتّعاطف فيه، كما هو موضّح في دراسات عالمة الآثار والأنتروبولوجيا فاليري ديلاتر Valérie Delattre حول مسألة الإعاقة، ومنها الحالة الّتي دَرَست فيها إنسانا نياندرتاليّا وُلِدَ بذراع واحدة، على سبيل المثال. فعلى عكس ما يمكن أن نتخيّله لو أنّ قانون الغاب، قانون الأقوى وقانون دالاس، كان هو المتَّبَع، لم يتمّ التخلي عنه عند الولادة. بل إنّ مجموعته قد اعتنت به. لذلك، فإنّ الفكرة التي مفادها أنّه كان يتمّ القضاء على الأضعف بالضّرورة، هي فكرة خاطئة.

ولكن مع العصر الحجريّ الحديث، ظهرت تفاوتات قويّة للغاية.

يبدو أنّ الكثير من الأشياء طفقت تتغيّر – منذ حوالي 10.000 سنة. فدرجات الحرارة ما فتئت في الارتفاع، والمناخ الّذي نعرفه اليوم بدأ في التّشكّل، ممّا سيؤدّي إلى التّكيف مع مجتمعات أكثر استقرارا وهرميّة. لقد تمّ هذا بالطّبع على مدى فترة طويلة جدّا تخلّلتها تطوّرات ونكسات ومقاوَمات أيضا لأنماط الحياة الجديدة هذه، ولكنّ هذا قد أدّى في نهاية المطاف إلى ما يسمّى «ثورة العصر

الحجريّ الحديث» بمكوّناتها الثّلاثة: نمط الحياة المستقرّة، والزّراعة، وتدجين الحيوانات.

فكيف كانت انعكاسات كلّ ذلك على النّساء؟ لم تكن جيّدة. لن نكذب على بعضنا البعض. لقد بدأت الأمور في التّدهور بشدّة بالنّسبة إلى غويندولين. فمع تقلّص النّشاط البدنيّ، ازداد عدد الأطفال لكلّ امرأة واحدة. قد يتصوّر المرء أنّ ذلك ربّما كان ناجما عن تقلّص مدّة الرّضاعة الطّبيعيّة، ومن ثمّ طالت فترة خصوبتهنّ.

لقد انتهى التّباعد لمدّة أربع سنوات بين حَمْلين؛ فمنذ ذلك الحين سينجبن طفلا كلّ عامٍ تقريبًا، وهذا كان له تأثير حتميّ على حياتهنّ.

هذه الطّفرة السّكّانيّة قادت إلى التّوسع البشريّ. فعندما تصبح مدينة ما مكتظّة بالسّكان، سيذهب جزء منهم إلى مكان آخر من أجل بناء مدينة جديدة. لذلك، فإنّ جزءًا كبيرًا من السّكان الأوروبّيين الحاليين ينحدرون من شعوب شرق أوسطيّة هاجرت إلى الشّمال. وبالمثل، يُظهر التّحليل الجينيّ للمواشي لدينا أنّها أتت من الشّرق الأوسط، فقد جلبت هذه الشّعوب معها ماشيتها. فعلا، نحن كلّنا مهاجرون.

وهنا أيضا، بالاعتماد على المجتمعات وموقعها، ينبغي أن تكون الأشكال الاجتماعيّة متنوّعة. في أوروبّا، مثلا، يلاحظ عالم الحفريات الأنتروبولوجيّ باسكال بيكك Pascal Picq وجود قوس جغرافيّ يمتدّ من الشّرق الأدنى إلى جنوب أوروبّا، وهذا القوس يتميّز بمجتمعات ذات هيمنة ذكوريّة قويّة منذ العصر الحجريّ الوسيط.

حتّى أنّه يسمّيه «قوس الهيمنة الأبويّة الكبير[8]». ووفقا له، هناك تقليدان أنتروبولوجيّانِ كبيران يفصلان جنوب غرب أوروبّا عن شمال شرق أوروبّا، ويمكن العثور عليهما في الاختلاف بين القانون الجرماني والقانون الرّومانيّ.

ولكن على الرّغم من التّفاوت في الدّرجات حسب المناطق، كان هناك زيادة عامّة في نسبة العنف خلال العصر الحجريّ الحديث وتطوّرٌ في أوجه عدم المساواة. هذا على أيّ حال ما تظهره دراسة المقابر. إذ نرى قبورًا للفقراء وأخرى للأغنياء. فما الّذي حدث؟ نظرا لصعوبة تحديد أيّهما ظهر أوّلا، سأقدّم لكم ملخّصا واسعا جدّا لما نعتقد أنّنا بتنا نعرفه.

أوّلا، كانت البداية بالزّراعة. كنّا، سابقًا، شعوبًا جامعي ثمار، مندمجين تمامًا في نظامنا البيئيّ. وفجأة، تمكّنّا من السّيطرة على بيئتنا. فأخذنا في الزّرع وفي تشكيل الوسط الطبيعيّ واختيار أيّ النّباتات ينبغي أن تنمو وأيّها ينبغي اقتلاعها. ودجّنّا حيوانات. وأصبحنا سادة. وهو ما كان له بالضّرورة تأثير على عقليّاتنا وعلاقتنا بالعالم.

بفضل كلّ هذا، أمكن لنا تحقيق التّراكم. فزراعة الحبوب (القمح، الشعير، الجاودار، الشّوفان، وما إلى ذلك) سمحت لنا بتخزينها للاحتفاظ بها لفترة طويلة. وهكذا صنعنا الثّروة. خلال ألفي سنة أو ثلاثة آلاف سنة، مبدئيّا، لم تسر الأمور بشكل سيّء للغاية. بعد ذلك بدأت المشاكل في الظّهور. لقد أصبح البعض أغنى

(8) Et l'évolution créa la femme، أوديل جاكوب، 2020.

من البعض الآخر. ومَن ذا الّذي كان يملك الأرض؟ مع مشكلة الملكيّة الخاصّة، نشأت أيضا مشكلة الميراث والخلافة. بعد ذلك، أمكننا جباية الضّرائب. عندئذ نشأت طبقات حقيقيّة. فحماية الثّروة احتاجت إلى محاربين، وسرعان ما أصبح هؤلاء فئة اجتماعيّة خاصّة. وفي الوقت نفسه، شهدنا تغييرا في المعتقدات المتعلّقة بنشأة الكون. لقد ولّى زمن الفينوسات. صار يتمّ تمثيل رجال مسلّحين بخناجر وفؤوس - وهي أدوات تزايدت بفضل إتقان علم المعادن - وتطوّرت عبادة المُحارب أو الزّعيم.

هذه الرّؤية للرّجل القويّ ارتبطت بتغيير آخر في العقليّة. يعتقد بعض الباحثين أنّه في العصر الحجريّ الحديث، ومع تربية المواشي، فهم البشر مبدأ التّكاثر الجنسيّ. وهكذا عرفوا أَنَّهُ لا غنى عن مَنيّ الرّجل. فلم تعد الأنثى هي العنصر المركزيّ إن لم يكن الوحيد في الحياة. كان من شأن هذا أنّه ساهم في تدهور وضعيّة النّساء، اللاّئي أصبحن مجرّد أوعية للحيوانات المنويّة. (هي رؤية للإنجاب تكون فيها المرأة سلبيّة تماما، وما تزال موجودة حتّى اليوم في استعارة «البذرة الصّغيرة الّتي يضعها أبي في رحم أمّي»).

لكنّ العمل في الأرض صعب. بل هي مسألة مربكة لنا. إنّ الهياكل العظميّة تثبت كم كان هؤلاء المزارعون الأوائل يرهقون أنفسهم. فلماذا قاموا بهذا الاختيار؟ في السّابق، لم نكن نعمل، كنّا نقطف ما نحتاج لنتغذّى. وتشير التّقديرات إلى أنّه كان من الضّروريّ تخصيص ثلاث ساعات فقط يوميًّا للبقاء على قيد الحياة؛

أمّا بقيّة الوقت فكان وقتًا حرًّا. لماذا اخترنا إذن نمط حياة ملزم للغاية حيث كنّا نؤذي ظهورنا من الكدح طوال اليوم؟

لحسن الحظِّ أنّنا سلالة واسعة الحيلة، وفي وقت ما، خطرت على بالنا فكرة جيّدة لتوفير الرّاحة: إنّها جعلُ الآخرين يعملون.

سنذهب للبحث عن هؤلاء في مكان آخر، سنأسرهم ثمّ نعود بهم ليعملوا في الحقول وسنسمّيهم عبيدا.

ترى عالمة ما قبل التّاريخ مارلين باتو ماتيس Marylène Patou-Mathis أنّ هناك صلة مباشرة إلى حدّ ما بين الاستقرار والعنف، باعتبار أنّ الأوّل يولّد الثّاني. إنّها تميّز بين العدوانيّة، الموجودة في الأنواع الحيوانيّة الأخرى، والعنف الذي ظهر في ذلك الوقت. وتعتبر أنّ العنف مؤسَّسٌ اجتماعيًّا. فالعنف الّذي يمارَس على عَبد يترافق مع تصوّر معيّن للعلاقات الاجتماعية. هناك مثال آخر هو التّضحيات. فهذه الأخيرة تندرج في العنف وليس في العدوانيّة. ومع التّدجين، وخصوصا تدجين الخنازير، والاختلاط بشكل عامّ مع حيوانات المزرعة، ظهرت الأوبئة. نحن نعلم أنّه كانت هناك تضحيات بالنّساء والأطفال. إنّه عنف اجتماعيّ جديد لم نجد له أثرا من قبل.

المؤشّر الأعلى لهذا العنف الجديد هو ظهور السّيف. آن ليهورف Anne Lehoërff، عالمة المعادن الأثريّة والمتخصّصة في هذا السّلاح، درست في إطار المنطقة الأوروبّيّة ظهورَ سيوف مخصّصة فقط للقتال، وبالتّالي للحرب في حوالي 1700. كان للسّيف الميزة التّالية

وهي أنّه مصنوع للقتال فقط لا غير، على عكس الفأس أو الخنجر. ولم يكن يُستخدم السّيف إلاّ للقتال وجها لوجه مع إنسان آخر. لقد كان الأداةَ الأولى الّتي أُنشئت لقتل بعضنا البعض تحديدا. (الكائن البشريّ هو الأوّل الأبديّ في ابتكار الأفكار المتعفّنة). مع هذا السّلاح، شهدنا تبلور حقيقة اجتماعيّة جديدة: ألا وهي الحرب.

ليس السّيف في هذه الثّقافات مجرّد شيء من بين أشياء أخرى. أوّلا، من حيث عدده. فقد عُثِرَ على أعداد كبيرة منه. وهذه الوفرة تترجم أهمّيته. ثانيا، أوضحت آن ليهورف أنّ الموادّ الخام، وكذلك الوقت والمعرفة اللاّزمين لتصنيعه، تجعله عنصرا مهمّا في الاقتصاد. إنّه ليس مجرّد شيء ثانويّ، بل ضروريّ. وبعبارة أخرى، يصبح العنف - باعتباره منظّمة اجتماعيّة ونموذجًا اقتصاديًّا في نفس الوقت - إحدى دعامات هذه المجتمعات.

ربّما أدّى استخدام هذا العنف والإرادة التّوسّعيّة المصاحبة له، بالإضافة إلى الطّفرة السّكّانيّة، إلى اختفاء آخر مجموعات الصّيادين / القاطفين / الجامعين في أوروبّا، فضلا عن القبائل ذات الأداء الأكثر مساواة وربّما حتّى النّظام الأموميّ. إنّها مرحلة جديدة في انتصار النّظام الأبويّ.

إذا أصبح النّظام الأبويّ مهيمِنًا، فمن المؤكّد أن ذلك ليس لأنّه كان النّظام الأفضل، أو لأنّه كان طبيعيًّا، أو لأنّ النّساء كنّ فاشلات. إذا ساد النّظام الأبويّ، فذلك لأنّه كان يحمل في جوهره بالذّات حقيقة سحق الأنظمة الأخرى، واختزالِ الغيريّة في العجز. فهو غير

قادر على التّعايش بسلام. وهو بحكم تعريفه نظامُ هيمنة، لذلك لا غنى له عن اعتماد التّسلّط. هذا ما يحدث هنا في الغرب. فالاستقرار والملكيّة الخاصّة يساهمان في تعزيز نظام الهيمنة. عندما يقال «هذه الأرض لي»، و«ما تغلّه يخصّني»، فإنّنا بذلك نخلق مجتمعا غير متكافئ، ونعزّز موقف الأقلّيّة المهيمن. وقد أدّى هذا المنطق إلى تدهور ظروف النّساء المعيشيّة مقارنة بظروفهن ضمن أنماط الحياة البدويّة والجماعيّة خلال العصر الحجريّ القديم(9).

ومع ذلك، يبقى كلّ هذا فرضيات وتخمينات بالأساس طالما أنّنا لم نحصل على هذا الشّيء العظيم الّذي تستمتعون به أنتم بأنفسكم الآن: وهو الكتابة. فمع الكتابة الّتي ظهرت لدى السّومريين حوالي عام 3300 قبل الميلاد، صار من الممكن أخيرا أن نستمع إلى هؤلاء الرّجال والنّساء في الماضي وهم يتحدّثون مباشرة.

كانت الكتابات الأولى عبارة عن دفاتر حسابات ونصوص إداريّة. نعم، لقد نشأت المحاسبة قبل الشّعر. يعود تاريخ النّص الأوّل الّذي كتبه مؤلّف معروف ويَذكُرُ فيه هويّتَه إلى عام 2300 قبل الميلاد. لكم أن تصدّقوا أو ألاّ تصدّقوا أنّ هذا المؤلّف كان امرأة.

المكان في بلاد ما بين النّهرين، في إمبراطوريّة أكاد، الّتي تتوافق تقريبًا مع العراق حاليّا. في ذلك الوقت، كان العصر في أوروبّا هو

(9)- ولكن يجب ألاّ ننسى أنّ المِلكيّة الخاصّة ليست هي أصل النّظام الأبويّ. فقد وُجدت مجتمعات خالية من الطّبقات الاجتماعيّة والملكيّة الخاصّة قائمة على أساس الهيمنة الذّكوريّة.

العصر الحجريّ الحديث - وفي فرنسا، كنّا ما نزال بعيدين كلّ البعد عن الكتابة.

في أراضي النّهرين، الّتي غالبًا ما يتمّ تقديمها على أنّها «مهد الحضارة»، أطاح شخص يدعى سرغون الأكاديّ Sargon d'Akkad بالملك واستولى على السّلطة في الشّمال. ثمّ سار جنوبا من أجل توسيع أراضيه. فغزا مدينة أور، وكانت آنذاك عاصمة سومريّة مرموقة. ولإحكام قبضته بشكل أفضل على إمبراطوريّته الجديدة، قرّر تعيين ابنته إنخيدوانا Enheduanna كاهنة عليا لأور Ur.

لكنّ السّلطة الإمبراطوريّة الجديدة في مدينة أور أثارت امتعاض الأهالي. فتزعّم رجل يُدعى لوغال أَنِي Lugal-Ane انتفاضة، وقام بتجريد إنخيدوانا من مكانتها بوصفها كاهنة عليا وجعلها معالِجة بسيطة، قبل أن يجبرها على المنفى.

من غير المعروف بالضّبط ماذا كان موقفها خلال هذه الانتفاضة، ولكن يبدو أنّها قد قامت بأشياء جعلتها تلوم نفسها عليها.

في منفاها، كتبت للإلهة إنانا نصّين تضرّعيين أبدت فيهما توبتها عن أخطائها دون أن تحدّد طبيعتها.

إنّ نصوصها رائعة لأنّها، حتّى الآن، تُعتبر أقدمَ أثر بضمير المتكلّم «أنا»، إنّها ما بقي من كلمات امرأة قالت «أنا» قبل ثلاثة وأربعين قرنًا.

بطبيعة الحال، صارت إنخيدوانا رمزا في الدّوائر النّسويّة. فأوّل مؤلّف معروف للبشريّة كان امرأة، ومع ذلك لا يُتَحَدَّث عنها أبدا.

ولكن، ويا للعجب، كان لا بدّ من تعقيد الأمر. ففي زخم الحماس، نسب بعض العلماء إلى إنخيدوانا ترانيمَ وقصائد لا يمكن أن تكون لها بل من الواضح أنّها من زمن متأخّر؛ وهذا الخطأ هو ما أدّى إلى التّشكيك في جميع أعمالها.

على الرّغم من ذلك، لا تزال هناك ترنيمتان موجّهتان إلى الإلهة إنانا. تروي المتحدّثة، الّتي تصرّح بأنّ اسمها إنخيدوانا، قصّتها بتفصيل كاف – إذ ذكرت فيها انتفاضة لوغال أني ونفيها – ممّا يجعلنا نتأكّد من أنّها هي المعنيَّة. إلاّ أنّ العديد من المتخصّصين ما زالوا يشكّكون في الأمر. فكيف يمكن لامرأة في هذا المجتمع الأبويّ أن تكتب؟ يقترح الباحث جان جاك غلاسنر Jean-Jacques Glassner التّمييز بين الرّاوية والمؤلِّف. فإذا كانت المتحدّثة تتحدّث بالفعل عن نفسها بضمير المتكلّم أنا، فإنّه من الممكن أن يكون قد تمّ تكليف عالم ملكيّ بكتابة النّصّ باسم إنخيدوانا. لكنّ غلاسنر يقرّ بأنّ هذا مجرّد فرضيّة تفتقر إلى أيّ دليل. فلماذا، في الحالة الرّاهنة لمعارفنا، لا نقبل بأبسط فرضيّة، وهي أنّ الرّاوية كانت هي نفسها المؤلّفة؟

ما يبقى خالدًا هو في الواقع صوت امرأة يخاطبنا على بعد ثلاثة وأربعين قرنًا من الزّمان – ولا يتوجّه إلى إله بل إلى إلهة[10].

---

(10) - النّصّ الإنجليزيّ متاح على الموقع الالكترونيّ لجامعة أكسفورد.

«يا سيّدة سائر القوى الإلهيّة، يا نورا متلألئا، يا امرأة فاضلة ترتدي أشعّة الشّمس، محبوبة آن وأورا. يا ربّة الفردوس، ذات الإكليل العظيم، يا من تحبّين تصفيفة الشّعر الجميلة المناسبة للمناصب العليا للكاهنة، يا من تمتلكين صلاحياتها السّبع كلّها! يا سيّدتي، لَأنتِ حارسة القوى الإلهيّة العظيمة. لقد تسلّمتِ زمام القوى الإلهية، وعلّقتِها على يدك. ومثلَ تنّين، وضعتِ سمّا في أراض أجنبيّة. عندما تزأرين، مثل إسكور، ما من نبات على الأرض يمكنه أن يظلّ صامدًا».

ألا يذكّركم هذا بدينيريس تارغارين Daenerys Targaryen، في لعبة العروشGame of Thrones؟ إليكم التّتمّة: «لِصرختك الحربيّة، يا سيّدتي، تنحني الأراضي الأجنبيّة. عندما تقف أمامك البشريّة، منبهرة بالنّور والعاصفة، تستولين على أخطر القوى السّماويّة. في سبيلك، تنفتح عتبة الدّموع، ويمشي النّاس على طول الطّريق إلى بيت المراثي العظيمة. [...] من تُراه قادرا على إثلاج قلبك المسعور؟ إنّ غضبك الماكر عاصف. فيا سيّدتي، هل يمكن تهدئة مزاجك؟ يا ابنة سوين الكبرى، إنّ غيظك لا يمكن تهدئته.[...]

أنا إنخيدوانا، كاهنةُ أون، لخدمتك أحضرتُ الفاكهةَ المقدّسة. وحملتُ سلّة الطّقوس ورتّلتُ ترنيمة الفرح. ولكن أُحضِرت القرابين الجنائزيّة كما لو أنّني لم أعش أبدا هنا. دنوتُ من الضّوء،

فأحرقني. دنوتُ من هذا الظّلّ، فغمرتني عاصفة. وصار فمي العسليُّ زبدا. [...] فهل عليّ الموت في سبيل ترانيمي المقدّسة؟».

وعن منفاها كتبت: «جعلني أطير مثل السّنونو عبر النّافذة. استنفدت طاقة حياتي. جعلني أمشي بين شجيرات الجبال الشّائكة. جرّدني من ثوب الكاهنة الشّرعيّ. وأعطاني سكّينا وخنجرا قائلا: «إنّ هذي حليٌّ تناسبك».

ثمّ تطلب الرّحمة من الإلهة، الّتي ستحكم عليها، وتأمل أن تهدّئ ترنيمتُها من غضبها: «لقد قرأت هذه التّرنيمة لأجلك. وليقرأْ عليك مغنٍّ مرّة أخرى ما قد تُلي عليك في منتصف اللّيل».

تلك هي الكلمات البشريّة الأولى الّتي وصلت إلينا.

بالكتابة، ستتمكّن نساء الماضي من التّحدّث إلينا، ويتمكّن الرّجال من كتابة الخزعبلات عن هذه الكائنات المتقلّبة.

4

المحاربات والمواطنات في العصور القديمة

ولكن في الواقع، كيف تصبح المرأة امرأة؟

تعمل معظم الثّقافات على أساس مبدأ طقوس التّلقين (أو طقوس البدء)Le rite d’initiation الّتي تشير إلى الانتقال من الطّفولة إلى مرحلة البلوغ. في بعض الأحيان نجد توصيفات لهذه الممارسات. وبما أنّ أولادًا صغارًا هم من يضطرّون عادة للسّعي إلى قتل حيوان بأيديهم العارية، فقد أقنعت نفسي بأنّها كانت، من حيث المبدأ، مقتصرة على الذّكور. كنت أظنّ أنّ الفتيات ربّما لم يكنّ بحاجة إليها، لأنّ دوراتهنّ الشّهريّة هي بمثابة علامة على الانتقال من عمر إلى آخر. ولكنّ هذه الفكرة كانت سخيفة، لأنّ للأولاد أيضًا علامة جسديّة على البلوغ وهي القدرة على قذف سائل منويّ.

كنت أتصوّر أنّ طقوس البدء شيء يخصّ الأولاد فقط لدرجة أنّني اندهشت عندما علمت أنّ هناك منها ما يخصّ الفتيات كان موجودا في اليونان القديمة، وتحديدًا في أثينا. كانت هذه الطّقوس تتعلق بالفتيات النّبيلات قبل سنّ البلوغ. لسوء الحظّ أنّنا لا نعرف الكثير عنها. كانت هذه الطّقوس تسمّى آرتيّا arkteia («المرأة الدّبّة»). ففي معبد أرتميس، إلهة الطّبيعة والصّيد والولادة، كانت

الفتيات يتنكّرن في زيّ دبة برّيّة. وهناك، كانت تقدَّم عنزةٌ بمثابة القربان، وتقامُ وليمة، ويلفّ الجوَّ غموض، وينتهي الحفل بسباق جري تكون فيه المشاركات، على ما يبدو، عاريات. إنّها إذًا طقوس بعيدة جدًّا عن صورنا النّمطيّة.

ولكن لماذا الدّبّ بالتّحديد؟ تتحدّث أساطير عديدة عن قصّة قُتل فيها دبٌّ كان في حماية أرتميس. وتقول إحدى هذه الأساطير إنَّ دبًّا رُوِّضَ وعاش في معبد أرتميس في مدينة براورون، إلى أن حدث ذات يوم أنّ فتاة صغيرة كانت تلاعب الدّبَّ فأغضبته كثيرا إلى درجة أنّ الحيوان خدش وجهها. عندئذ قتل إخوةُ الفتاة الدّابّة. لمعاقبة هذا الانتهاك لحرمة المعبد، أرسلت أرتميس الطّاعونَ إلى الأثينيين. ممّا حدا بهؤلاء لمناشدة العرّافة الّتي أعلنت أنّه كي يُغفر لهم، يجب على الفتيات اللّواتي تتراوح أعمارهنّ بين خمسة أعوام وعشرة أعوام أن يأتين لخدمة الإلهة وهنّ متنكّرات في زيّ دببة.

لكن ما يثير الاهتمام أكثر هو التّأويلات الرّمزيّة لهذه الأسطورة. فالفتيات تمّ تحويلهنّ إلى حيوانات. كان يُنظر إلى الفتيات الصغيرات إذًا على أنّهن حيوانات برّيّة يجب ترويضهنّ من خلال الزّواج. ويمكن أن يكون تقليد الدّب والرّكض وسيلة لصرف توحّشهن. إنّ ما أدهشني عندما اكتشفت هذه الطّقوس أثناء أبحاثي هو كيف أنّ هذه الحيوانيّة المجازيّة للفتيات الصّغيرات غير معروفة لدينا تماما. يجب القول إنّ مريم العذراء قد مرّت بمرحلة مماثلة. في عصرنا هذا، إذا وُجِد دبّ في حكاية ما، فسيكون في النّظام الرّمزيّ دلالة

على الذّكر، وسيتمّ تصويره على أنّه يمثّل خطرًا على الفتاة الصّغيرة الطّاهرة والضّعيفة. لأنّه إذا ما أريد اليومَ مقارنة الفتاة الصّغيرة بعالم الطّبيعة، فسيتمّ احتواؤها في الظّبية الخائفة أو الزّهرة الصّغيرة الهشّة. هناك شيء ما يقوم بتحرير خيالنا وجعله يعمل على الجمع مرّة أخرى بين الفتاة الصّغيرة والتوحّش، بين الفتاة والقوّة المراد ترويضها. أتساءل لماذا لا ينبغي علينا إحياء هذه الاحتفالات. أعلم أنّني كبيرة في السّنّ، ولكنّني أحبّ أن أرتدي زيّ دبّ ثمّ أركض عارية مع صديقاتي. ربّما لا يزال بإمكاني ترتيب هذا للاحتفال بسنّ اليأس في المستقبل.

تذكّرُنا هذه الفكرةُ عن طقوس العبور أيضا بأنّنا لسنا نساء أو رجالا بالطّبيعة. بأنّنا نشكّل أنفسنا بوصفنا امرأة أو رجلا. لا يتعلق الأمر بمجرّد معطيات بيولوجيّة، بل بتحقّق اجتماعيّ بطيء. ومع ذلك، يميل مجتمعنا إلى نسيان هذا الجانب. إنّ تخلّينا عن الطّقوس يتوافق مع التّفسير البيولوجيّ للأنواع. فاليوم، لا تحتاج أيّ امرأة إلى الجري عارية لتكون امرأة، لأنّه منذ التّصوير الثّاني بالموجات فوق الصّوتيّة للحمل، يتمّ الإعلان عن جنس الطّفل هل هو فتاة أو فتى، امرأة أو رجل في المستقبل.

لقد فوجئت بأنّني لم أسمع حتّى ذلك الحين عن طقوس البدء (آرتيّا)، على الرّغم من حضور العصور اليونانيّة القديمة بشكل متواتر في سنوات دراستي. بعد ذلك، وأنا في حالة من الذّهول، اكتشفت أسطورة يونانيّة كنت أجهلها تمامًا تقريبًا. إنّها قصّة لا

تروي طَرائق أخرى ملتوية تخيّلها زيوس لاغتصاب امرأة شابة. ولكنّها تتعلّق بتاريخ أتالانتا Atalante، أو بتعبير أدقّ بتواريخها. ولأنّني أراهن دون مبالغة على أنّكم بدوركم لا تعرفونها، فسأقدّم لكم ملخّصًا لها.

تنطلق الأحداث، كما هو الحال في كثير من الأحيان مع الإغريق، بملك يتضمّن اسمه غالبًا العديد من أحرف العلّة. وهذا الملك هنا هو ياسوس Iasos الّذي كان راغبا في إنجاب الذُّكور فقط. لذلك انزعج كثيرا عندما أنجبت شريكته بنتًا. ولأنّ الملك الصّالح كان رجلا عمليًّا، أخذ الطّفلة الرّضيعة تحت ذراعه وذهب بها إلى أحد الجبال شديدة الانحدار وتركها هناك. ولكن صادف أنّ دبّة (نعم دبّة...) سمعت صرخات الطّفلة، فدنت منها وتبنّتها، فأرضعتها مثلما ترضع طفلتها. إلى أن جاء اليوم الّذي اكتشف فيه الصّيادون طفلة البراري وقرّروا بدورهم رعايتها. أطلقوا عليها اسم أتالانتا وصارت صيَّادة رهيبة، تجوب الغابات مسلّحة بقوسها. كانت أتالانتا امرأة قويّة ومستقلّة. في اليوم الّذي حاول فيه قنطوران اغتصابها، ضربتهما بالسّهام حتّى اخترقت جسديهما. لقد انتصرت في معركة ضدّ الملك بيليوس Pélée. وأصبحت مشهورة جدًّا بقوّتها ومهارتها حتّى أنّه عُرض عليها الانضمام إلى الحملة الرّامية إلى قتل خنزير كاليدون الوحشيّ، الّذي كان حيوانًا مؤذِيًا أرسلته أرتيميس لتدمير مملكة متمرّدة.

دعا الملك الأبطالَ العظماء في ذلك الزّمن لمساعدته على التّخلّص منه: بالإضافة إلى أتالانتا وجيسون Jason وكاستور Castor وبولوكس Pollux، استُدعي ثيسيوس Thésée وبيليوس Pélée وميليغر Méléagre وعدد آخر من المتبارين. كان الرّهان يتمثّل في أنّ من ينجح في قتل الوحش سيحصل على صوفه ورأسه hure (رأس الخنزير) (دعونا نتوقّف للحظة عند هذه الحقيقة المعجميّة اللاّفتة للنّظر وهي وجود كلمة تسمّي رؤوس الحيوانات المتطاولة).

يبدو أن الأخوين أنسيه Ansée وسيفيوس Céphée لم يكونا متحمّسين كثيرا لوجود امرأة معهما، ولكنّهما كانا مجبرين على التّعامل معها. كانت المطاردة صعبة، والإصابات عديدة، من ناحية أخرى، مرّ سيفيوس من هناك بسرعة كبيرة إلى حدّ ما (وقد أحسن صنيعا)، إلى أن تمكّنت أتالانتا من إصابة الحيوان، ومن ثمّ تمكّن ميليغر من توجيه الضّربة القاضية. ليكافئها على صنيعها، أعطاها الصّوف والرّأس. (وقد انتشت لذلك). ولكنّ أخوال ميليغر لم يتقبّلوا رؤية المكافأة تذهب لامرأة نكرة. فحدثت معركة كبيرة بينهم وميليغر انتهت، كما هو الحال في كثير من الأحيان في نزاعات العائلة اليونانيّة، بإراقة الدّماء. لقد قتَل ميليغر أخواله، وهو ما حزّ كثيرا في نفس والدته، وهي أختهم، فقتلتْ ابنَها.

وهكذا احتفظت أتالانتا بالفراء.

(تخبرني الإنترنت بأنّ خنزير كاليدون يمثّل أيضًا اختبارًا في لعبة الفيديو المسماةAssassin's Creed Odyssey ، ويبدو من منتديات اللاّعبين أنّه اختبار صعب).

إذا كانت أتالانتا مشهورة في العصور القديمة بصيد الخنازير البرّيّة - وبإمكانكم أن تلاحظوا الآن بعد أن عرفتم القصّة وجود العديد من اللّوحات الّتي تصوّرها - فقد اشتهرت أيضا بجانبٍ مهمٍّ آخر من حياتها. فبعد أن أصبحت بطلة عن جدارة، عادت إلى والديها الملكيين. أراد والدها أن يغفر لها الآن كونها امرأة، ولكن في آخر الأمر، كان على هذه الفتاة الصّغيرة أن تتزوّج على أيّ حال. لم تكن أتالانتا ترغب في التّخلّي عن حرّيتها. لذلك اقترحت تنظيم مسابقة مروّعة. فهي لن تتزوّج إلاّ من الرّجل الّذي يستطيع الفوز عليها في سباق الجري. (هناك وجوه شبه عديدة مع طقوس البدء، آرتيّا). كانت مستعدّة حتّى للسّماح لكلّ مشارك بأن يسبقها بخطوة واحدة إلى الأمام. ولكنّها حذّرتهم من أنّها سوف تقتل كلّ من يخسر بضربة رمح.

فريدة من نوعها هي، أليس كذلك؟

هذه الفتاة تعجبنا كثيرا.

نتساءل حقًّا لماذا توقّفنا عن رواية قصّتها.

بما أنّ أتالانتا كانت جميلة جدًّا، وبما أنّ الشّباب كانوا على درجةٍ كبيرة من الغرور، فقد شارك العديد منهم في هذا السّباق المميت متحدّين الخطر.

ولكنّها قتلتهم الواحد تلو الآخر. فكانت مجزرة حقيقيّة.

ثمّ جاء دور ذلك المخادع هيبومينيس Hippomenes. لقد وقع في هوى أتالانتا، ولكنّه أدرك أنّه لم تكن لديه أيّ فرصة للتّغلّب عليها في السّباق. ولهذا قرّر احترام رغبة حبيبته في الاحتفاظ بحرّيتها وتركها وشأنها. كلاّ كلاّ، ليس هذا ما حدث حقّا. أنا أمزح بطبيعة الحال. فما من قصّة مشهورة انتهت على هذه الشّاكلة. لقد طلب المساعدة من أفروديت، إلهة الحبّ. فأعطته ثلاث تفّاحات ذهبيّة سحريّة لها قدرة على أسر لبِّ كلّ من يراها.

بدأ هيبومينيس السّباق بعد أن سمحت له أتالانتا بأن يسبقها بخطوة قبل أن تنطلق. وأخذ يلقي التّفّاحات الذّهبيّة خلفه. لم تستطع الصّيّادة الفتيّة الامتناع عن التّوقّف لالتقاطها، وهكذا خسرت المسابقة.

وكان وعد الحرّة دينًا، فتزوّج هيبومينيس من أتالانتا. لكنّ هيبومينيس نسي أن يشكر أفروديت؛ فأودعت فيهما هذه الإلهة رغبة جنسيّة جامحة لا يمكن كبتها. صارا يتزاوجان من دون توقّف إلى درجة أنّهما اقترفا الدَّنَسَ الأكبر للمقدّسات: ممارسة الحبّ في المعبد. لذلك، عاقبتهما الآلهة بأن مسختهما إلى أسدين. وهكذا انتهت حياة أتالانتا.

التهمتُ، كما يفعل الكثير من الأطفال، الكتبَ المتعلّقة بالأساطير اليونانيّة، ولكنّني لم أصادف أتالانتا قطّ. ومع ذلك، يمكنني أن أخبركم بأنّني كنتُ لِأُحِبَّ أن يخبرني شخص ما بهذه

المغامرة حين كنت طفلة صغيرة. إنّ معرفة القصص التي طواها النِّسيان تعادل من حيث الأهمّية معرفة القصص الّتي صمدت. لفترة طويلة، أعدنا بناء عصور قديمة على هوانا. وهكذا، اعتبرنا اللّون الأبيض رمزًا للجمال الكلاسيكيّ. كانت التّماثيل اليونانيّة الرّومانيّة قد وصلت إلينا بلون أبيض ناصع ممّا جعلنا نعتقد أنّ مفهومهم للجمال كان متمثّلا في هذا التّوحيد للأبيض النَّمطيّ. ولكن في الواقع، اكتشفنا قبل بضع سنوات أنّ معظم هذه التّماثيل كانت مطليّة بألوان برّاقة، وقريبة من الفنّ الهابط والمبتذل، الأمر الّذي يحطّم فكرتنا عن الذّائقة الكلاسيكيّة العتيقة. لقد أُحتُفظَ أيضا بالأساطير الّتي أريد لها أن تبقى ومُحِيَت أتالانتا من كتب الأطفال. لحسن الحظّ، بدأت الأمور تتغيّر منذ أن نشرت موريل زاك Muriel Szac كتابها الرّائع Feuilleton d'Artémis ، الّذي يلقي الضّوء على شخصيّة أتالانتا ويسمح لجيل جديد من الأطفال بالتّعرف على قصّتها بوصفها امرأة قويّة[11].

إذا كنتُ قد اكتشفت أتالانتا، فإنّ الفضل في ذلك يعود إلى كتاب المؤرّخة الأمريكيّة أدريان مايور Adrienne Mayor عن المحاربات الأمازونيات[12]. وهنا، عليكم أن تحترسوا، لأنّنا سنتطرق إلى موضوع محرج. إنّ الأمازون، تلك القبائل من المحاربات اللّواتي كانت كلّ واحدة منهنّ تقطعن بنفسها أحد ثدييها من أجل الرّماية

(11) - لدراسة أساطير أتالانتا المختلفة، أوصيكم بقراءة الكتاب الممتاز Farouche Atalante, portrait d'une héroïne grecque، لإيميلي درويله Émilie Druilhe ، الّذي فاز بجائزة جمعيّة Mnémosyne ، الّتي تعمل على تطوير تاريخ المرأة والجندر.

(12)- أدريان مايور، Les Amazones، لاديكوفارت، 2017.

بالقوس والسّهم، ويتخلّين عن تربية الأطفال الذّكور، حاضرة في الإلياذة، ولكن كان يقال لي دائما إنّها مجرّد أراجيف ومحض هراء، وإنّها لا تعدو أن تكون أسطورة. والأمر كان بسيطًا: فهنّ لم يكنّ موجودات أبدا، لأنّ النّساء يمارسن الحبّ لا الحرب. وهؤلاء النّساء المحاربات كنّ فقط موضوعًا أدبيًّا لا يحيل على أيّ حقيقة واقعيّة.

وهنا، مرّة أخرى، فإنّ التّقدم التّقني هو من سيزعزع ثوابتنا. لفترة طويلة، كان علماء الآثار، عندما يعثرون على مقابر، يعتمدون على الأثاث الجنائزيّ لتحديد جنس الهيكل العظميّ. وهكذا، فإنّ قبرا يحتوي على أسلحة ينبغي أن يكون قبر رجل. لم يكن الأمر معقّدا للغاية، ولن نتجادل على أيّ حال بأمور هامشيّة. ولكن في السّنوات الأخيرة، جاءت تحليلات الحمض النّوويّ لتخلخل الصّورة قليلا. ونتيجة لذلك، اُكتُشفَ أنّ عددًا من هذه المدافن الّتي تحتوي على أسلحة كانت في الواقع تشغلها نساء. مكتبة سُر مَن قرأ

نساء محاربات؟ بدت الفرضيّة مجنونة جدّا إلى درجة أنّه تمّ الذّهاب إلى تصوّر أمر آخر. كأن تكون المرأةُ زوجةَ محارب، مثلا، أو قائدةً لم تكن لتقاتل بنفسها. ولكن مرّة أخرى، دحَض العلم هذه الفرضيّة.

تقول أدريان مايور Adrienne Mayor إنّ أقدم قبر «للأمازون» Amazon (وضعت الكلمة بين مزدوجتين للفصل عن الأسطورة) قد عُثِرَ عليه في جورجيا. ويعود تاريخه إلى عام 1000 قبل الميلاد. وهو قبر محاربة كان عمرها يتراوح بين 30 عاما و40 عاما لحظة

وفاتها. كانت مدفونة في وضعيّة جلوس، ووُضِعَ سيفها البرونزيّ وخنجرُها الحديديّ على ركبتيها، ورمحٌ عند قدميها.

(يجب أن تعترفوا أنّه رغمَ سوءِ النِّية بأكلمهِ الذي يلفُّ العالم، من الصّعب تخيّل أنّها كانت أيّ شيء آخر غير امرأة محارِبة). تحت الرّمح، كان هناك عظمُ فكٍّ حصان. وكانت هي تحمل عقدا من حبّات الجاسبر والعقيق الأحمر والأبيض مع قلادة على شكل مثلّث. ولكن إذًا، ما هو الدّليل الّذي لا يقبل الطّعن على أنّها لم تكن ترتدي زيّ محاربة للاستمتاع بأمسية مع الأصدقاء؟ لقد كان هناك على الجانب الأيسر من جمجمتها أثر لجرح من ضربة فأس، وقد بدأ يلتئم لحظة وفاتها. وكانت بجانبها شابّة أخرى وعلى جمجمتها سَهم.

لقد قاتلن إذًا. وعُثِرَ في العديد من الهياكل العظميّة النّسائيّة على آثارِ إصابات جرَّاءَ القتال وجهًا لوجه، لا من جرّاء حادث منزليّ ناجم عن سوء التّعامل مع فأس قامت بغرزه في رأسها مثل حمقاء. إنّ هذه النّتائج تتوافق مع الرّوايات اليونانيّة - المكتوبة ولكن المرئيّة أيضا باعتبار ظهور الأمازونيات على العديد من الأشياء - الّتي تخبرنا بأنّهنّ كنّ يقاتلن حتّى الموت، مثل الأبطال العظماء.

كيف كانت حياتهنّ؟ ماذا كان تاريخهنّ؟

هناك شيء كئيب بشكل رهيب في هذه البيانات الوصفيّة لمقابر مجهولات لن نعرف عنهنّ شيئًا أكثر ممّا عرفناه، على الرّغم من أنّنا بدأنا للتّوّ في اكتشاف وجودها. نعم، لقد كانت هناك نساء محاربات. ولكن كيف؟

حتّى هذه اللّحظة، يبدو أنّ ربع قبور النّساء كانت قبورا لمحاربات. وهذا يعني امرأةً من كلّ أربع نساء.

فهل كانت المرأة محاربة حسب نشأتها ورتبتها الاجتماعيّة؟ أم حسب قدراتها فقط؟ ما من أحدٍ يمتلكُ جوابًا يقينيًّا. تفترض أدريان مايور أنّ جميع الأطفال كانوا يتلقّون تدريبًا، وبالتّالي كان يمكن للفتيات الأكثر موهبة أن يخترن أن يبقين صيّادات ومحاربات حتّى في مرحلة البلوغ. من الممكن أيضا أنّ بعض الفئات الاجتماعيّة والعمريّة كانت لها التزامات عسكريّة، وهو ما يتوافق مع روايات هيرودوت، المؤرّخ الذي عاش في الحقبة نفسها.

ولكن نظرًا إلى أنَّ هذه الشّعوب لم تكن لديها ثقافة مكتوبة، فإنّنا نفتقر إلى المعلوماتِ الإضافية عنها. هناك حقيقة واحدة مؤكّدة، وهي أنّه كانت هناك نساء محاربات، خصوصًا في شمال البحر الأسود، بداية من القرن السّادس قبل الميلاد.

لذلك فإنّ أسطورة الأمازون مستوحاةٌ من الواقع. بالطّبع، لم يكنّ يقطعن أحد أثدائهنَّ. فقد كان لدى الإغريق دائما ميل طفيف للمبالغة. لم تكن هذه القبائل في الواقع نسائيّة بالكامل، حيث تتزاوج الإناث مرّة واحدة في السّنة ويقتلن أطفالهنّ الذّكور، بل كانت شعوبا تعيش في درجة معيّنة من المساواة بين الجنسين.

هناك ما هو أكثر غرابة ممّا سبق: فهذه المقابر موجودة في المناطق الّتي حدّدها المؤلّفون اليونانيّون باعتبارها مواقع المحاربات الأمازونات. وتوضّح أدريان مايور أيضا أنّ هؤلاء المعاصرين

للأمازون لم يكونوا الوحيدين الّذين تحدّثوا عن وجودهم. فهناك كتابات من ثقافات أخرى تتحدّث عن قبائل بها نساء محاربات، وكلّها تضعها في نفس المناطق الجغرافيّة. إنّها شعوب بدويّة، غالبا ما يتمّ تجميعها تحت اسم «السّكيثيون Scythes»، وقد عاشت في منطقة شاسعة تمتدّ من أوكرانيا حتّى الصّين، لأكثر من ألف عام. قبائل كان النّساء والرّجال فيها يركبون الخيول، ويحملون الأسلحة، ويربّون أطفالهم بشكل جماعي.

تحتل النّساء المسلّحات في بعض المدافن ما يقرب من 37٪ من القبور. وهذا يعني أنّهنّ يمثّلن أقليّة. من المثير للاهتمام أنّه بينما كان من الممكن أن نتصوّر طقوسا جنائزيّة مختلفة للمحاربات، نجد أنّ قبورهنّ كانت مماثلة تماما لقبور المحاربين، وتحتوي على نفس القرابين. (هذا التّماثل، بحسب علماء الآثار، هو ما جعلهم يجانبون الصّواب جزئيّا). يبدو أنّ هؤلاء المحاربات لم يكنّ مجرّد منفّذات للأوامر، بل كان بإمكانهنّ أن يُصْبحن قائدات حرب ويتزعّمن المعارك. بعضهنّ كنّ مدفونات مع أطفال نتبيّن من رفاتهم أنّهم كانوا يزاولون التّدريب في وقت مبكّر جدًّا، ويركبون الخيول بمفردهم منذ بلوغهم سنّ الخامسة.

كانت حياة هذه القبائل كلّها منظَّمَة حول الحصان. فقد كانوا يتّخذونه في نفس الوقت للقتال، والتّنقّل باعتبارهم كانوا شبه رُحّل، والتّغذّي (بفضل لحمه وحليب الأفراس)، وصنع الأدوات من جلده. وتفترض أدريان مايور أنّ هذه المكانة المركزيّة الّتي كان

يحتلّها الحصان قد ساهمت في المساواة في الأداء بين النّساء والرّجال، باعتبار أنّه يزيل الاختلافات المحتمَلة في القوّة بين الأفراد، ويقتضي ملابس موحّدة للجنسين مثل السّراويل. وبالمثل، فإنّ أسلوب حياتهم البدويّ كان من شأنه أن يساهم في هذه المساواة. (وذلك وفقا لنفس المنطق السّابق في العصر الحجريّ الحديث، حيث غالبا ما يرتبط نمطُ الحياة المستقرّة بمجتمعات أكثر هَرَميّة).

فماذا لو كانت المساواة أمرًا خاصًّا بالهمجيَّة؟ عند هذه النّقطة، دعونا نتوقّف قليلا لإبداء ملاحظة. إنّ الشّعوب الّتي تعلّمنا أن نعتبرها «همجيّة» كانت هي الأكثر تطبيقًا للمساواة بين النّساء والرّجال، في حين كانت النّساء عند الشّعوب ذات الثّقافة «العظيمة» المنتسبة للحضارة اليونانيّة اللاّتينيّة محرومات من معظم الحقوق. وماذا لو كان التّفوّق الفكريّ المزعوم، القائم على تصنيف الأحياء وترتيب أولوياتها، يؤسّس حتما لعلاقات هيمنة؟

سترابون Strabon، وهو مؤرّخ يونانيّ ولد حوالي عام 60 قبل الميلاد، قال ذلك بنفسه عندما نظر في الحضارات الهمجيّة: «إنّ الحقيقة المتمثّلة في أنَّ الأعمال موزَّعة بين الرّجال والنّساء بشكل معاكس لتوزيعها عندنا هي حقيقة تشترك فيها العديد من الشّعوب الأخرى بين الهمجيين.«

يتوافق هذا مع فكرة قيامِ حضارتنا على الهيمنة. وأنّ هذه الهيمنة ليست مصادفة، ولا خطأ، بل أحد الأسس الإيديولوجيّة لمجتمعاتنا الغربيّة.

مازلت أتذكّر دروسي اليونانيّة: ففي التّاريخ أو في اللّغة اليونانيّة على حدّ سواء، كانت الدّيمقراطية الأثينيّة وذكاء هذه الحضارة الخارق وتفوّقها الذي لا يرقى إليه شكّ، موضوع افتخار. ثمّ إنّ الأستاذ أو الأستاذة كانا دائما ما يقومان بالاستطراد الاضطراريّ التّالي:

«حسنا، من الواضح أنّه قد تمّ استبعاد النّساء من نظام المواطنة الرّائع هذا». لقد بدا وكأنّه تفصيل ناجم إمّا عن خطأ - أوه، بالطّبع، لا بدّ وأنّه قد تمّ نسيانها - أو عن منطق تاريخيّ - ففي ذلك الوقت، لم يتمّ بعدُ اكتشافُ أنّ النّساء قادرات على التّفكير. (ألم يسبق لأيّ كان أن تناقش معهنّ؟) باختصار، فقد كان ذلك طبيعيّا بالنّسبة إلى أولئك الأشخاص. ويجب علينا أن نفهم هذا الأمر. ويجدر بنا ألاّ نعكس عليهم نظرة مغلوطة تاريخيًّا. ذلك أنّ فكرة المساواة بين الرّجال والنّساء فكرة حديثة للغاية، ولم يكن لها أيّ معنى في ذلك الزّمن.

إنّهَا رؤية للتّاريخ التّقدّميّ. ووفقا لهذه الرّؤية – الّتي أُطعِمناها جميعا في الرّضاعة - انخرطت البشريّة في حالة من التّوحّش الكامل حيث ساد قانون الأقوى ومضت بلا هوادة في اتّجاه الحضارة وبالتّالي نحو التّقدّم. وخلال هذا التّطور، حصلت المرأة على المساواة.

إنّ هذه السّرديّة زائفة في الواقع.

فالمساواة بين الجنسين كانت موجودة في حضارات أخرى، ومعروفة لدى ثقافات قديمة كلاسيكيّة. كانت المساواة في الحقوق

بين النّساء والرّجال ترقى إلى أن تكونَ علامة على التّوحّش، ودليلا على أنّ هذه الشّعوب كانت شعوبا دنيا. وكان هذا مرتبطا بالفكرة ذاتها الّتي كنّا نحملها عن الرّجال والنّساء.

المرأة بالنّسبة إلى اليونانيين، بما في ذلك الأطبّاء، كانت قبل كلّ شيء رجلا منقوصًا. كانوا يعتقدون أنّ ولادة امرأة ما لها علاقة بمشكلة ما في درجة الحرارة (أو أحيانا في نوعيّة رديئة من الحيوانات المنويّة). ففي درجة حرارة مناسبة، يمكن أن تحصل على كعكة جميلة، جافّة وساخنة، يعني على رجل. وفي درجة حرارة خاطئة، (غير ساخنة بدرجة كافية) ستحصل على كعكة رطبة وناعمة، على كعكة سيّئة، يعني على امرأة. في ذلك الوقت، ولفترة طويلة جدّا كما سنرى، كان يُتصوَّر أنّ الرجال والنّساء ينتمون إلى نفس القالب. فعلى سبيل المثال، كان البظر يُعتبَرُ قضيبًا مشوّهًا. وكان المبيضان عبارة عن خصيتين لم تخرجا إلى الأسفل بشكل جيّد. لقد كانت المرأة عبارة عن سلسلة من الاختلالات الوظيفيّة. وبالتّالي، فإنّ الكمال لم يكن من الممكن أن يكون إلاّ ذكوريًّا.

وبرأيهم، فإنّ وضعَ الإغريقِ مسألةَ التَّحكُّم في النّفس فوق كلّ اعتبار هو علامة لا يرقى إليها شكٌّ على تفوّق الذّكور. إذ لا بدّ أن يتحكّم المرء في نفسه وعواطفه وجسده. ولكنّ النّساء لم يكنّ يتحكّمن حتّى في أجسادهنّ. لم يكنّ يتحكّمن في السّوائل المختلفة التي تتدفّق منهنّ، لقد قُدِّرَ عليهنّ الخضوع لأطوار وظيفتهنّ، ولذلك كنّ أقلّ قيمة.

ضمن هذا المنطق، نفهم أنّ الأثينيين لم «ينسوا» منح المُواطنيّة للمرأة. فهل يُعقل السّماح لكعكات فاشلة بالتّصويت؟ بعبارة أخرى، إذا كانت ثقافتنا الشّهيرة قد قامت على الهيمنة، فذلك لم يكن خطأً، بل كان اختيارا.

لا يمكننا فهم الصّعوبات الّتي واجهتها النّساء من أجل الظّفر بالمساواة إذا لم نفهم أنّ حرمانها من هذه الحقوق كان أحد الأسس الإيديولوجيّة لثقافتنا. كان منحهنّ المساواة يعني التّشكيك في أسس حضارتنا ذاتها، ولهذا كان لا بدّ من تثوير رؤيتنا للذّكر والأنثى. وهذا يعني أيضًا أنّه ليس هناك اتّجاه يسير فيه التّاريخ، حيث ستظفر النّساء بالضّرورة بالمزيد والمزيد من الحقوق. لقد كانت هناك فترات فقدن فيها بعضا منها - وقاتلن دائما من أجل أن يُعامَلن بشكل أفضل.

دائما في نفس منطق الشّعوب الهمجيّة مقابل الشّعوب المتحضّرة، كانت مجتمعات الغال تمنح النّساء حقوقا كبيرة نسبيًا. فقد كان لديهنّ ممتلكاتهنّ الخاصّة، وبإمكانهنّ أن يشغلن مناصب دينيّة مهمّة، ويشاركن في المجالس السّياسيّة، ويحضرن في ساحات الوغى. لم يكنّ متساويات مع الرّجال تماما، ولكنّهنّ لم يكنّ كعكات فاشلات.

في إنجلترا أيضًا، نجدُ امرأة تقودُ القوات السّلتيّة لمقاومة المعتدي الرّومانيّ: إنّها الملكة بوديسيا Boadicée. أمّا بيليساما Belisama، فكانت إلهة ذات مكانة مرموقة، باعتبارها إلهةَ الضّوء والمعادن معا.

لكن ما ساد في أراضينا هو قانون الشّعب المتحضّر، القانون الرّومانيّ. ولأنّه كان يسير في ذلك على نهج القانون اليونانيّ، فإنّه لم يكن في صالح النّساء. كان للمرأة الرّومانيّة، أي زوجة المواطن، المربّيّة، وظيفة أساسيّة هي إنجاب مواطنين جدد. فكانت تتزوّج منذ سنّ البلوغ، أو حتّى قبل ذلك، في سنّ الثّانية عشرة، لأنّه كان يُعتقد أنّ الجماع الأوّل يساعد دم الحيض، من خلال «فتحه»، على التّدفّق بشكل أفضل. وهكذا مثّلت رَوْمَنَةُ Romanisation أراضي الغال انتكاسة لوضعيّة المرأة، وسيطرت نظريّةُ الكعكة الفاشلة على العقول.

5

الملكات والفارسات يمارسن السّلطة في العصور الوسطى

تذكر كتب التّاريخ المدرسيّة عام 476 على أنّه يؤرّخ لسقوط الإمبراطوريّة الرّومانيّة. بطبيعة الحال، لم يكن هناك سقوط للإمبراطوريّة الرّومانيّة في الواقع، ولا صدام بين الحضارات. لم تقم أيّ جحافل من البرابرة، في تاريخ محدّد، بمهاجمة الإمبراطوريّة وتدميرها. كانت المجتمعات «الهمجيّة» في الواقع قد اندمجت بالفعل في الإمبراطوريّة منذ فترة طويلة وكان ذلك تفكّكًا أكثر منه سقوطًا. أيّا كان الأمر، فقد أدّى هذا التّطوّر إلى ظهور سلالات حاكمة جديدة، وحلّت بالفعل العصورُ الوسطى. هي فترة دامت ألف سنة، (ليس لنا إلاّ أن نتأسّف على قصرها)، مع الكثير من التّطوّرات الثّقافيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة[13].

لنبدأ باسم يذكّرنا برائحة قلم الحبر ودفاتر الملاحظات ذات المربّعات والهوامش الكبيرة: إنّهم الميروفنجيون Mérovingiens، أو بشكل أكثر دقّة، كما سيتمّ تسميتهم لاحقا، الفرنجة. لتشنيف

(13) - حول العصور الوسطى، لا يمكنني إلاّ أن أوصيكم بشدّة بالبرنامج الإذاعيّ Passion médiéviste، الّذي يمنح الكلمة لباحثين شبّان وباحثات شابّات.

أسماعنا، دعونا نضع قائمة ببعض أسماء ملكات الفرنجة. كما أنّ ذلك يمكن أن يكون مفيدا دائما للأشخاص الذين استنفدوا البحث عن أسماء لبناتهم:

بازين Basine، سوافيغوت Suavegoth، أولتروغوت Ultrogoth، إنغوند Ingonde، راديغوند Radegonde، ديوتيريا Deoteria، فولتريد Vultrade، ميرونيد Méronède، فريديغوند Frédégonde، راغنترود Ragnétrude، ويلفيغوند Wulfégonde، وبالطّبع برونهاوت Brunehaut، وتسمّى أيضا برونهيلد Brunehilde.

هل يمكننا في هذه المرحلة التّفكير بجدّيّة في عدم ذكر هذه الأخيرة، أي برونهاوت العظيمة (546-613)؟ وهي الّتي كانت أوّل ملكة لفرنسا، وسيطرت على أراضي الفرنجة لمدّة تناهز الأربعين عاما والّتي - من المؤكّد أنّكم بدأتم تتعوّدون على هذه النّغمة - نُسيت تمامًا؟

بالطّبع لا.

(فيا مؤرّخي القرون الوسطى، اتركوا هذا الكتاب حالًا واغفروا لي جرائمي).

هيّا تماسكوا، لأنّ حياة الملكة برونهاوت لم تكن رحلة صغيرة هادئة على ضفاف حياة ناعمة. أوّلا، لم تكن برونهاوت شخصا عاديّا. فوالدها يُدعى أتاناغيلد الأوّل Athanagilde Ier، ملك القوط الغربيين في إسبانيا، وأمّها هي غوسوينت Goswinthe.

وبعبارات أيّامنا هذه، كانت برونهاوت تحظى برأس مال اجتماعيّ وثقافيّ جيّد، وذكيّة للغاية.

كانت مملكة الفرنجة في ذلك الوقت مقسَّمة بين عدّة ملوك. يجب القول إنّ قواعد الخلافة لم تكن واضحة جدًّا. لفترة طويلة، كان اختيار الملك يتمّ عن طريق الانتخاب. وبعد ذلك، جرى التّحوّل إلى نظام وراثيّ (ولكن كان من الأفضل دائما استمالة القادة الآخرين). إلاّ أنّ النّظام الوراثيّ كان يطمح إلى أن يكون مساواتيّا. بمعنى آخر، بمجرّد وفاة الملك، كان يتمّ تقسيم المملكة إلى أقسام صغيرة لإعطاء قسم لكلّ واحد من أبنائه الورثة. في الحقبة الّتي تهمّنا، كان هناك أربعة أشقّاء يتقاسمون الإقليم ولكلّ منهم عاصمته. سيغبرت Sigebertà في ريمس، وشيلبيريك Chilpéric في سواسون، وكاريبير Caribert في باريس، وغونتران Gontran في أورليان.

وما زاد الأمور تعقيدا هو أنّه كان يمكن لكلّ منهم أن تكون له عدّة زوجات، حتّى وإن لم يكنّ ينتمين إلى طبقة النّبلاء. ولكن مع ذلك، كان سيغبرت الأوّل طَموحا أكثر من الآخرين. فقد قرّر ألاّ ينسج على منوال نظرائه الّذين كانوا يتزوّجون من أوّل خادمة تعترضهم. وعنّت له هذه الفكرة الرّائعة بأن يتزوّج من أميرة من أجل بسط سلطته. ولذلك، رصد ابنة هذا العجوز الطّيب أتاناغيلد الأوّل، وفي عام 566 تزوّجت برونهوت من سيغبرت الأوّل.

أنجبا ابنتين وسمّياهما باسمين جميلين هما إنغوند Ingonde وكلودوسفينت Clodoswinthe، وابنا سمّياه شيلدبير Childebert، وهو من سنسمّيه لاحقا بجونيور لمزيد من الوضوح. (آمل أن يكون مؤرّخو القرون الوسطى قد توقّفوا بالفعل عن القراءة).

وقد صادف أنّ أحد إخوة سيغبرت، ويدعى تشيلبيريك Chilpéric، كان يريد الزّواج بدوره. وسوّلت له نفسه بأن يفعل تماما كما فعل سيغبرت ويتزوّج من فتاة من المجتمع الرّاقي. وإلى ذلك، كان لبرونهوت أخت كبرى، تُدعى غالسوينت Galswinthe...

وعلى الفور، تزوّج الأخ والأخت بالمصاهرة.

ولكن ما غفل عن قوله الشقيق شيلبيريك هو أنّه كان بالفعل على علاقة مع فريديغوند، الّتي كانت خادمة زوجته الأولى الّتي كان قد طلّقها. (أقول إنّ غالسوينت كان من الممكن أن تخمّن أنّ الأمور لم تكن تبدو على ما يرام.)

كان شيلبيريك في البداية سعيدا جدّا بزواجه من غالسوينت، خصوصا بعد أن حصل على المهر. ولكن بعد بضعة أشهر، بل أسابيع، بل أيّام، وجدها امرأة مزعجة. فقرّر التّخلّص منها. وطلب من أحد العبيد أن يتولّى خنقها. وداعا غالسوينت.

عقب ذلك مباشرة، وبكلّ هدوء، تزوّج من فريدغوند الخادمة.

ولكن هنا، قدّرت برونهاوت أنّه قتل شقيقتها وحصل لديها الانطباع بأنّه كان يتلاعب بها. فطالبت بالقصاص، أو بالأحرى أعلنت «النّزاع الدّمويّ الملكيّ الكبير». النّزاع الدّمويّ هو مفهوم غير معقّد للغاية يمكن أن نطلق عليه بلغة فرنسيّة جيّدة في الوقت الحاضر كلمة ثأر vendetta، حيث تتصادم عائلتان متعاديتان. وبما أنّ هاتين العائلتين كانتا ملكيّتين، فقد أدّى النّزاع في الواقع إلى نشوب حرب.

كان غضب برونهاوت شديدا. وكان من الواضح أنّها لم تكن مستعدّة للتّنازل عن القضيّة. فخطرت ببال زوجها، سيغبرت، فكرة جيّدة. أن يقوم بدعوة شقيقه شيلبيريك، وأخيه الآخر، غونتران، ويطلب من هذا الأخير إيجاد حلّ للخروج من هذه الفوضى. فقرّر غونتران أنّه على سبيل التّعويض، بما أنّ غالسوينت قد توفّيت ولم تنجب أطفالا، واعتبارا إلى أنّ أختها برونهاوت كانت وريثتها، ينبغي أن يتنازل شيلبيريك لفائدة برونهاوت عن الأراضي الّتي كانت ملكا لغالسوينت (بما في ذلك بوردو، وليموج، وكاوور).

تظاهر شيلبيريك بالموافقة، «إنّها فكرة رائعة، فلنطبّقها إذًا».

لكنّ شيلبيريك كان رجلا شرّيرا. فقد كان في الواقع يريد ربح الوقت لإعداد هجوم مفاجئ. وبالفعل شنّ حربا على سيغبرت (نعم، على أخيه من لحمه ودمه، أحسنتم إذا تمكّنتم من المتابعة) في آكيتان. وردّ سيغبرت بهجوم مضادّ، وحدثت معارك عديدة بينهما. وأخيرا انتصر سيغبرت. ولكن، هل أخبرتكم بأنّ فريديغوند

وشيلبيريك كانا حقّا غدّارين؟ فقد قام الاثنان باغتيال سيغبرت على أيدي أعوانه.

بعد التّخلّص من سيغبرت، استولى شيلبيريك على باريس. أمّا برونهاوت، الأرملة، فقد قام بأسرها ونفيها إلى الجانب الآخر من العالم، إلى روان، بينما تمَّ تهريب ابنها جونيور ذي الخمس سنوات ونقله إلى برّ الأمان في المملكة الّتي ورثها.

استغلّ شيلبيريك الفوضى العارمة لتعزيز تفوّقه العسكريّ. فأرسل أحدَ أبنائه من زواجه الأوّل وكان يدعى ميروفاي Mérové، إلى بواتييه على رأس جيش. ولكن أنّى لنا أن نعرف لماذا قرّر ميروفاي السّير إلى روان بدلا من بواتييه؟ إنّنا نرتجف خوفا على مصير برونهاوت. تُرى ماذا حدث لبطلتنا؟

حسنا، لننتبه هنا، ومع احترامي الكبير، فنحن لا نعرف كيف تزوّجت برونهاوت من ميروفي. ولكنّ شيلبيريك شعر بالقرف. فعندما تتزوّجُ ألدُّ أعدائك من ابنك، وهي الّتي كانت زوجةَ أخيك الّذي قمت أنتَ بقتله، وكانت أختَ زوجتك الثّانية الّتي قمت بقتلها هي أيضا، فإنّ هذا سيثير سخطك بالتّأكيد. (كم كانت جميلة، تلك الملَكيّة الفرنسيّة...)

ولكن تريّثوا، فالأمر لم ينته عند هذا الحدّ.

لقد تمكّن شيلبيريك من أسر ابنه ميروفاي. ثمّ عيَّنَهُ كاهنا ورسَّمهُ في ميتز – وهذا يعني عقوبة مزدوجة. (ثمّ هرب ميروفاي ليُقتل بعد ذلك).

وماذا عن برونهاوت؟ لقد تمكّنت من الانضمام إلى جونيور في ميتز. وهناك، خطّطت لاستعادة السّلطة لأنّ جونيور كان لا يزال قاصرا. لم تكن مهمّة سهلة، فقد أخبرها النّبلاء في الحال بأنّه من غير الوارد أن تتولّى الحكم امرأة. لكنّ برونهاوت، الّتي سبق أن قلت لكم إنّها كانت ذكيّة للغاية، كانت تجيد لعبة الدّبلوماسيّة. ونجحت في أخذ الوصاية وبدأت في إصلاح أداء المملكة.

فريديغوند، الخادمة السّابقة الّتي أصبحت زوجة شيلبيريك الشّرّير، كافحت بدورها. كانت تطمح إلى السّلطة، ولكن من أجل ذلك كانت بحاجة إلى وريث ليجلس على العرش، وهو أمر اقتضى شيئين: أوّلهما التّخلّص من أبناء زوجها. وهو ما تمّ بسرعة. وثانيهما أن تنجح في إبقاء أحد أبنائها على قيد الحياة، وهذا ما لم يتحقّق. فقد ماتوا واحدا تلو آخر. وهذا ما جعلها تشكّ في أنّ برونهاوت هي من قام بتسميمهم... لذلك، عندما أنجبت ابنا جديدا، وهو كلوتار الثّاني، قرّرت بمعيّة شيلبيريك عدم الإعلان عن ولادته رسميّا. هذا جيّد، فقد ظلّ الطّفل على قيد الحياة... ولكن بعد أسابيع قليلة، وعلى إثر رحلة صيد، قُتل شيلبيريك. (هل تمّ ذلك بأمر من برونهاوت؟)

بعد أن ترمّلت فريديغوند بدورها، أصبح وضعها ضعيفا، وأمضت السّنوات التّالية في البحث عن الدّعم. من جانب برونهاوت، لم تسر الأمور بشكل سيّء تماما. ففي عام 585، بلغ جونيور سنّ الرشد ولكنّها مع ذلك احتفظت بالسّلطة الفعليّة ولم

يكن ذلك يزعج ابنها. لقد تفاوضت على معاهدة مع غونتران نصّت على أنّه في حالة وفاة أحد الملكين (جونيور أو غونتران) دون أن يكون له ابن، فإنّ الملك الآخر يرث مملكته.

حسنا، لقد مات غونتران بعد خمس سنوات. وهكذا وسّع جونيور إقليمه. وحكمت برونهاوت.

ما يثير الضّحك هو أنّه خلال هذا الوقت، كانت فريديغوند تحكم أيضا في جزء آخر من الإقليم. فقد تولّت وصاية العرش لابنها كلوتار الثّاني. في تلك الحقبة، كانت فرنسا إذًا تحت حكم نساء.

بالطّبع، خاضت العدوّتان القديمتان معارك كثيرة ضدّ بعضهما البعض تخلّلتها ضربات كثيرة تحت الحزام سأنقل لكم تفاصيلها. ولكن الآن، في عام 596، مات جونيور مسموما. تركّزت الشّبهات على فريغوند دون أيّ دليل رسميّ. ومع ذلك، أنجب جونيور ولدين، هما تيبرت Thibert وتييري Thierry، وقد ورث كلّ منهما جزءًا من المملكة. ولأنّهما كانا طفلين، فإنّ برونهاوت هي من تولّى الوصاية من جديد.

ولكن يا لحظّها العاثر، وبينما حفيداها يكبران، تحاربا من أجل الحصول على الألزاس. (نعم هذا ما حدث) فتمّ اغتيال تيبرت. ومات تييري أيضا ولكن لأسباب طبيعيّة.

ظلّت برونهاوت تتولّى الوصاية على العرش لابن حفيدها – وهو ما يفسّر سبب استمرار حكمها أربعين عاما إجمالا.

ولكنّ جزءا من النّبلاء كان يكنّ لها الكره. إذ يجب القول إنّها منذ ترأّسها الإقليم قد صنعت لنفسها الكثير من الأعداء - خاصة وأنّها كانت تسعى إلى توحيد المملكة والسّلطة المركزيّة، ممّا جعل النّبلاء يفقدون نفوذهم. ولذلك انضمّ الكثير منهم إلى معسكر كلوتار الثّاني (ابن عدوّيها اللّدودين، فريديغوند وشيلبيريك).

قُبض على برونهاوت وسُلِّمت إلى كلوتار الثّاني، الّذي، وهذا أمر بديهيّ، لم يكن من الممكن أن يكنّ لها حبّا كبيرا لأنّها كانت العدوّة اللَّدودة لوالديه.

ويمكنني أن أخبركم بأنّه قد استمتع بانتقامه منها على مهل. فقد قام أوّلا بإعدام أبناء حفيد برونهاوت، ثمّ حَكم عليها بالإعدام. لا نعرف على وجه التّحديد ما حدث لأنّ المتخصّصين يشتبهون في أنّ سرديات تلك الحقبة قد بالغت في إضفاء الرّعب. وعلى أيّ حال، يقال إنّ كلوتار الثّاني قد سلّم برونهاوت لجنوده لمدّة ثلاثة أيام، وكان عمرها آنذاك 66 سنة. وبعدها، أُعدمت بربطها على حصان برّيّ من شعرها وأحد ذراعيها وإحدى ساقيها، حتّى تمزّق جسدها إربا إربا، وتحطّم، ثمّ تمّ إحراقه.

دُفنت أشلاؤها في دير سان مارتن دوتون Saint-Martin d'Autun الّذي بنته بنفسها.

ولكن من ذا الّذي ورث المملكة بعد هذه الحروب الانتقاميّة الّتي استمرّت ثلاثة وأربعين عاما؟ إنّه كلوتار الثّاني، نجل ذاك الشّيطاني شيلبيريك.

بصدق، ماذا تصنع نيتفليكس؟

إذا كان من الممكن في الوقت الحاضر على ما أعتقد أن يُنهي المرء تعليمه كلّه دون أن يَسمع باسم برونهاوت ولو مرّة واحدة، فإنّها كانت شخصيّة لا مفرّ منها لطّلاب القرن التّاسع عشر. فقد تمّ تدريس تاريخها طوال قرون لتبرير استبعاد النّساء من السّلطة. كيف لا وقد تُرك لهنّ حرّيّة التّصرّف لمرّة واحدة في القرن السّادس، ولكنّهنّ أغرقن البلاد في حالة من الفوضى بينما كنّ يسرحنَ شعرهنَّ إلى أعلى، فتبّا لهنّ. (لأنّه كما هو معروف جيّدا، لم يدفع أيّ رجل بالبلاد إلى أتون الحرب).

لكن هذا الملخّص الّذي قمت به عن حياة برونهاوت لا يوفّها حقّ قدرها بشكل كاف. فوراء الجانب المتعلّق بلعبة العروش Game of Thrones من سيرتها الذّاتيّة، والّذي أعترف بأنّني قد استسلمت له بسهولة، كانت برونهاوت ملكة مهمّة من وجهة نظر سياسيّة. كرّس المؤرّخ برونو دوميزيل Bruno Dumézil سيرة ذاتيّة لهذه القائدة العظيمة الّتي رافقت انتقال ممالك الفرنجة بين العصور القديمة والعصور الوسطى.

لقد كان لها تأثير حقيقيّ. إذ طوّرت مرسوم شيلديبرت Childebert الّذي عدّل في عام 595 تنظيمَ المملكة. وسنّت تشريعات لوضع حدّ لعمليّات الانتقام على غرار النّزاعات الثّأريّةfaides وسمحت لنا بالانتقال من العدالة الخاصّة إلى عدالة الدّولة. وبعد أن كانت كلّ أسرة تنفّذ أعمالها الانتقاميّة، أصبح

القضاة مسؤولين عن اتّخاذ القرار، وإذا لزم الأمر، عن الحكم (بالموت) على الجناة. كما أصدرت بروبرو Brubru مرسوما بالمساواة بين الفرنجة والغاليين الرُّومان، ومنعت الزّواج القسريّ من المرأة. كما أنّها حاولت إنشاء نوع من الشّرطة. ولا يزال مفوّضو الشّرطة حتّى اليوم يحتفلون بها باعتبارها رئيستهم. إنّ قلّة من رؤساء الدّول يمكنهم التّباهي بامتلاكهم مثل هذا السّجلّ الحافل.

في وقت لاحق، لعبت مِلكات عديدات أدوارا مهمّة. فكان من الشّائع تكليفهنّ بمهامّ دبلوماسيّة. وكان بعضهنّ مساعدات للملك ويحكمن إلى جانبه. كانت الملكات يصلن رسميّا إلى السّلطة بثلاث طرق: إمّا عن طريق الوصاية (في حالة كان الوريث قاصرا)، أو الخلافة (حين يفوّض الملك سلطته إلى الملكة في غيابه، في حالة الحرب على سبيل المثال) أو الوصاية المشتركة (بأن تتولّى أمُّ الأمير السّلطة أثناء غيابه). بفضل هذه الأجهزة، تمكّنّ من الحكم لفترة أطول من أزواجهنّ وأبنائهنّ أحيانا، كما كان الحال مع برونهاوت وغيربرغ Gerberge (وهي ملكة مهمّة أخرى من القرن العاشر). ولكن، على الرّغم من أنّ ذلك كان أمرا شائعا طيلة قرون عديدة، إلاّ أنّنا فقدنا كلّيّا تقريبا ذكرى هؤلاء النّساء اللاّئي كنّ يحكمن ممالك الفرنجة.

ثمّ إنّ الحضور لم يكن يقتصر على الملكات، فقد كانت هناك أيضا نساء طبقة النّبلاء. ثمّة ميل لدينا إلى تخيلهنّ جميعا نحيفات، بجبهات

عريضة، في فساتين طويلة، وهنّ جالسات في برج أمام أنسجة، ومعهنّ وصيفة في الخلف وعند أقدامهنّ كلب صغير.

ولكنّهنّ في الواقع كنّ نشيطات للغاية. إنّ ما جعلنا نجانب الحقيقة طويلا، وفقا للمؤرّخة صوفي كاسانيس بروكيه Sophie Cassagnes-Brouquet، هو الأدبيات الّتي كانت تصوّرهنّ. فقد كانت مكانة هؤلاء النّساء تُستَخلَص من التّحليل النّصيّ لمكانة غينيفير Guenièvre. والحال أنّ غينيفير لم تكن في تلك الأدبيات تفعل شيئا ذا بال باستثناء تقبيل لانسلوت Lancelot.

تظهر الأبحاث الحديثة أنّ النّساء المتنفّذات لم يكنّ حالات استثنائيّة. لقد كنّ عادة قادرات على اكتساب دور محوريّ بين أسرهنّ الأصليّة وعائلات أزواجهنّ. وهنا مجدّدا، تلقي الأدوات التّكنولوجيّة ضوءًا جديدًا على وضعهنّ. فعن طريق وضع جميع المعلومات حول زوجين ملَكيين في قاعدة بيانات، من ذلك على سبيل المثال الاجتماعات الرّسميّة والتّبرّعات والرّحلات والمراسلات، من خلال تحديدها وتصنيفها، نكتشف أنّ شبكة تأثير المرأة في بعض الحالات كانت أكثر تطوّرا من شبكة زوجها، وأنّها هي من كان في مركز العلاقات.

لقد فقدنا ذاكرة هؤلاء النّساء اللّواتي كنّ يحكمن ممالك الفرنجة بشكل كامل تقريبا.

ومع ذلك، فإنّ السّلطة بوصفها نظاما ظلّت سلطة ذكوريّة. وسعيا لتبيين تأثير هؤلاء النّساء، تستخدم بعض المؤرّخات مفهوم

الوكالة، الّذي سنعبّر عنه باللّغة الفرنسيّة بكلمة «فاعليّة agentivité». فهذا المصطلح يسمح لنا بالخروج من مفارقة النّظام الأبويّ الّذي تتمتّع فيه المرأة رغم ذلك بقدرة على الفعل في العالم. كما أنّه يعكس مفهوم التّأثير، بدلا من الاقتصار على فكرة السّلطة. إنّ رؤيتنا للنّظام الأبويّ غالبا ما تكون مفرطة في التّبسيط. ولكن أن يكون المجتمع أبويّا فذلك لا يعني أنّ المرأة ليس لها دور فيه. والدّليل على ذلك هو مجتمعنا الأبويّ الّذي تلعب فيه النّساء أدوارا مهمّة.

كان بإمكان هؤلاء النّبيلات، إذا كنّ ذكيّات، أن ينحتن لأنفسهنّ مجالات للعمل ويكون لهنّ من ثمّة تأثير حقيقيّ على العالم. لم تكن فاعليّتهنّ تقتصر على التّأثير على النّاس أثناء المناقشات من خلف ستار. لقد كنّ يحملن مفاتيح حقيقيّة، ويوجّهن أتباعهنّ. علاوة على ذلك، فإنّ مصطلح «فارسة» كان موجودا. وهكذا، كتبت كريستين دي بيزان Christine de Pizan عند تقديمها النّصيحة للسّيدات لإدارة شؤونهنّ بشكل جيّد، خصوصا في حالة غياب أزواجهنّ: «قلنا أيضا إنّه يجب أن يكون لها قلب رجل، لأنّها يجب أن تعرف القواعد العسكريّة وكلّ ما يتعلّق بها، حتّى تكون مستعدّة لقيادة رجالها إذا لزم الأمر، كما يجب عليها أن تعرف كيف تفعل ذلك أيضا للهجوم والدّفاع على حدّ سواء، حسب ما يتطلّبه الوضع؛ لذلك يجب عليها التّأكد من تزويد قلاعها بما تحتاجه؛ سواء عندما تشعر بأيّ تردّد أو عندما تعتزم اتّخاذ إجراء ما. يجب عليها أن تختبر رجالها، أن تنقّب في قلوبهم وإراداتهم قبل أن تثق بهم كثيرا، وتدقّق في القوات العسكريّة الّتي تحت إمرتها وفي المساعدة الّتي

يمكن أن تحصل عليها إذا لزم الأمر [...] هذه هي التّدابير الّتي تشكّل للبارونة الحكيمة سلوكا مناسبا في غياب زوجها2[14]».

يتّضح لنا من هذا المقطع أنّ الشّجاعة خصلة ذكوريّة، ولكن بإمكان المرأة أن تتحلّى بها. بإمكانها الإفلات من شرطها البيولوجيّ، ويكون لها في نفس الوقت رَحِمٌ وقلبُ رَجُلٍ. بإمكان الكعكة ألاّ تكون فاشلة تماما، فقد نجح جزء منها في أن يكون مطهوا بشكل صحيح، وهو ما يفسّر سبب وجود رجال مخنّثين ونساء لهنّ صفات رجوليّة. وبالتّالي، فإنّ هناك في الواقع نوعا من الانسيابيّة بين المذكّر والمؤنّث. لذلك لم يُصدم أحد، في القرن الحادي عشر، لرؤية أميرة، مثل ماتيلد دي كانوسا Mathilde de Canossa، وهي ترتدي دروعا وتقود جيشا وتخوض معارك - خاصّة وأنّها كانت تفعل ذلك دفاعا عن البابا.

نعم، لقد كانت هناك نساء مسلّحات في العصور الوسطى. وهذا لا يعني أنّهنّ كنّ يقاتلن جسديّا في ساحة المعركة، مثل السّكيثيين les Scythes، ولكن عند الضّرورة، كان عليهنّ الدّفاع عن مصالحهنّ، وفي المقام الأول عن إقطاعاتهنّ. كان عليهنّ أن يعرفن كيفيّة حمل السّلاح. لا شكّ وأنّ هؤلاء السّيّدات الجميلات كنّ يستمعن لقصص الحبّ النّبيل Fin'amor، عن لانسلو وغينيفير، في المساء، وهنّ حذو المدفأة، ولكنّ ذلك لم يكن ليمنعهنّ إذا هوجمت

---

(14) - كريستين دي بيزان Christine de Pizan، Le Livre des trois vertus، نقلا عن صوفي كاسانيا بروكاي Sophie Cassagnes-Brouquet في Chevaleresses, une chevalerie au féminin, بيران، 2013، ص. 153.

أراضيهنّ من ارتداء الدّروع وتخطّي الأسوار وهن يلقين الأوامر على الرجال.

إنّ تفسير هذا الدّور غير المتوقّع للمرأة بسيط للغاية: فقد كان مجتمع القرون الوسطى هرميًّا. كان مجتمعا طبقيًّا. لم يكن يقسّم البشريّة بدرجة اولى إلى رجال ونساء. بل كان يقسّمها حسب الفئة الاجتماعيّة. وهكذا، كانت قيمة المرأة النّبيلة دائما أرفع من قيمة الرّجل العامّيّ. وفي حالة غياب اللّورد، لم تكن الإقطاعة تفوَّض إلى رجل من رتبة أقلّ. فحتّى لا تضيع السّلطة، كانت تبقى مع اللوّردة، مع امرأة.

هذا ما يقودنا إلى حالة جان دارك Jeanne d'Arc الدّقيقة والاستثنائيّة. في الواقع، وكما رأينا سابقا، هي حالة تندرج في سياق لم تكن فيه النّساء بِغَريباتٍ عن الأمور العسكريّة والسّياسيّة. ومع ذلك، فإنّ جان دارك امرأة خارجة عن المألوف، سواء لحجم انتصاراتها، أو لعبقريّتها العسكريّة، أو قبل كلّ شيء لأنّها لم تكن من طبقة النّبلاء. لقد كانت ابنة الشّعب. فأن تتمكّن راعية بسيطة من إعطاء الأوامر لرجال النّبالة، هذا ما كان يميّزها عن الأخريات. لو كانت تنتمي لعصرنا هذا، لَكُنَّا تحدّثنا عن التّقاطعيّة لوصف موقعها: امرأة + شعب، هذا الجمع هو الّذي كان من المفترَض أن يحول بينها والمسيرة العسكريّة الّتي حقّقتها. ولكنّ معاصريها أثبتوا أنّها كانت تتلقّى الأوامر من الله (أو من الشّيطان، اعتمادا على ما إذا

كانوا حلفاء لها أو أعداء)، وإلاّ فكيف كان بإمكانها أن تنتصر؟ إنّ الاعتقاد بأنّ جان دارك امرأة غير عاديّة لمجرّد أنّها كانت امرأة يعني نسيانَ جميع الفارسات الأخريات اللاّئي دافعن عن أراضيهنّ مرتديات دروعهنّ.

6

النّساء يَبْنِينَ كاتدرائيات

لم تكن العصور الوسطى بتلك العصور المظلمة الّتي قُدّمت لنا لفترة طويلة من الزّمن. كي نفهم جيّدا كيف كانت النّساء يعشن آنذاك، يجب أن نصغي إلى المؤرّخة جولي بيلورغاي Pilorget Julie ونقرأ لها. إنّها تشرح بطريقة محكمة كيف أنّ كلمة «النّساء» في صيغة الجمع لم يكنّ موجودة، وجميعَ الفروق الّتي يجب إجراؤها بين الرّيف والمدينة، والشّمال والجنوب، وكذلك حسب للعمر. بطبيعة الحال، كانت الحالة العامّة للنّساء تُحدَّدُ وفقا لعلاقتها بالرّجل. فبصرف النّظر عن الرّاهبات، كان للنّساء احتمالات ثلاثة لا يمكنهنّ تجاوزها: فهي إمّا عذراء، أو متزّوجة، أو أرملة. لم تكن حقوقهنّ متماثلة حسب المناطق: فالجنوب كان أكثر تحيّزا جنسيّا من الشّمال (أنا آسفة على استعمال هذه الكليشيهات)، وقد كان هذا الاختلاف موجودا بالفعل بين السّلتيين والرّومان. وفي كلّ مكان، كان يُسمح للزّوج بضرب زوجته، ولكن في بيكاردي، لم يكن عليه الوصول عند ضربها حدَّ إراقة دمها، بينما كان يُسمح له في الجنوب «بتدفئة قدميه» في خضاب دمها. بالمثل، كانت النّساء في الشّمال يتمتّعن بقدر أكبر من الاستقلاليّة الاقتصاديّة. وكان بإمكانهنّ الاستفادة من المهر

عند وفاة أزواجهنّ (وهو الجزء من الممتلكات الّذي كان يخصّهنّ)، ولم تكن عقود الزّواج تجرّدهنّ من ممتلكاتهنّ.

لكن ما يجب علينا تذكّره، وما لم يتمّ إخبارنا به عن العصور الوسطى، هو أنّ النّساء كنّ في كلّ مكان. لم يُحبسنَ في منازل أو أبراج تحرسها التّنانين. لقد ساهمنَ في صنع المجتمع. ربّما كان هناك تقسيم جندريّ للعمل – من ذلك مثلا أنّ العدد الأكبر من النّساء كنّ يعملن في مجال المنسوجات – ولكنّ ذلك لم يمنعهنّ من ممارسة أيّ حرفة. كان المجتمع في الواقع مرنًا للغاية. ففي أوساط الحرفيين، كان الرّجال والنّساء يعملون سويًّا، وكان يتمّ التنصيص على اسم الزّوجة في العقود، وعندما تترمّل، كان بإمكانها مواصلة النّشاط. بل إنّ بعض الباحثات لاحظن أنّه بدأ يتشكّل، انطلاقا من القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر، عصر ذهبيّ لنساء الحضر. فقد أصبح لهنّ الحقّ في الدّخول إلى الفضاء العامّ بأكمله. تخبرنا المؤرّخة جولي بيلورغاي بأنّ هذه الحرّيّة في أميان Amiens كانت تذهل المسافرين القادمين من الجنوب. وكان يجوز للنّساء التّجوّل في المدينة دون ارتداء حجاب، بشرط أن يربطن شعرهنّ – لم يكن يُسمح لهنّ على أيّ حال بتجاوز الحدود.

أعرض عليكم فيما يلي بعض الأدوار الّتي لم يكونوا يتوقّعون منهنّ أن يؤدّينها.

كانت هناك نساء التروبيريتز trobairitz – على غرار التّروبادور ولكن في المؤنّث، وهنّ شاعرات كنّ يتحدّثن الأوكيتانيّة. لدينا قائمة

بأسماء حوالي عشرين منهنّ، وقد عثرنا على حوالي أربعين عملا من أعمالهنّ، نخصّ بالذّكر منها حوارات شعريّة. وكنّ يقدّمن نفس التّنوع الاجتماعيّ الّذي كان للرّجال، بدءًا من سيّدات الطّبقة الأرستقراطيّة العليا، مثل الكونتيسة دو داي la comtesse de Die أو ماري دي فينتادور Marie de Ventadour، وصولا إلى عامّة النّساء، مرورا بالنّبيلات من طبقة النّبلاء الصّغيرة مثل نا كاستيلّوزا Na Castelloza. بشكل عامّ، كانت النّساء حاضرات في جميع المهن الفنّيّة. فكانت هناك مهرّجات ومنشدات وموسيقيات وراقصات.

هل كان عددهنّ كبيرا؟ وفقا لإحصاء أُجري في باريس بين عامي 1292 و1313، كان 13٪ من إجماليّ عدد الموسيقيين من النّساء. كما ورد ذكر أسماء «المهرّجات والمنشدات» في نصوص أوّل نقابة للمنشدات. وغالبا ما كنّ يعشن حياة التّطواف ويمارسن وظيفتهنّ باستقلاليّة أو مع العائلة أو داخل جماعة.

إنّ ما لم يتمّ إخبارنا به عن العصور الوسطى هو أنّه كانت هناك نساء في كلّ مكان.

- المزخرفات

نجد في صُوَرِ إبينال Épinal للعصور الوسطى، هؤلاء الرّهبان النّسّاخ الّذين كانوا يقضون حياتهم منهمكين في زخرفة مخطوطات رائعة، واستنساخ نصوص على مرّ القرون (هنا يتمّ تقديم «اسم الوردة Le Nom de la rose»، ورهبان عميان وممرّات مظلمة). في

عام 2019، علمنا أنّ فريقًا بحثيًّا كان يعمل على النّظم الغذائيّة في العصور الوسطى قد توصّل إلى اكتشاف مذهل في المقبرة الألمانيّة لمجتمع من الكاهنات. كان يتعلّق بأحد الهياكل العظميّة لامرأة من القرن الحادي عشر. وكانت قد توفّيت بين الخمسة وأربعين عاما والسّتيّن عاما من العمر. وقد تبيّن من جسدها أنّها عاشت حياتها دون أن تبذل مجهودا بدنيّا كبيرا. كما كشفت التّحليلات عن وجود بقع زرقاء في أسنانها. كانت هذه آثارا مهمّة من حجر اللاّزورد، المستخدَم في زخرفة المخطوطات لتلوين عباءة مريم العذراء. (بلى، في ذلك الزّمن، كان اللّون الأزرق أنثويّا، والأحمر ذكوريّا). فلماذا كان لهذه المرأة آثار منه على أسنانها؟

لقد افتَرض هذا الفريق البحثيّ في البداية أنّها قد قبّلت صورةً مقدّسةً، أو أنّها قد حاولت أن تتداوى بأحجار كريمة، إلى أن كشفت بعض الاختبارات أنّها كانت بلا شكّ ناسخة معتادة على لعق طرف فرشاتها أثناء الرّسم. ولكنّ حجر اللاّزورد كان ثمينا للغاية ونادرا. لذلك لم يكن يُعهَد به إلاّ لرسّامين رفيعي المستوى. هذه المرأة كانت خطّاطة إذًا. ولكن، ألم تكن حالة استثنائيّة ربّما؟ الإجابة على الأرجح هي بالنّفي. فقد سبق أن أظهر المؤرّخ برنارد بيشوي Bernhard Bischoý أنّ في دير دي شيل l'abbaye de Chelles كانت هناك راهبات ينسخن مخطوطات. كان هناك نساء يقمن بالنّسخ، وكان البعض منهنّ قد كتب أعمالا عن حياة ملوك أو ملكات أو قدّيسين أو قدّيسات. وبالنّظر إلى غياب التّوقيع على مخطوطات العصور الوسطى، فقد افتُرض على الدّوام أنّها من عمل

رجال. ومع ذلك، من المحتمل جدًّا أن يكون العديد منها من عمل نساء..

- بنّاءات الكاتدرائيات

حقّا، لقد كانت النّساء في كلّ مكان، حتّى في مواقع البناء، سواء أكانت مواقع لبناء كاتدرائيات أم أسوار أم قلاع. درست المؤرّخةُ ساندرين فيكتورSandrine Victor وظيفتهنّ في سجّلات ذلك الوقت. فوجدت أنّه كان لديهنّ دوْران محتملان. أوّلهما أنّهنّ كنّ مجرّد سواعد عاملة، مجرّد عاملات مثل الآخرين. ففي حالة نوتردام، على سبيل المثال، نعلم أنّهنّ قد شاركن في الحفر لأساسات الكاتدرائيّة، تماما مثل الرّجال. وعلى عكس ما قد توحي به الأحكام المسبقة حول ضعف المرأة البدنيّ، فإنّهنّ كنّ يعملن في وظائف شاقّة. لقد كنّ يصنعن الملاط الّذي كان عملا مرهِقا بشكل خاصّ. وكنّ يحملن الأحجار ويبنين سقالات ويعتنين بفرن الجير (يعجبني كثيرا اسم هذا العمل: فرّانة chaufournière). إنّها أعمال بدنيّة للغاية. فهل كنّ يتقاضين أجورا أدنى من الرّجال؟ من الصّعب إثبات ذلك، ولكن يبدو أنّه بالنّسبة إلى هذه الأعمال، غالبًا ما كان يُدفع للعامل أَجْرٌ يتناسب مع قوّته. فالشّخص النّحيف، سواء كان امرأة أم رجلا، كان يتقاضى مقابلا أقلّ ممّا يحصل عليه الرّجل القويّ البنية.

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك الوظائف الأكثر شهرة. وفي هذا المجال أيضا كانت النّساء حاضرات. لقد كنّ حِرفيّات، وصانعاتِ

حذوات، وصائغات. هذه المفردات ليست من صنع خيال بعض النّسويات غريبات الأطوار. إنّها الكلمات الّتي نجدها في السّجلاّت المهنيّة لذلك الوقت. في السّجلاّت الموجودة في باريس، نجد بينهنّ حتّى طبيبات وكنّ يُسمّين أيضاmiresses ، وجرّاحات. كذلك رئيسات بلديّات أو ملاّكات عقاريات. لا نعرف ماذا كان دورهنّ بالضبط، ولكن طالما أنّ المصطلح موجود، فذلك يعني أنّ هذه الحالات كانت موجودة بالفعل. وبما أنّه كانت هناك ناقلاتُ رسائلَ خلال حرب المئة عام، فقد تمّ توظيفهنّ للعمل جاسوسات.

منذ بضعة أعوام، كان هناك اهتمام متزايد بالإقامات الرّهبانيّة النّسائيّة (البيغويناج Beguinage)، وهي ظاهرة أنثويّة خاصّة بشمال أوروبّا (بلجيكا، هولندا، شمال فرنسا) ظهرت في القرن الثّاني عشر[15]. كانت عبارة عن مجتمعات من النّساء اللّواتي يعشن ويعملن معا – بمثابة الإقامة المشتركة في منتصف المسافة بين الدّير والحياة الدُّنيويَّة. لم يكنّ ينطقن بالعهد للالتزام الدّائم كما هو حال الرّاهبات في الدّير، وكان بإمكانهنّ مغادرة الإقامة المشتركة متى شئن. كان البيغويناج حلاًّ ممتازا للنّساء الوحيدات، ولكنّه ظل محدودا جغرافيّا. ثمّ اختفى في غضون قرنين من الزّمان، لأنّ الكنيسة لم ترحّب بهذه المساحات من الحرّيّة الأنثويّة.

ولكن كان للنّساء خيار آخر، وهو أن يحبسن أنفسهنّ. أن يدفنّ أنفسهنّ تقريبا على قيد الحياة. وعلى الرّغم من أنّ هذا لم يكن يخصّ

---

(15) - حول هذا الموضوع، انظر عمل أبولين فرانكنApolline Vranken ، الّتي تربط على وجه الخصوص بين البيغويناج والممارسات الحاليّة للحركات النّسويّة.

سوى أقلّيّة صغيرة من النّساء على النّطاق السّكّانيّ، إلاّ أنّ هذا الموضوع ترك أثرا كثيرا في نفسي لدرجة أنّني أرغب في الحديث عنه باستفاضة.

كانت الحبيسات متطوّعات. أي أنّهنّ كنّ يطلبن ذلك بأنفسهنّ ويتمّ اختيارهنّ بعناية. وفي اليوم المحدّد، يرافق الحبيسةَ موكبٌ. ثمّ تُقرَأ عليها الصّلوات الأخيرة كما لو كانت تودّع الحياة. في الواقع، كان قبرها قد حُفِرَ بالفعل في الزّنزانة الّتي ستُحبس فيها. وأثناء مراسم الانضمام، ترقد الحبيسة هناك، تماما مثلما يحدث في جنازة. لقد كانت نوعا ما جنازة قبل أوانها، أتيحت فيها الفرصة للمتوفّاة المستقبليّة لمشاهدتها. ثمّ يُغلق بابُ الزّنزانة عليها، إمّا بمفتاح، أو بسدّ المنفذ تماما.

وهكذا تقضّي الحبيسة بقيّة حياتها في هذه الغرفة، حتّى توافيها المنيّة.

كان يوصَى بمساحة تقدَّر بتسعة أمتار مربّعة، ثلاثة أمتار على ثلاثة مثلها، وبحرمان شبه كامل. كانت هناك في أسفل الباب، أو أسفل الجدار، فتحة لإخلاء الفضلات، ونافذةٌ صغيرةٌ بقضبان تسمّى نُوَيْفِذَة fenestrelle، مطلّة على الشّارع، لأنّ الحبيسة كانت تعيش على صدقات المارّة الّذين يمرّرون إليها الطّعام عبر تلك الفتحة. ولكن لماذا كانوا يدخلون طعاما مجانيّا لشخص كان قد قرّر طوعا حبس نفسه؟ ذلك لأنّ الحبيسة كانت تحتلّ وظيفة اجتماعيّة محدّدة: ألا وهي الصّلاة من أجل سكّان المدينة. (في بعض الأحيان،

كانت المدينة نفسها في الواقع هي الّتي تُطعمها وتُلبسها). كانت، بطريقة ما، مفوَّضَة للتّكفير عن الذّنب الجماعيّ.

عُثِرَ على هذه المَعازل في كلّ مكان تقريبا في جميع أنحاء مدن فرنسا. كانت أحيانا ملاصقة لكنيسة (وفي هذه الحالة، كانت هناك نويفذة أخرى لمشاهدة القدّاس)، أو ملتصقة بجسر أو بسور خارجيّ بالقرب من مستشفى. كان من الأفضل بالطّبع أن تكون الحبيسة في مكان مزدحم، وإلاّ فإنّها كانت لتخاطر بالموت جوعا. لذلك ينبغي أن نعتقد أنّ هذا المشهد كان مألوفا في ذلك الوقت.

لقد كنّ ميّتات حيّات في آن واحد، وكنّ في ذات الوقت يتحدّثن إلى النّاس المارّين في الشّارع، ويقدّمن تنبّؤات، ويستطعن تقديم المشورة لهم. هناك أيضا، كانت تُسمع آخر الأخبار، لأنّ الحبيسة، خاصّة إذا كان موقعها استراتيجيّا، كانت على علم بكلّ شيء.

إنّه ليس تماما من نوع المشاريع الحياتيّة الّتي تجعلك تحلم بها في زمننا هذا. ومع ذلك، فإنّ عدد المتطوّعات لم يكن صغيرا. لم تكن المَعازل تبقى فارغة لفترة طويلة مطلقا. إنّ التّفكير في أنّ بعض النّساء كنّ يطلبن طواعية أن يتمّ عزلهنّ وهنّ على قيد الحياة يجعلنا ندرك إلى أيّ مدى تغيّرت العقليّات وكم هي هائلة الفجوة بين رؤيتهنّ للعالم ورؤيتنا نحن. (رؤية، بالنّسبة إليهنّ وإليهم، مشفّرة كلّيّا بالجانب الدّينيّ). في عصرنا هذا، يمكننا أن نفهم التّطلع إلى الابتعاد عن العالم، إلى الانعزال، إلى الانسلاخ. ولكن هذا يعني بالنّسبة إلينا العودة إلى الرّيف، وليس الحبس داخل تسعة أمتار

مربّعة في قلب المدينة. وفضلا عن أنّ الحبيسة كانت تحتاج للآخرين للحصول على الطّعام، فإنّ حركتها لم تكن لتحمل أيّ معنى إلاّ إذا تمكّن الجميع من رؤيتها. فقد كانت تذكّرهم بخطاياهم وتصلّي من أجل المجموعة.

لقد كنّ حاميات روحيات للمدينة نوعا ما.

لماذا اخترن هذا الأسلوب في الحياة يا تُرى؟ لقد كانت الدّعوة الدّينية تلعب دورا في ذلك بالطّبع. خاصّة وأنّ الانتماء إلى الدّير كان يتطلّب مالا - في شكل مهر باعتبار أنّهنّ يتزوّجن من يسوع. لذلك لم يكن دخول الدّير متاحا لجميع النّساء. ومن ثمّ ربّما كان المَعزل بديلا لأولئك اللّواتي كنّ يردن أن يعشن حياة الورع. ولكن إذا كنّا نجد هذا العدد الهائل من النّساء في المعازل (بالطّبع كان هناك بعض الرّجال، ولكنّ عددهم كان أقلّ بكثير)، فهذا يشي لنا أيضا بشيء عن حال المرأة آنذاك.

كانت النّساء الوحيدات في ذلك الوقت مهمَّشات. فكان المعزل بالنّسبة إلى النّساء اللّواتي لم يكن في حياتهنّ رجل يحميهنّ وسيلةً للعثور على الأمان. فالنّساء الفقيرات اللاّئي عانين بلا شكّ من أحداث مؤلمة، كان بإمكانهنّ أن يجدن ملاذا مادّيا وراحة نفسيّة وروحيّة في أداء هذه الوظيفة الاجتماعيّة القيّمة (في كاتدرائيّة نوتردام باريس Notre-Dame de Paris، يتخيّل فيكتور هوغو Victor Hugo أنّه إذا كانت شونتفلوري Chantefleurie قد قرّرت حبس نفسها، فذلك لأنّ ابنتها قد انتُزعت منها).

كانت هذه الممارسة موجودة في جميع أنحاء فرنسا، ومنها باريس، في حيّ آل Halles في اتّجاه نافورة الأبرياء la fontaine des Innocents، حيث كانت توجد الكنيسة ومقبرة الأبرياء في العصور الوسطى. لقد أُلصقت معازل بهذه الكنيسة. ولدينا حتّى أسماء بعض الحبيسات. يبدو أنّ الأولى كانت تدعى أليكس لا بورغوت Alix la Burgotte. كانت راهبة في مستشفى سانت كاترين Sainte-Catherine، وفي أحد الأيّام حسمت أمرها على الانعزال كلّيّا. كان عليها أن تطلب الإذن. وقد حصلت بنفسها على قطعة أرض مساحتها عشرة أمتار مربّعة بالقرب من كنيسة الأبرياء، بجوار شارع سان دوني Saint-Denis، حيث بنَت زنزانتها. يبدو أنّها قضّت هناك ستّة وأربعين عاما قبل أن تموت فيها.

بعد مرور ثمانية عشر عاما على انعزال أليكس، اعتقدت جين لا فيريير Jeanne la Verrière أنّها كانت تجربة مغرية للغاية فطلبت أن تُحبَسَ بدورها. ثمّ كانت هناك رينيه دي فاندوموا Renée de Vendômois، الّتي تستحقّ حياتها أن تتحوّل إلى رواية. ولكنّني سألخّصها لكم فيما الأسطر التّالية: لم تكن رينيه متطوّعة حقّا لحبس نفسها. فقد أدينت في عام 1486 بالسّرقة والزّنا والتّواطؤ (مع عشيقها) لقتل زوجها. كان من المقرّر حرقها حيّة، فطلبت الصّفح من الملك. وهكذا حكم البرلمان بتخفيف عقوبتها. ولأجل المتعة فقط، أقدّم لكم مقتطفا من هذا الحكم:

من أجل جبر الضّرر المدنيّ، قضت المحكمة وتقضي على المدعوّة رينيه دي فاندومواRenée de Vendômois بالتّخلّي عن لباس العدّة الأسود والتّعويض عن ذلك علنا في هذه المحكمة لصالح المدّعي العام للملِك وأطفالِ راحلِ القدّيس بيرتيفين Saint Berthevin المذكور، وهي راكعة، عارية الرّأس والشَعر، مرتدية مشدّا أبيض – رماديّا، حيث سيتمّ خياطة صليب خشبيّ صغير على الصّدر؛ وستقول بينما تحمل بيديها شعلةً شمعيّة مضيئة: «أنا، المدعوّة رينيه دي فاندوموا، أشكر بتواضع شديد الملك، سيّدي المفدّى، على النّعمة الّتي منحنيها بإنقاذ حياتي وإرجاء عقوبة الإعدام الّتي استحققتها والّتي أُدِنت بها، لأنّني من خلال التآمر والمكائد الشريرة، ارتكبت الزّنا والسّرقة وحرق ممتلكات الرّاحل أسقف دي سوداي Souday، جان دي سان بيرتيفين، عندما كان زوجي، وكنت السّبب في أنّه أصيب، بطريقة غير إنسانيّة، برضوض وقُتل بالقرب من منزله في سوداي على يد شخص يدعى غروس جيهان، خادم غيوم دو بليسيس، الزّاني بي، وإنّني أعلن توبتي وأطلب الصّفح والمغفرة من الرّبّ، والملك، والعدالة، وأبناءِ المتوفّى المذكور وجميعِ أقاربه وأصدقائه الآخرين».

إليكم بقيّة عقوبتها:

«أن تبقى محبوسة على الدّوام ومحصورة في مقبرة القدّيسين الأبرياء في باريس، في منزل صغير سيتمّ إنشاؤه على نفقتها الخاصّة، بالأموال الأولى المتأتّية من ممتلكاتها، وهو منزل مرفَق بالكنيسة، كما

كان في السّابق، لتقوم بكفارتها هناك، وتقضّي أيّامها الأخيرة على الصّدقات وعائدات ترِكتها».

لقد اختفت هذه الممارسة في نهاية القرن الخامس عشر، وتؤكّد المؤرّخة بولات لارميت لوكلارك Paulette L'Hermite-Leclercq على تزامن نهاية المعازل مع ظهور أحكام قضائيّة بالسّجن المؤبّد (عوضا عن عقوبة الإعدام). كان مفهوم الحبس ذاته بصدد التّغيّر. ففي العصور الوسطى، كان يُنظر إلى الحبس الذّاتيّ على أنّه شكل من أشكال الكمال المسيحيّ، في حين أنّه اتّخذ في وقت لاحق معنى العقوبة، كما كان الحال بالفعل مع رينيه دي فاندوموا.

اختفت هذه المساحات تماما من مدننا في نفس الوقت الّذي تلاشت فيه هذه الممارسة من ذاكرتنا. فعندما تُفرغُ المَعازل، ولم يعد لها بالتّالي أيّ فائدة، وقع تدميرها. لا نجد منها الآن سوى أثرها في أسماء المواقع الجغرافيّة. فبعض المدن مازالت تحتفظ بشارع الحبيسة Rue de la Recluse أو بأحد أحياء المعزل Quartier du Reclusoir.

ولكن في أواخر العصور الوسطى هذه، لم يكن هذا هو الشّيء الوحيد الّذي شهد تغييرا.

7

الاحتجاز الكبير

هكذا إذًا كانت النّساء خلال العصور الوسطى حاضرات في كلّ مكان، بدءا من السّلطة الملكيّة، وصولا إلى مواقع البناء. ومع ذلك، كان هناك نوع واحد من المهن يتمّ استبعادهنّ منه بشكل قطعيّ: إنّه ذاك الّذي كان يقتضي دراسات جامعيّة. كان الدّخول إلى الكلّيات حكرا على الإكليروس (طبقة رجال الدّين)، وكانت الإكليريكيّة clericature محظورة على النّساء. ومن ثمّة، أُغلِقت المهنُ القانونيّة والمرافق العموميّة والدّواوين بجميع مستوياتها في وجوههنّ.

يجب القول إنّ رجال الدّين كانوا كارهين للنّساء. هذه هي الأطروحة المركزيّة لإيليان فيانو Éliane Viennot في المجلّد الأوّل من دراستها المتميّزة عن السّلطة والنّساء في فرنسا. ووفقا لبحثها، فقد شنّ هؤلاء الرّجال بداية من القرن الثّالث عشر هجوما على النّساء، كان له وقع متزايد.

لقد عرفت هذه الطّبقة من الرّجال، المتعلّمين في الجامعات، صعودا قويّا لأنّ الأرضيّة الّتي كانوا يشغلونها تقليديّا (وهي حفظ السِّجلّات) تحوّلت إلى إدارة الشّؤون العامّة. كانت الدّول والمدن النّامية في حاجة مطّردة إلى مهاراتهم. والإكليروس المعنيون هنا لم

يكونوا بالضّرورة رجال دين. لقد كانوا رجالا فرضوا أنفسهم في المشهد السّياسيّ انطلاقا من القرن الثّالث عشر لأنّهم يتقنون قراءة اللاّتينية وكتابتها. كانوا يعيشون من عمل أدمغتهم في إنتاج عصير الخلايا العصبيّة والكثير من الأعمال الورقيّة.

ومع ذلك، كانت هناك طبقة سميكة جدّا من التّحيّز الجنسانيّ لدى هؤلاء الرّجال الّذين كانوا يُعتبَرون علماء.

هذا دليل آخر على أنّ كراهية النّساء ليست أمرا طبيعيّا. وبقدر ما يبدو هذا جنونيّا، إلاّ أنّه في بعض الأحيان ثمرة عمل فكريّ طويل، وليس، كما قد يُظَنُّ، بسبب الافتقار إلى التّعليم. كانت كراهيّة المرأة ماثلة في صميم تفكير جزء من مثقّفي ذلك العصر، لأنّ تصوّرهم عن العالم كان يتمحور حولها. لم تكن كراهية النّساء خطأ، بل كانت إحدى دعاماتهم.

أحد ألدّ أعداء النّساء آنذاك كان يدعى أودون دي كلوني Odon de Cluny. كان رئيسَ دير، وقد كتب قائلا: «جمال المرأة الجسديّ لا يتجاوز بشرتها. ولو كان بإمكان الرّجال رؤية ما تحت الجلد، لكان مرأى النّساء سيثير اشمئزازهم حتما. فإذا كنّا لا نستطيع لمس البصاق أو الغائط بأطراف أصابعنا، فكيف يمكننا أن نرغب في تقبيل كيس الرّوث هذا؟».

سيّداتي، هل سبق لكنّ أن عوملتنّ بلطف أكبر من هذا من خلال تشبيهكنّ بأكوام كبيرة من البراز؟

امتدادا لفكر العصور القديمة، حيث كان يقال إنّ الرّجال متفوّقون على النّساء لأنّهم كانوا قادرين على التّحكّم في أنفسهم، كان يُنظر إلى النّساء في العصور الوسطى على أنّهنّ حيوانات، كائنات غير قادرة على السّيطرة على بهيميتهنّ. كان يُعتقَد أنّهنّ محكومات بأرحامهنّ وفروجهنّ وبَللهنّ. برطوبتهنّ الحميمة المقرفة. لذلك لا مناص من ترويضهنّ، وإلاّ فإنّهنّ سيرمين أنفسهنّ مثل الغيلان العطشى على أوّل قضيب عابر. إنّهنّ بنات حواء.

من المثير للاهتمام أنّ النّشاط الجنسيّ الأنثويّ كان يُنظر إليه آنذاك بطريقة معاكسة لنظرة عصرنا. كان يُعتقد أنّ النّساء ينصعن لرغباتهنّ، ويجدن صعوبة كبرى في التّحكّم في رغباتهنّ الجنسيّة. ولكنّ ما يتمّ تقديمه من هذه الزّاوية في أيّامنا هذه هو النّشاط الجنسيّ الذّكوريّ. بل إنّ الرّأي العامّ الحليّ يربط بين النّساء والمشاعر ويفترض أنّ لديهنّ رغبات جنسيّة أقلّ ممّا لدى الرّجال. ولديهنّ في المقابل رغبات عاطفيّة جامحة. إنّها رؤية للنّشاط الجنسيّ الأنثويّ سنجدها لاحقا مرّة أخرى أثناء محاكمات السّاحرات. فإذا كانت المرأة أكثر عرضة لإغراء الشّيطان، فذلك بسبب ميولهنّ الشّهوانيّة الطّبيعيّة، أمّا الرّجال فهم قادرون على كبح جماح نزواتهم وعدم الوقوع في شباك حيل الشّيطان الماكر.

تقدّم إليان فيينو Éliane Viennot سببا إضافيّا لكراهيّة رجال الدّين للنّساء، سببا أقلّ إيديولوجيّة وأكثر ارتباطا بالأجندة العامة لهم. فتوضّح أنّه كان هناك العديد من النّساء المتعلّمات في ذلك

العصر، وأنّ ذلك لم يكن يمثّل مشكلة طالما ظلّت المعرفة هواية، وهواية نخبوية بالتّحديد. إذا كان معظم النّاس، رجالا ونساء، يُعتبَرون غير متعلّمين، فإنّ الرّاهبات كنّ مثقّفات مثل رجال الدّين، بل إنّ بعض النّساء النّبيلات المتزّوجات كنّ أكثر تعليما من أزواجهنّ. غير أن هذه العلاقة بالثّقافة والمعرفة سوف تتغيّر لاحقا.

«عندما تنفتح المعرفة على سلطة ما (ناهيكم على السّلطة مطلقا)، فإنّ الاستعداد المتساوي للجنسين لتحصيل العلم وتحويل المعرفة إلى مهارات يؤدّي إلى أشكال مخصوصة من الصّراع. فالرّجال يضعون من ناحية عوائق فعليّة تقوم على القواعد أو القانون، وذلك بفضل سيطرتهم على هذا المجال: ومنها إغلاق الأماكن الّتي توزّع المعرفة، والعوائق الرّسمية الّتي تحول دون الوصول إلى المهن أو الوظائف الّتي تؤدّي إليها هذه المعرفة... وهم من ناحية أخرى يروّجون لخطابات حول تدنّي مستوى النّساء، ودونيتهنّ، وضَررهنّ، خطابات كانت تتراوح في عنفها وفقا لمدى الخطر الّذي كنّ يمثّلنه[16]». وهكذا تمّ التّوجّه نحو استبعاد النّساء عمدا ممّا كان بإمكانه أن يساعدهنّ على الحصول على سلطة ما، ولا سيما من فضاءات المعرفة كالجامعات.

أصبح الخطاب المعادي للنّساء أكثر تنظيما، ومع مرور الوقت، غدت فكرة الطّبقة جزءا من الماضي. فالمسألة بالنّسبة إلى الإكليروس لم تعد متمثّلة في تشويه سمعة نساء عامّة الشّعب اللّواتي لم يكنّ يثرن

---

(16) - La France, les femmes et le pouvoir, l'invention de la loi salique، بيرين، 2006، ص. 211.

خشيتهم، بل سمعة نساء النّخب الاجتماعيّة. لذلك، ظهر تحوّل في التّمييز الجنسانيّ. وأخذ نوع الجنس يتجاوز الطّبقة على نحو متزايد. بمعنى آخر، سيصبح أيّ رجل، حتّى وإن لم يكن من طبقة النّبلاء، (ونادرا أن كان الإكليروس من كبار النّبلاء) أفضل من أيّ امرأة، حتّى وإن كانت تنتمي إلى أرقى الطّبقات.

أخذت هذه الخطب في الانتشار واستمالة جمهور أوسع. وفي القرنين الرّابع عشر والخامس عشر، أتت الدّعاية والمكائد السّياسيّة من قبل أعداء النّساء أُكلها. فقد ازداد وصم النّساء، وفي الوقت نفسه، وصل الإكليروس، حاملو الشّهادات، إلى السّلطة في العديد من المدن، وتقلّدوا مناصب في الحكومات والمجالس البلديّة. تَرى إليان فيينو أنّ «التّدهور العامّ لظروف المرأة المعيشيّة ومكانتها وقيمتها في القرن الخامس عشر لا يمكن تفسيره إلاّ بهذه القدرة المتزايدة على نشر المثل الأعلى للحياة لمجموعة من الرّجال الّذين ازداد حجمهم وبأسُهم وتضاءل التزامُهم بالسّلطة الرّوحية يوما بعد يوم، وتطوّرت قدرتهم على بناء إجماع حول النّظام الجنسيّ الّذي كانوا يروّجون له[17]».

وبالفعل، أخذت حالة النّساء، أو بالأحرى أحوالهنّ، تتسارع نحو التّدهور. وهذا ما سُمّي بـ «الاعتقال» renfermement في إشارة إلى هذه الإيديولوجيا الّتي كانت تدفع النّساء إلى البقاء في المنزل. لقد شهدت تلك الحقبة حطّا من قيمة عمل المرأة. فصار يُنظر

---

(17) - المرجع نفسه، ص. 396.

إلى ما كنّ يُنتجنه على أنّه أقلّ جودة، وإلى الحقيقة المتمثّلة في أنّهنّ يعملن خارج المنزل على أنّها سبب الفوضى، وحتّى الفجور. لذلك، من أجل مجتمع سلميّ ومنظّم جيّدا، كان لا بدّ من حصر الأنشطة النّسائيّة بشكل صارم داخل المجال الخاصّ. هذه الحجج الّتي كان الأخلاقيون يكرّرونها بلا هوادة، أصبحت تجد أكثر فأكثر آذانا صاغية.

حدث هذا الاعتقال الكبير بين نهاية العصور الوسطى وعصر النّهضة. حَدَثَ ذلك بشكل تدريجيّ، ولكن ليس بشكل متزامن في جميع الأماكن. فهذه الرّغبة في الحدّ من استقلاليّة المرأة الاجتماعيّة والمهنيّة طالت أوّلَ الأمر مناطقَ حوض البحر الأبيض المتوسّط قبل أن تطال شمال أوروّبا في القرن السّادس عشر.

وشيئا فشيئا، ازدادت صرامة اللّوائح بخصوص شروط دخول النّساء إلى نقابات الحرفيين. وكان الاستبعاد أكثر وحشيّة في بعض الأحيان، فقد مُنِعنَ تمامًا من تعلّم مهنة ما ومن ممارستها. كما أُغلقت مراكز الرّهبنة في شمال فرنسا وفلاندرز، حيث كانت النّساء يعشن بشكل مستقلّ.

أدرج العُرف الرّسميّ لبواتو Poitou في عام 1514 عدم الأهليّة القانونيّة للمرأة المتزوّجة: فلم يعد بإمكانها التّوقيع على العقود دون موافقة من زوجها. وهكذا فقدت الكثيرَ من حقوقها ومنها الميراث على سبيل المثال. تمّ ذلك بالطّبع تدريجيّا مع مرور الزّمن وحسَب المناطق، ولكنّ الحركة العامّة كانت قد انطلقت بعد. في عام 1454،

قرّر الملك شارل السّابع تدوين أعراف البلاد من أجل توحيدها. سيكون لهذا التّدوين أيضا آثار سلبيّة على النّساء. سوف يترك لهنّ القانونُ المكتوبُ حرّية أقلّ في التّأويل ممّا كان يمنحها لهنّ القانونُ الشّفهيّ. وأكثر من ذلك، لم يتمّ اختيار القوانين الأكثر مساواة.

لقد فقدن السّلطة الدّينيّة أيضا. فالمتصوّفات اللاّئي كنّ يتمتّعن بشعبيّة، ازداد وصمهنّ والاشتباهُ في قيامهنّ بالسّحر. ولكن لا يجب أن ننخدع. فدائما هنالك فرق بين القوانين وحياة النّاس اليوميّة. كان اعتقال النّساء هذا في الواقع حجبا لهنّ في المقام الأوّل. لقد أُعدنَ رسميًّا إلى بيوتهنَّ ولكنّهنّ في الواقع استمررن في العمل، بطريقة أقلّ وضوحا، في وضع يذكّرنا بحالة زوجات العاملين لحسابهم الخاصّ والمزارعين حتّى وقت قريب جدّا. سوف يختفين تدريجيّا من الوثائق والمصادر التّاريخيّة. كانت هذه المرحلة بدايةً لسيرورة إضفاء الطّابع العرَضيّ والبروليتاريّ على عمل المرأة الّتي لا تزال مستمرّة حتّى يومنا هذا. بداية من ذلك العصر فصاعدا، كان على المرأة أن تعيش في ظلّ نظام بطريركيّ تمّ تعزيزه.

من بين سلسلة النّكسات الكبيرة الّتي عاشتها النّساء، كان هناك أيضا ابتداع القانون السالي la loi salique. في هذه النّقطة... تُتَّهَمُ النّسويات أحيانا بأنّهنّ مصابات بجنون الارتياب، لأنّهنّ يرين حالات التّمييز الجنسيّ في كلّ مكان، ولكن اعذرونا، سترون أنّه مع هذه القصّة، لدينا أسباب جدّيّة للارتياب.

مبدئيّا، أعتقد أنّ قانون ساليك سيتردّد صداه في رؤوسكم، وإن بطريقة غامضة إلى حدّ ما.

لذلك، دعونا نعد إلى موضوع النّظام الملكيّ. لقد اتّضح أنّه بداية من عام 987 وحتّى عام 1316 حدث ما يسمّى بـ «المعجزة الكابتيّة miracle capétien»: إذ كان الابن الأكبر للملك ذكرا، لذلك، لم تكن مسألة جنس الوريث مطروحة على الإطلاق، لأنّها لم تكن موجودة أصلا. ولكن عندما توفّي لويس العاشر الشرس Louis X le Hutin في عام 1316، حدثت المفاجأة. فوريثه الوحيد كانت ابنته جان دي فرانس Jeanne de France. منطقيّا، كان يجب أن تكون لدينا في ذلك الوقت، كما حدث في الدّول الأخرى مثل إنجلترا، ملِكة حاكمة. وكان الجميع ليكون على علم بجين دي فرانس.

سأنقل لكم التّفاصيل، ولكن عموما، نحن الآن في منتصف سلسلة الملوك الملعونين. باختصار، منذ أن كانت جين دي فرانس تبلغ من العمر خمس سنوات في لحظة وفاة والدها، قرّر عمّها فيليب سرقة العرش منها. لتبرير سرقته التّاج، طلب من مستشاريه العثور على نصوص تثبت أنّه لم يكن للنّساء الحقّ في الحكم. كان من الصّعب القيام بذلك، أوّلا لأنّ هذه النّصوص لم تكن موجودة، وأيضا لأنّه كانت هناك ملكات حاكمات (تذكّروا فريديغوند وبرونهاوت). وهنا ينبري الإكليروس المشهورون كارهو النّساء

للنّبش، ويستخرجون لنا قانون ساليك، الّذي سيقول على وجه التّحديد، ويا للمصادفة، إنّ النّساء في فرنسا ممنوعات من التّاج.

قانون ساليك هذا كان موجودا بالفعل. لقد جاء من الفرنجة وكان ضابطا للسّلوكيات. كان نوعا من مدوّنة قوانين. في الواقع، كان يعاقب بالفعل التّحرّش والاعتداء الجنسيين. فبموجب قانون ساليك، كان يعاقَب بغرامة قدرها 15 سِنتًا من يلمسُ يد امرأة حرَّة، و30 سنتا لمن يلمس ذراعها، و35 سنتا لمن يلمس ساعدها، و45 سنتا للامس صدرها.

لم يكن أحد يتذكّر قانون ساليك هذا حتّى خرج مثقّفون لينفضوا عنهُ الغبار ويؤكّدوا أنّه كان أساس مجتمعنا وأنّه، ويا للمصادفة، يحدّد، صدّقوا او لا تصدّقوا، أنّ المرأة لا يمكنها أن ترث. إنّ هذا الجزء من القانون هو مزيّف. فقد عرضوا في حقيقة الأمر وثائق مزوّرة لتأكيد هذه الخديعة. كيف ذلك؟ حسنا، لم يكن الأمر معقّدا للغاية. فقد قاموا بتركيب النّصوص بحيث تتمّ الإحالة على نصّ سابق من خلال تغيير الكلمات. كأن يكتبوا على سبيل المثال «الدّستور» بدلا من «العُرف»، أو «المملكة» بدلا من «الأرض»، أو «التّاج» بدلا من «الخلافة».

ولكن لماذا كان يجب إطاعة هذا القانون الّذي لم يكن أحد يعرفه في ذلك الوقت؟ في الواقع، لإثبات الأهمّيّة الكبرى لهذا القانون، تقرّر القول إنّه أتى إلينا من الطّرواديين، الّذين كنّا نحن أحفادهم. وحتّى نكون دقيقين أكثر، عن طريق فرانسيون Francion، ابن

أكتور Hector، حفيد بريام Priam، الّذي نجح في الفرار من طروادة أثناء استيلاء الإغريق على المدينة. ولكن كيف هذا؟ نحن لم نتعلّم أنّ الطّرواديين أسلافُنا. ولكن عند هذه النّقطة الّتي وصلنا إليها في الحكاية التّاريخيّة، سأتطرّق بصراحة إلى الأمر مباشرة. في أطروحة عام 1435، تحت عنوان Audite celi que loquor، يقدّم لنا جان جوفينال دي أورسينJean Juvénal des Ursins ملخّصا رائعا للقصّة: «جاء طرواديون إلى فرنسا، وسنّوا قانونا يسمّى قانون ساليك». هلمّوا إذًا، وقوموا بتعليب المعلومة، فقد تمّ وزنها.

وانبرى قسم كامل من رجال الدّين ليتّفقوا على اعتبار هذا القانون رائعا بما أنّ النّساء، كما ذكرنا، هنّ أكوام من القمامة. من بين الكارهين للنّساء نذكر جان بودين Jean Bodin. هذا شخص آخر كانت لديه مقاربة مدهشة لعلم الأحياء. فحجّته المضادّة لحكم الملِكات كانت بسيطة للغاية: «لقد ذكرت أيضا أنّ المَلَكيّة يجب أن تنتقل إلى الذّكور فقط، لأنّ حكم النّساء Gynecocracyla يتعارض بشكل مباشر مع قوانين الطّبيعة الّتي وهبت الرّجال القوّة والحصافة والسّلاح والقيادة، وحرمت النّساء منها». طبعا، فغالبا ما لا يُقال بما فيه الكفاية إنّ الأولاد يولدون وهم يحملون سيوفا في أيديهم.

تسمّى هذه العمليّة حرمان الإناث من التّاج الملكيّ، يعني حرمانهنّ من الميراث. (ولكن ليس من السّهل القول «إذا واصلتِ، فسوف أحرمك من الميراث».) إنّ هذا على درجة كبيرة من السّخافة لأنّ النّساء في فرنسا كنّ يرثن دوقيات وإقطاعيات. لذلك فهنّ في

الواقع كنّ يحكمن بالفعل. إلى جانب ذلك، فإنّ جان دي فرانس Jeanne de France، ملكتنا الّتي لم تصبح ملكتَنا، قد أصبحت على أيّ حال ملكة نافارا في عام 1328 . بعد ذلك، كان هناك عدد كبير من الحاكمات اللاّئي تولّين الحكم: مثيلات فريديغوند Frédégonde، نانتيلد Nanthilde، بلانش دي كاستي Blanche de Castille، إيزابو دي بافيار Isabeau de Bavière، آن دي فرانس Anne de France، لويز دي سافوا Louise de Savoie، وكاترين دي ميديسيس Catherine de Médicis. ولكن باختراع قانون ساليك، كان ينبغي أن تتنازل ابنة ملك عن مكانها لأيّ رجل، كابن عمّها أو عمّها مثلا، وغيرهما. لقد تمّت المصادقة على أنّ الرّتبة أقلّ أهمّيّة من الجنس، وأنّ منزلة الرّجل أعلى من منزلة المرأة. كان تغييرا فكريّا جوهريّا. لقد انتصر المذكّر على الرّتبة والدّم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

8

الهروب من مطاردة السّاحرات

يمثّل عام 1487 موعدا مهمّا مع الأسف في تاريخ النّساء. إنّه العام الّذي نُشر فيه كتاب «مطرقة السّاحرات Malleus maleficarum»، المعادي للمرأة بشكل مقيت، النّاضح بكراهيّة النّساء، العنيف بشكل لا يُصدّق، والّذي لا يدعو إلاّ إلى تعذيبهنّ لتحديد السّاحرات من بينهنّ. كان مؤلّفاه، الأستاذان في اللاّهوت الألمانيّ، يعتبران أنّ السّحرة الرّجال موضوع ثانويّ، لأنّ السّحر يتوافق مع الأنثى[1]

لاقى الكتاب نجاحا منقطع النظير، وهذا مؤشّر على تلك الحقبة. فقد أعيد إصداره خمس عشرة مرّة في أقلّ من أربعين عاما. ولكنّه لم يكن الكتاب الوحيد في هذا الموضوع. فقد أخذت تتكاثر الأطروحات حول دونيّة النّساء والسّاحرات، وكذلك الكتابات السّاخرة عنهنّ، وانتشر كلّ ما كان يمكن أن يساعد على التّقليل من قيمتهنّ. لعلّكم قد نسختم في المدرسة ذات مرّة جملة مثل هذه في دفتر ملاحظاتكم:

«يُعتَبر عام 1453 تاريخا مهمّا، فقد اكتشف فيه غوتنبرغ Gutenberg حروفا متحرّكة تُستخدم في الطّباعة، وهو ما أتاح نشر

المعرفة بشكل أفضل في أوروبّا: إذ أصبح من الممكن طباعة كمّيات كبيرة من الكتب بسهولة أكبر». (هذا مقتطَف من فيكيديا Vikidia، الموسوعة عبر الإنترنت الموجَّهة للأطفال الصّغار). عموما، تمّ تعليمنا أنّ المطبعة كانت تسمح برفع المستوى العامّ. فبفضل الكتب، سيصبح الجميع أكثر ذكاء وعقلانيّة.

في الواقع، إنّ الأداة، على غرار الإنترنت، هي قبل كلّ شيء ... أداة. وما يهمّ هو كيفيّة استخدامها. فعندما تُستخدم المطبعة لنشر الكراهيّة للنّساء، لا يكون التّقدّم التّقنيّ آليّا تقدّما فكريّا و/ أو تقدّما إنسانيّا.

بلغت مطاردة السّاحرات ذروتها بين عامي 1560 و1630، حيث تحوّلت إلى إبادة جماعيّة للإناث. فبينما كانت محاكمات السّحر في السّابق تهمّ عددا كبيرا من الرّجال والنّساء على حدّ سواء (وكانت تشوبها بشدّة معاداة السّاميّة، مع ما يسمّى بالممارسة الشّيطانية ليوم السّبت)، كان عدد النّساء طوال ما كان يُعرف باسم «مطاردة السّاحرات الكبرى»، يمثّل ثلاثة أرباع الـ 30.000 إلى 60.000 شخص الّذين تمّ إرسالهم إلى المحرقة، خاصّة في البلدان الجرمانيّة وسويسرا.

لئن قتلت فرنسا عددا أقلّ ممّا فعلته الممالك الأخرى، إلاّ أنّها كانت توفّر بالمقابل الجهاز الإيديولوجيّ من خلال عدد كبير من المتخصّصين في السّاحرات وفي علم الشّياطين، كما يقال، ونذكر منهم بالخصوص جان بودان المذكور أعلاه وكتابه «ديمونومانيا

«Démonomanie» (مصطلح في علم النّفس يعني استلاب المرء عقليّا استلابا يتميّز إمّا بفكرة أنّه مسكون بالشّياطين أو بالخوف من الجحيم – توضيح من المترجم –) الّذي أعيد نشره بانتظام. لا داعي للجدال العقيم، كما يرى جإن بودان، فالمرأة يجب أن يحكمها سيّد وإلاّ فإنّها تخاطر بالوقوع في غواية الشّيطان. لذلك كانت النّساء الوحيدات مستهدفات بشكل خاصّ من خلال محاكمات السّحر هذه.

أُضيفَ إلى كراهيّة النّساء إذًا الخوفُ من النّساء. فبعد كلّ شيء، بإمكان أيّ امرأة أن تكون ساحرة. وهذا يعني أنّ مساعدات الشّيطان يختبئن في كلّ مكان من حولك. ربّما حتّى داخل والدتك. نحن هنا لسنا ببعيدين عن أجواء أفلام الرّعب. إنّ الأمر مخيف تماما. ضفوا إلى ذلك أنّنا لا نعرف بالضّبط قوّة هؤلاء النّساء. تشير العديد من الكتب الّتي كتبها أساتذة كبار إلى أنهّنّ قادرات على التّسبّب في زوال القضيب. هيّا اعترفوا بأنّ هذا أقلّ ما يقال عنه هو أنّه مقلق.

يمكننا أيضا أن نحاول تخيّل قلق النّساء في تلك الحقبة الزّمنيّة. فكيف كان بوسعهنّ العيش وهنّ يسمعن مرارا وتكرارا بأنّهنّ قذارة البشريّة، وحثالة الأرض؟ كيف استطعن العيش وهنّ يرين نساء أخريات يتعرّضن للتّعذيب والقتل، لمجرّد أن جارا ناقما أدانها؟ من المؤكّد أنّ حياتهنّ كانت قلقا دائما. تتعلّق الإدانات بشكل رئيسيّ بنساء وحيدات (أي يعشن دون رفقة رجل يحميهنّ)، أكنّ أرامل أم عازبات، وغالبا ما كنّ فقيرات. لكنّ هذه الاتهامات استهدفت

لاحقا نساء البرجوازيّة والنّبلاء بشكل متزايد. وربّما كان هذا سببا فيما بعد لوضع حدّ للاضطهاد. فعندما تصبح جميع شرائح المجتمع أهدافا محتملة، يكون الاضطراب الاجتماعيّ والسّياسيّ

كبيرا جدّا – في حين أنّ الهدف في البداية كان ممارسة نوع من الرّقابة الاجتماعيّة.

هذا هو إذًا عصر النّهضة أيضا. إنّه مختلف دون شكّ عن الفترة المثاليّة كما تمّ تدريسه في الفصل. فترة الإيمان بالإنسان، ومايكل أنجلو، وليوناردو دافنشي، والرّوائع الفنّيّة، والنّزعة الإنسانيّة. كلّ هذا ليس خاطئا بالطّبع، ولكنّه لا يلّخص العصر كلّه. لم يكن هناك لا بلاياد LaPléiade ودو بيلاي Du Bellay ورونسار Ronsard فقط ...

على ذكر رونسار... دعونا نتوقّف للحظة عند قصيدة له طالما ردّدناها: «أيا فاتنتي، تعالي نر الوردة / الوردة الّتي كشفت هذا الصّباح / عن لباسها الأرجوانيّ في الشّمس...» أما زلتم تتذكّرون بقيّة الأبيات؟ «وا أسفاه! انظري يا فاتنتي، كيف في وقت وجيز/ ، غابت عن المكان / وا أسفاه! وا أسفاه على محاسنها وقد صارت سرابا! / أوّاه منك يتها الطّبيعة، لَأنت حقّا دوّارة، مادامت زهرة كهذه، لا تدوم إلاّ من الصّباح حتّى المساء. فهيّا يا فاتنتي، إذا كنت تصدّقينني، لتغتنمي ما يُزهر به عمرُك من طراوة، لتغتنمي شبابك، لأنّه، كما صنعت بهذه الزّهرة، ستشوّه الشّيخوخةُ جمالَك». تُدرَّسُ هذه القصيدة على أنّها مثال نموذجيّ للقصيدة الإنسانيّة، الّتي تصرّ

على الحياة، هنا، والآن، وليس على الخلاص بعد الموت، وتدعو إلى الاستمتاع بالوقت الحاضر بدلا من مكابدة الوجود باعتباره خطيئة أصليّة. باختصار، إنّها نشيد للحياة، واغتنام لذّاتها.

ولكن، هل هذا حقّا ما تقوله القصيدة؟ هل هذا حقّا ما نسمعه منها؟

في ذاك التّحليل، يتمّ الانطلاق من مبدأ أنّ القصيدة موجَّهة إلى جميع الشّباب، بغضّ النّظر عن نوع جنسهم. ومع ذلك، فإنّ رونسار قد أهداها إلى شابّة تدعى كاسّاندر سالفياتي Cassandre Salviati، الّتي كان قد التقى بها للتّوّ ويسعى إلى إغرائها. إذا أعدنا قراءة النّصّ، فماذا يقول لها رونسار في الواقع؟ إنّه يخبرها بأنّها ستشيخ قريبا وستصبح بالتّالي قبيحة. وبما أنّ قيمتها محصورة في جمالها فقط، فإنّه من الأفضل لها أن تستفيد منه بسرعة. (على سبيل المثال، قد يكون من خلال مضاجعته؟ إنّه اقتراح بسيط بالطّبع، ولكن بما أنّها بعد غد ستكون عجوزا وتغزوها التّجاعيد، فلن يرغب فيها أحد بعد الآن...)

إليكم تفصيلا طريفا: كان عمر كاسّاندر آنذاك ... 14 عاما. قد يقول قائل إنّ ذلك كان مرتبطا دون شكّ بمتوسّط العمر المتوقّع للمرأة في ذلك الوقت. ربّما كان سنّ الـ 14 عاما بالفعل إيذانا بنهاية الحياة. هذا غير صحيح. فقد توفّيت كاسّاندر عن عمر يناهز 76 عاما، وهذا لم يكن أمرا استثنائيّا. طبعا من الممكن أن نجد هذه القصيدة جميلة جدّا، أن نجد في هذا التّجسيد وهذه الجناسات

سحرا، ولكن من الممكن أيضا أن نرى فيها رجلا يلصق رمزا شريطيّا به تاريخ انتهاء الصّلاحيّة على جسد فتاة صغيرة ووجهها.

لقد سبق أن أخبرتكم بأنّني عندما كنت صغيرة لم أكن مزعجة. فعندما قيل لي إنّ «رونسار عبقريّ»، سجّل عقلي المعلومة كما يلي: رونسار هو شاعر عبقريّ. وعندما قيل لي إنّ هذه القصيدة روعة فنّيّة، آمنت بأنّها «روعة فنّيّة». وعندما قيل لي «احفظيها عن ظهر قلب للأسبوع القادم»، حفظتها عن ظهر قلب للأسبوع الموالي. كان عليّ أن أكبر وتجمعني الصّدف بمدرسين استثنائيين حتّى أبلور رأيي الخاصّ. ورأيي الشّخصيّ، أنا آسفة لقول هذا، هو أنّ رونسار، حتّى بصرف النّظر عن رسالته «أيا فاتنتي، تعالي نر الوردة»، ليس بالشّاعر العظيم. ها أنا قد كتبت رأيي. وحتّى لو أحرقتموني في ساحة عامّة، فلن أتبرّأ ممّا قلت.

(في موضوع القصائد حول الشّباب، من الصّعب التّفوّق على قصيدة فرانسوا فيلون François Villon، الّتي تقول عكس ما قاله رونسار: «وا أسفي على فترة شبابي»).

كلّ هذا يقودنا إلى التّساؤل عمّا إذا كانت تلك النّهضة حقّا كذلك للنّساء. لأنّ هذه النّهضة العزيزة، هذه اللّحظة العظيمة من الازدهار الفكريّ، كانت أيضا اللّحظة الّتي قُتلت فيها النّساء جماعات تحت ذريعة السّحر، وهي اللّحظة الّتي أُعطين فيها تواريخَ انتهاء صلاحيتهنّ، وهي اللّحظة الّتي كنّ يُقتَلَعن فيها من الفضاء العامّ. إذًا، هل كان للمرأة عصر نهضة؟

هذا السّؤال طرحته المؤرّخة الأمريكيّة جوان كيلي غادول Joan Kelly Gadol المتخصّصة في عصر النّهضة الإيطاليّ في مقال عام 1977 . كان المقال بمثابة الصّاعقة. مقالا مَعْلما ولم يعد من الممكن تجاوزه. وعلينا أن نحدّد موقعنا مقارنة معه. فالبساطة الواضحة للمسألة مُفحمة – بل ثوريّة. هي ذي مؤرّخة تشكّك في معطى لم يسبق أن تمّ التّشكيك فيه أبدا، المعطى المتمثّل في عصر النّهضة، وزد على ذلك في ضوء معيار كان يُنظر إليه حتّى الآن على أنّه ثانويّ: ونعني به معيار النّساء.

هذا السّؤال يطعن في مسألة التّحقيب التّاريخيّ - ما أسماه جاك لوغوف Le Jacques Goff «تقطيع التّاريخ إلى شرائح». إنّه يشير إلى أمر أساسيّ وهو أنّ عصر النّهضة مرتبط بفكرة التّقدّم، ولكن منذ عصر النّهضة وحتّى نهاية القرن التّاسع عشر، ستفقدُ النِّساء حرِّيتهنَّ.

ألا يعني الاستمرار في استخدام مصطلح عصر النّهضة أنّ تاريخ الرّجال فقط هو ما يُكتب؟ أنّ ما يهمّ نصف السّكان يتمّ إقصاؤه؟ ولهذا السبب يتخلّى المزيد والمزيد من المؤرّخات عن مصطلح عصر النهضة مفضّلات الحديثَ عن «العصر الحديث الأوّل» (early modern باللّغة الإنجليزيّة).

ومع ذلك، على الرّغم من أعمال العنف الّتي مورست ضدّ النّساء، فإنّهنّ قاومن، بل وحتّى حكمن. واستخدمن فاعليّتهنّ إلى أقصى حدّ لدرجة أنّ عصر النّهضة هو الفترة الوحيدة في التّاريخ (مع

الفترة الميروفنجيّة) الّتي نلاحظ فيها مثل هذه الكثافة للنّساء اللاّتي حكمن المملكة بمفردهنّ أو بالتّعاون مع الملوك، بصفتها وصيّة على العرش أو دون صفة الوصيّة. كانت أسماؤهنّ على التّوالي إيزابو دي بافاريا Isabeau de Bavière، آن دي فرانس Anne de France، آن دي برتاني Anne de Bretagne، لويز دي سافوا Louise de Savoie، كاترين دي ميدسيس Catherine de Médicis، وماري دي ميدسيسMarie de Médicis. لقد وقع تحدّيهنّ والافتراء عليهنّ وكراهيتهنّ في بعض الأحيان، ولكنّهنّ لم يتخلّين عن الحكم.

خلال هذه الفترة، ظهرت أيضا إحدى التّقاليد الرّاسخة «للنّظام القديم Ancien Régime»، ونعني به العشيقات الملكيّات، اللّواتي لعب العديد منهنّ دورا سياسيّا قياديّا، حتّى أنّ بعضهنّ شغل منصب رئيس الوزراء لسنوات عديدة: نذكر منهنّ أغناس سوريل Agnès Sorel في عهد شارل السّابع، وفرانسواز دي شاتوبريان Françoise de Châteaubriant وآن دي بيسيلو Anne de Pisseleu في عهد فرانسوا الأوّل، وديان دي بواتييه Diane de Poitiers في عهد هنري الثّاني وغابرييل ديستريه Gabrielle d'Estrées مع هنري الرّابع. فلئن كنّ يستخدمن فاعليّتهنّ الشّهيرة، إلاّ أنّ الملك من جانبه كان يجد مصلحة شخصيّة في إبراز عشيقته. ذلك أنّ إظهارها في مظهر القوّة بهذه الطّريقة كان يسمح له

بإبراز قدرته الكبيرة على التّخلّص من القواعد العامّة والقيام بما يحلو له[18].

لقد قاومت النّساء إذًا. كتبن، كثيرا، وصنعن عصر نهضتهنّ الخاصّ.

(إذا لم تقوموا بذلك بعد، فاذهبوا لزيارة قلعة شينونسو Château de Chenonceau في يوم من الأيّام، إنّها تسمّى قلعة السّيّدات Château des Dames لأنّه صمِّمت من قبل نساء كنّ صاحبات نفوذ في ذلك الوقت، مثل كاترين دي ميدسيس وديان دي بواتييه). نحن نعرف بالطّبع لويز لابيه Louise Labé، ولكن لا يزال يتعيّن علينا إعادة اكتشاف الأعمال الأدبيّة لجميع الأخريات: من مثيلات مادلين Madeleine وكاترين دي روش Catherine Des Roches، وشارلوت دوبليسيس مورناي Charlotte Duplessis-Mornay، وجورجيت دي مونتيناي Georgette de Montenay، وجين فلور Jeanne Flore، وماري دي روميو Marie de Romieu، وماري دي غورناي Marie de Gournay، وبيرنيت دو غيليه Pernette du Guillet... هؤلاء النّساء اللواتي لم يدرسن بشكل كاف أو جيد. تقول إليان فيينو Éliane Viennot إنّها عندما أصبحت مهتمّة بمارغريت دو فالوا Marguerite de Valois في أوائل الثّمانينيات، كان هناك أحد عشر كتابا مكرّسا لها في القرن

---

(18) - انظر أعمال فلافي ليرو Flavie Leroux،عشيقات الملك، من هنري الرّابع إلى لويس الرّابع عشر Les Maîtresses du roi, de Henri IV à Louis XIV ، تشامب فالون، 2020.

العشرين، أي بمعدّل كتاب واحد كلّ سبع سنوات. ولكن ما من أحد كلّف نفسه عناء الاطّلاع على رسائلها المخزّنة في قسم المخطوطات في المكتبة الوطنيّة الفرنسيّة، حيث اكتشفت المؤرّخة أكثر من مئة رسالة غير منشورة، كانت موجّهة إلى هنري الرّابع وكاترين دي ميدسيس، وغيرهما. وثائق بطمّ طميمها نائمة هناك، منسيّة، مثلما تمّ نسيان هؤلاء النّساء. إنّه جزء كامل من تاريخنا ينتظر منّا الاهتمام به.

9

مؤلِّفة، تغييبُ كلمة ومهنة

ولكنّ أعداء النّساء لا يستسلمون أيضا. حتّى أنّ معركتهم اتّخذت منعطفا لسانيّا في القرن السّابع عشر. كانت اللّغة الفرنسيّة، في العصور الوسطى، توفّر مساحة أكبر بكثير للأنثى. أوّلا، وكما رأينا أعلاه، كانت هناك أسماء مؤنّثة ثمّ اختفت. نذكر منها رامية Archière، فارسة chevaleresse، بهلوانة jongleresse، طبيبة doctoresse، رئيسة بلديّة mairesse، صانعة أقفال ferrone، حاجبة portière، كاتبة écrivaine، شاعرة poétesse، مؤلِّفة autrice، نادلة tavernière، وكيلة agente، محاربة قديمة vétérante. وللتّذكير، فإنّ هذه الكلمات لم تنشأ انطلاقا من اسم مذكّر تمّ تحريف استخدامه، بل انطلاقا من جذر. إنّ جذر الكلمة يجعل من الممكن صياغة اسم مذكّر واسم مؤنّث.

إضافة إلى ذلك، كان من السّهل حينها ممارسة ما يسمّى بالتّطابق الجواريّl'accord de proximité، المنحدر من اللاّتينيّة، والمتمثّل في أنّ النّعوت الواصفة تكون متطابقة مع أقرب كلمة تتعلّق بها. إنّها قاعدة منطقيّة ويسهل تذكّرها. من الأمثلة الملموسة على ذلك، فإنّ هذه القاعدة تعطينا التّعبير التّالي «المعطف والسّترة بيضاوان». ولكنّ

سحر هذه القاعدة ومرونتها، هو أنّه إذا كان هذا التّعبير يزعجك، فما عليك سوى أن تعكس التّرتيب لتحصل على التّعبير التّالي «السّترة والمعطف أبيضان». يمكنك إذاً أن تقول «الرّجال والنّساء جميلات» أو «النّساء والرّجال جميلون».

هذا رائع، أليس كذلك؟ ولكنّ الأكاديميّة الفرنسيّة قامت بتعديل هذه القاعدة في القرن السّابع عشر. فقد تقرّر فجأة أن «يغلب المذكّر المؤنّث بغضّ النّظر عن العدد». وهذا ما نتعلّمه في المدرسة. في ذلك الوقت، كانت الغاية بالطّبع هي إثبات تفوّق المذكّر حتّى في اللّغة. فقد هاجم مالارب Malherbe قاعدة التّطابق الجواريّ في بداية القرن السّابع عشر، وبعد قرن من ذلك، وتحديدا في عام 1767، كتب بوزيه Beauzé صراحة: «يُعتبَر الجنس المذكّر أكثر نبلا من المؤنّث، وسبب ذلك هو تفوّق الذّكر على الأنثى.»

وبالمثل، أجابت مدام دي سيفيني Mme de Sévigné رجلا قال لها «أنا مريض» بقولها «أنا أيضا مريضة» وأوضحت أنّها لو أجابت «je le suis» لحَصلَ لديها انطباع بأنّه كان لديها لِحية. لقد اضمحلّ تماما هذا الاستخدام، الّذي ما زلنا نجده لدى بومارشيه Beaumarchais كما في قوله: وُلِدت لأكون حكيمة، وقد أصبحت كذلك J'étais née moi pour être sage et je la suis devenue (زواج فيغارو Le Mariage de Figaro، الفصل الثّالث، المشهد 16).

كما أُلقي في غياهب النّسيان بحذف حرف العلّة «a» قبل قرائن النّسبة. فكلمة «Ma amour» كانت تُنطَقُ «m'amour»، قبل أن يتقرّر تحويلها إلى «mon amour» (كانت كلمة amour آنذاك مؤنّثة).

تتعرّض النّساء المؤيّدات للكتابة الشّاملة اليوم إلى الانتقاد بدعوى أنّهنّ يردن تأنيث اللّغة، ولكن هذا ليس صحيحا على الإطلاق. فالفكرة هي نزع الطّابع الذّكوريّ démasculinisation عنها لأنّه قد تمّ إضفاء الطّابع الذّكوريّ عليها بالقوّة. إليكم مثالا بسيطا للغاية: لقد كان يقال في السّابق «ça pleut»، باستعمال اسم إشارة محايد «ça». ولكن، تمّ تذكير التّعبير فيما بعد كما يلي « il pleut». وبالمثل، كان يقال «faut partir» قبل أن يتمّ فرض ضمير«il»، ومن ثمّة خلق فاعل زائف، يسمّى الفاعل الظّاهر، وتعقيد النّحو.

أنا أؤيّد نزع الطّابع الذّكوريّ هذا. وبالمناسبة، يتّبع هذا الكتاب العديد من المعايير الرّئيسيّة، ولا أعتقد أنّ هذا التّمشّي يجعله غير قابل للقراءة، على عكس ما يريد البعض منّا أن نعتقده1 (19).

كان لإنشاء الأكاديميّة الفرنسيّة علاقة كبيرة بالمشروع الكبير لإضفاء الطّابع الذّكوريّ masculinisation على اللّغة الفرنسيّة.

---

(19) - في بقية النّصّ، أدخلتُ بعض التّطابقات الجواريّة، والأمر متروك لكم للعثور عليها.

وكلّما كان حجم التّدريس يكبر، تمّت الاستفادة منه لوضع القواعد الجديدة ونشرها، ومن ثمّة فرض هذا التّحويل الإيديولوجيّ للّغة.

لحسن الحظّ، كان تقدّم اللّغة الشّاملة langage inclusif سريعا في السّنوات الأخيرة. هل يمكنكم أن تتخيّلوا أنّه في عام 2005، كان من الممكن أن نقرأ ما يلي في صحيفة لوفيغارو: «متنعلا حذاءً بكعب عال ومرتديا بدلةً ورديّةً جذّابةً، صافح المستشار الألمانيّ جاك شيراك» ولكن من الآن فصاعدا، صار الجميع يصفون أنجيلا ميركل بـ «المستشارة» دون أن يزعج ذلك أحدا.

واحدة من أكثر حالات إضفاء الطّابع الذّكوريّ إثارة للاهتمام هي اختفاء مصطلح «مؤلِّفة». فمع نفس الجذر اللاّتينيّauctor– – تمّت صياغة العديد من الكلمات: على غرار ممثّل / ممثّلة، ومؤلّف / مؤلِّفة. هنا نرى جيّدا الموازاة في البناء. ثمّ اختفت فجأة كلمة «مؤلِّفة». ولكن لم يكن هذا مصير كلمة «ممثِلة»... فأيّ سحر هذا؟

ليست كلمة مؤلّفة هي الوحيدة الّتي اختفت في الواقع، ففي الطّريق، تمّ شطب النّساء اللاّتي كنّ يكتبن من الكتب المدرسيّة تماما.

تربط تمثيلاتنا الذّكاء والعبقريّة والقوّة الفكريّة بالجنس المذكّر، وتمتلئ مقبرة العظماء لدينا بالرِّجال، مصحوبين أحيانا بزوجاتهم. كان التّفسير السّائد لذلك حتّى وقت قريب بسيطا: فالنّساء في الماضي لم يكن لديهنّ الوسائل المادّيّة لإنجاز أعمال أدبيّة، باعتبار أنّهنّ كنّ مشغولات للغاية في إنجاب قطعان من الأطفال وإعداد الحساء. أوضحت فيرجينيا وولف Virginia Woolf هذه الظّاهرة جيّدا في

كتابها Une chambre à soi. فتخيّلت أختا لشكسبير، أسمتها جوديت Judith، وجعلتها تتمتّع بنفس عبقريّة أخيها، ولكن لم يكن بإمكانها الكتابة أبدا. وبنفس العقليّة، كتبت مجموعة «لابلاياد La Pléiade» في بيان صحفيّ عام 2014 ما يلي: «نحن بعيدون عن التّكافؤ، هذا صحيح. ولكن يجب أن نلاحظ أنّ التّاريخ الأدبيّ نفسه كان يُكتب بصيغة المذكّر حتّى منتصف القرن العشرين، وليس في متناول المجموعة، مهما كانت خيّرة، تصحيح ذلك.»

للوهلة الأولى، لا شيء يثير الاستغراب.

ومع ذلك، فمنذ ثمانينيات القرن العشرين، جعلت البحوث في تاريخ النّساء من الممكن تدقيق هذه البديهيّة. فرأينا صور النّساء المنسيّات تتضاعف. وأصدرت مجموعة جورجيت ساند Georgette Sand كتابا بعنوان «Ni vues ni connues». وبدأت إعادة اكتشاف النّساء الرّسّامات. وتمّ التّنديد بتأثير ماتيلدا l'effet Matilda (يعني التّقليل المنهجيّ من قيمة عمل النّساء العالمات، هذا العمل الّذي نُسب في النّهاية إلى رجال) عن طريق نشر قوائم بالنّساء اللّواتي كان ينبغي أن يفزن بجائزة نوبل.

إنّ النّسيان الّذي ألقيت في غياهبه هؤلاء النّساء، أيّا كان مجالهنّ، يثبت أن حجّة الحائل الماديّ الّذي كان يحول دون إنتاجهنّ واكتشافهنّ هي حجّة خاطئة. فرغم كلّ العقبات الّتي كانت تقف في طريقهنّ، نجح بعضهنّ: لقد ابتكرن وأنتجن واخترعن واكتشفن.

ولكن تمّ حجبهنّ بشكل متعمّد. فخلف كلّ قصّة من قصصهنّ، نكتشف عملا تخريبيّا لتجريدهنّ من الشّرعية. ومن البديهيّ أنّ ما يترتّب عن ذلك هو الحفاظ على هذه الرّابطة «الذّكاء = الرّجل».

لنأخذ حالة ملموسة وفرنسيّة تماما. في عام 1758، ظهرت الأعمال الكاملة لبرنار دو فونتينيل Bernard de Fontenelle، بعد عام من وفاته. نجد من ضمنها مسرحيّة بعنوان بريتيس Brutus. ولكن كانت هناك مشكلة: فقد تمّ إبداع هذه المسرحيّة في عام 1690 وكانت تُنسب دائما لمؤلّفتها كاترين برنار Catherine Bernard. كانت كاترين برنار أوّل كاتبة مسرحيّة تمثَّل مسرحياتُها في الكوميديا الفرنسيّة Comédie-Française. وقد توفّيت عام 1712 . فكيف أمكن، بعد بضعة عقود، أن تكون قد اختفت بالفعل لدرجة أنّ مسرحيّتها نُسبت إلى رجل؟

نحن لا نعرف الشّيء الكثير عن حياتها، وهذا الأمر لا يخدم بالطّبع مصلحتها. الأكيد هو أنّها ولدت عام 1662 في روان في عائلة بروتستانتيّة. ويرجّح أنّها قد سافرت في سنّ السّابعة إلى باريس واعتنقت الكاثوليكية. نشرت روايات أوّلا ثمّ قصائد وحكايات (هي مؤلّفة النّسخة الأولى من حكاية Riquet à la Houppe) ومسرحيّتين تراجيديّتين هما لاودامي Laodamie وبريتيس Brutus، وقد تمّ تمثيلهما على ركح الكوميديا الفرنسيّة وعرفتا نجاحا منقطع النّظير. فازت ثلاث مرّات بجائزة الشّعر من

الأكاديميّة الفرنسيّة وثلاث مرّات من أكاديميّة تولوز للألعاب الزّهريّة. بداية من عام 1691، حصلت على معاش من لويس الرّابع عشر. وبعد عام 1698، لم تعد تنشر أيّ شيء. لم تتزوّج أبدا ولم تنجب أطفالا، وتوفّيت وحيدة دون أن يبالي بها أحد عام 1712. ما لن تعرفه أبدا هو أنّ مشاكلها بدأت بعد موتها ...

كان ذلك في عام 1730 بالتّحديد، العام الّذي عرض فيه فولتير مسرحيّته بريتيس. في ذلك الوقت، كي تكون مؤلفّا عظيما، كان عليك أن تكون كاتبا مسرحيّا كبيرا. ولكنّ فولتير في ذلك الوقت كان في ورطة بعض الشّيء، ويعاني من مشاكل ماليّة، وقد عاد لتوّه من المنفى في إنجلترا – لقد كان في أسوأ حالاته، ومع ذلك كان يريد أن يكون عظيما. إلاّ أنّ ما حدث هو هذا: فقد لاحظ بعض النّقّاد تشابها قويّا بين مسرحيّته بريتيس ومسرحيّة كاترين برنار، ليس فقط في البنية ولكن أيضا في الأشعار. والأدهى من ذلك هو أنّ البعض ذهب إلى أنّ مسرحيّة فولتير كانت أقلّ قيمة من المسرحيّة الأصليّة. هذه الاتّهامات أثارت استياء فولتير إلى حدّ كبير، فقرّر الدّفاع عن نفسه بتوخّي أسلوب الهجوم.

يؤكّد فولتير أنّه، على أيّ حال، لم تكن كاترين برنار هي من كتب بريتيس، وأنّ فونتينال Fontenelle هو من ألّف العمل في الواقع – فحتّى لو كان ذلك يعني اتّهامه بالسّرقة الأدبيّة، فالأفضل أن يكون منتحلا لرجل وليس لامرأة.

كانت إدانة النّساء اللاّتي يجرُؤن على الكتابة أمرا شائعا. وهو ما يطرح سؤالا: لماذا يتخلّى رجلُ أدبٍ من القرن الثّامن عشر عن تأليف عمله لامرأة؟ لماذا، وافق فونتينال في ذلك الوقت على ترك النّاس يعتقدون أنّ المسرحيّة كانت من تأليف كاترين برنار؟ كما قالت ماري آن باربييه Marie- Anne Barbier، وكانت هي الأخرى كاتبة مسرحيّة في ذلك الوقت، واعتُبرت مسرحيّاتها متقَنة الكتابة إلى حدّ كبير بحيث لا يمكن أن تكون هي مؤلّفتها: «كيف يمكن للرّجال أن يتنازلوا لنا عن مجد ليس لنا، وهم ينازعوننا حتّى في المجد الّذي يخصّنا؟».

(استراحة قصصيّة: في عام 1709، كتبت ماري آن باربييه مسرحيّة بعنوان موت القيصر La Mort de César. في عام 1736، كتب فولتير مسرحيّة تحمل نفس العنوان، وفي هذه المناسبة سرّب رأيا بأنّ مسرحيّة باربييه ليست جيّدة، حتّى وإن كان من شاركها في كتابتها ... هو فونتينال. وهذا بالطّبع لم يكن صحيحا. إنّه من المضحك على أيّ حال هذا الهوس لدى فولتير بأن ينسب إلى فونتينال المسرحيّات الّتي كتبتها ونشرتها نساء، وهي المسرحيّات الّتي استوحى منها هو نفسه).

عندما كتب في عام 1751 مذكّرة عن كاترين برنار لكتابه «قرن لويس الرّابع عشر Siècle de Louis XIV»، الّذي سيصبح مرجعا، زاد فولتير في عناده حين وصفها بأنّها «مؤلّفة بعض المسرحيّات، بالاشتراك مع برنار دي فونتينال الشّهير الذي ألّف بمفرده كلّ

بريتيس تقريبا». لقد انتشر هذا الادّعاء الّذي لا أساس له من الصّحّة بشكل لا يصدَّق بين الأجيال اللاّحقة مع أنّه لم يعثر أحد على أيّ دليل على وجود صلة بين كاترين برنار وبرنار دي فونتينال. صحيح أنّ فونتينال كتب مقالة مدح فيها عملها، مثلما كان يفعل معظم النّقاد في ذلك الوقت. فلا بدّ أنّ مساراتهما قد تقاطعت، ولكنّنا في الواقع لا نعلم حتّى ما إذا كان يعرف أحدهما الآخر.

بعد وفاة برنار دو فونتينال، أكّد أحد كتّاب سيرته الذّاتيّة، مع ذلك، أنّه باح له بأنّه هو من كتب أعمال كاترين برنار، أو بالأحرى، كلّ الأعمال الّتي كانت تتناول موضوعات «ذكوريّة». فمسرحية لاوودامي Laodamie، على سبيل المثال، الّتي تهتمّ بقضايا السّيادة النّسائيّة، من الغريب أنّها لم تُنسب أبدا إلى رجل.

بعد ذلك، جميعهم مرّوا إلى وضع الارتجال. فبعد أن كانت كاترين برنار صديقة عزيزة جدّا لبرنار دي فونتينال، أصبحت ابنة عمه. نقرأ في قاموس من القرن التّاسع عشر ما يلي: «كانت روابط الصّداقة، أكثر حتّى من روابط الدّم، تربطها بفونتينال، وقد ساهم بنصائحه في النّجاح الّذي عرفته ثروتها الأدبيّة؛ بيد أنّ الاهتمام الّذي كان يبديه بأعمالها دفع إلى افتراض أنّه قد ساهم بقسط كبير في تأليفها.»

لوقت طويل2[20]، ظلّت صفحة ويكيبيديا الخاصّة بكاترين برنار تشير إلى ما يلي: «وُلدت في عائلة بروتستانتيّة، وهي ابنة أخت

(20) - تمّ تعديل بطاقة ويكيبيديا الخاصّة بكاترين برنار بعد مقالة أولى قمتُ بنشرها عنها وندّدت فيها بالغياب التّامّ لأيّ دليل يثبت رابط القرابة بينهما.

بيير وتوماس كورناي Pierre et Thomas Corneille وابنة عمّ فونتينال...» بما أنّ برنار دي فونتينال كان ابن أخ كورناي، وأنّه قد تقرّر أن كاترين برنار هي ابنة عمّه، إذًا، لم ينقص غير أن يعتبروها أيضا ابنة أخت كورناي. ومن هنا نفهم أنّها كاتبة ثانويّة حالفها الحظّ بأن سمحت لها روابط دمها بالاستفادة من ثروة معيّنة.

نفس الشّيء نجده على موقع المكتبة الوطنيّة الفرنسيّة BNF، حيث يتمّ تقديم بريتيس Brutus كما يلي: «مؤلّف النّصّ: كاترين برنار وبرنار دو فونتينال.»

لقد فحصت جيّدا هذه الطّبعة، فلم أعثر في أيّ مكان على اسم فونتينال، ومن ثمّة لا نعرف ما هو سبب ذكره في المذكّرة ... وفي البطاقة الّتي خصّصتها لها المكتبة الوطنيّة، لا نعثر على اسم فونتينال ولكن تمّ الاحتفاظ باسم كورناي:

«روائيّة وكاتبة مسرحيّة وشاعرة. ابنة أخت كورناي.» مرّة أخرى، لا يوجد أيّ دليل يثبت ذلك أو حتّى يجعلنا نفترضه.

«افتروا، وزيدوا افتراء، سيظلّ هنالك دائما شيء ما». ينتهي بنا الأمر في موقف سخيف حيث، إذا لم نتمكن من إثبات أنّ

برنار دو فونتينال لم يكتب بريتيس، يكون الشّكّ إذن مسموحا به. لا يهمّ أنّه لا يوجد دليل واحد على عكس ذلك. الحذر يكمن الآن في القول إنّ فونتينال، وهو رجل، بالطّبع، هو شريكها في التّأليف.

عندما تحاول فيرجينيا وولف أن تتخيّل كيف كانت لتكون حياة جوديت شكسبير، تراها تترك عائلتها، وتمضي إلى العاصمة لتجرّب حظّها وهي في السّابعة عشر عاما، ولكنّ نهايتها ستكون سيّئة لأنّ «أيّ امرأة ولدت في القرن السّادس عشر وكانت ذات موهبة رائعة، كانت لتصاب بالجنون وتقتل نفسها». ولدت كاترين برنار في القرن السّابع عشر، وتركت عائلتها وغادرت لتجربة حظّها في باريس في سنّ السّابعة عشر. فكتبت. ونجحت. وتمّ الاعتراف بها خلال حياتها. ولكن تمّ تجريدها من أعمالها ومحوها من التّاريخ الأدبيّ في وقت لاحق، لدرجة أنّ فيرجينيا وولف لم تكن قادرة على تخيّل وجودها. (وهذا أمر مؤسف جدّا لأنّ الرّوائية من أورلاندو كانت لتعجب بالتّأكيد برواية كاترين برنار الأولى، «فريدريك صقلّيّة Frédéric de Sicile» الّتي تحكي قصّة زوجين ملَكيين، لم ينجبا سوى ابنة واحدة، فقرّرا أن يقدّماها طوال حياتها على أنّها صبيّ. وبالتّالي تنادي المؤلّفة على فريديريك بـ «هو» أو «هي» حسب الشّخص الموجود أمامه أو أمامها).

أشتركُ مع فرجينيا وولف في نقطة على الأقلّ: أنّني لم أصادف كاترين برنار مطلقًا خلال دراستي الأدبيّة. ومع ذلك، يمكنني أن أؤكّد لكم أنّنا أخذنا الوقت الكافي في الفصل لدراسة الكثير من المؤلّفين الثّانويين، ولكن لم ندرس أبدا امرأة كانت تكتب تراجيديات تمّ تمثيلها على خشبة المسرح في الكوميديا الفرنسيّة. علاوة على ذلك، منذ وقت ليس ببعيد، لو طُلب منّي ذكر اسم أوّل

كاتبة مسرحيّة تمّ لعب مسرحيّاتها في الكوميديا الفرنسيّة، لجازفت بذكر «ديرا Duras».

ولكن هناك ما هو أسوأ.

لأنّ كاترين برنار لم تكن استثناءً.

هل تعرفون ماري آن باربييه الّتي ذكرتها أعلاه؟ ومدام دي غوميز Mme de Gomez؟ ومدام دي سانتونغ Mme de Saintonge؟ هناك مختارات مخصّصة لهنّ[21] 3. أمّا بالنّسبة إلى الكاتبات المسرحيّات، فمن الأفضل دائما أن نرى نصوصهنّ ممثّلَة على خشبة المسرح. لهذا السّبب، من الضّروري التّعويل على الإخراج المسرحيّ لأورور إيفان Aurore Évain الّتي تعيد الحياة لتلك الأعمال. أنصحكم بالاطّلاع على عملها. فقد اهتمّت بشكل خاصّ بمفهوم «الإرث النّسائيّ matrimoine»، أي التّراث الثّقافيّ الخاصّ بالمرأة. إنّها تصرّ على حقيقة أنّ هذا المصطلح ليس جديدا، على عكس ما قد يعتقده البعض. ففي العصور الوسطى، كان الزّوجان عندما يقدمان على الزّواج يصرّحان بالإرث الأبويّ patrimoine لكلّ منهما (وهو الممتلكات الموروثة من الأب) والإرث الأموميّ (الموروث من الأمّ). ولكنّ هذه الكلمة قد اختفت اليوم. وكلّ ما تبقّى منها هو صفة «الزّوجيّ

(21) - لمعرفة المزيد عن هؤلاء النّساء، يمكنك الرّجوع إلى موقع SIEFAR الإلكترونيّ، وهي الجمعية الدّوليّة لدراسة النّساء في النّظام القديم.

matrimonial». وهذا الاختفاء لكلمة «إرث نسائيّ» يعني أيضا اختفاء ما كانت تحيل إليه الكلمة.

يلاحظ المؤرّخون الّذين عملوا على ظاهرة المحو الّتي تعرّضت لها هؤلاء الفنّانات أنّ الكتب الّتي تعرّف بالكتّاب المسرحيين قد شرعت في تغييب النّساء بدءا من القرن الثّامن عشر وهي مستمرّة في ذلك حتّى اليوم. وهكذا تأخذ أهمّيتهنّ في التّضاؤل، ويقع إعادة النّظر إلى أعمالهنّ على أنّها ثانويّة أو منسوبة إلى رجال حتّى ينتهي الأمر إلى نسيانهنّ تماما.

إنّ اللاّوعي الجمعيّ آلةُ أدائيّةُ قويّة تعيد إنتاج توقّعاتها. وكي تتغيّر الأمور، يجب علينا زعزعة تمثيلاتنا، وإعادة اكتشاف أولئك اللّواتي ابتكرن واخترعن واكتشفن وكافحن. لمعرفة المزيد عن كاترين برنار والإصغاء إلى قصائدها، خُصِّصَ لها برنامج في قناة فرنسا الثّقافيّة France Culture[22]. لا أستطيع مقاومة متعة الاقتباس منه ما يلي: «إنّ هدفي هو ألاّ أظهر إلاّ الغراميات التّعيسة وذلك من أجل محاربة ميلنا الجارف نحو الحبّ بأكبر قدر ممكن.»

تمّ تسجيل كاترين برنار في سجلّ الكوميديا الفرنسية بوصفها «مؤلِّفة autrice». لقد أُلقي بهذه الكلمة في غياهب النّسيان تماما مثل أعمالها وصوتها. فإذا اخترت أن أطلق على نفسي صفة autrice المنحوتة من الجذر الأساسي وليس auteure مؤنث auteur، فهذا للتّذكير بوجود هؤلاء الفنّانات. وأنّه قد تمّ نسيان هؤلاء النّساء.

(22) - Catherine Bernard une voix oubliée، في Une vie, une œuvre.

عندما نشرت أخرياتٌ أعمالا من بعدهنّ، في القرن التّاسع عشر وخاصّة في القرن العشرين، كان هناك ترحاب بظهور نساء كاتبات وكأنّ الأمر غير مسبوق. وهكذا سيتمّ اختراع كلمة auteure. (والحال أنّه لا يقال «acteure» بالنّسبة إلى ممثّلة). إنّ استخدام مصطلح autrice من جديد يعني التّذكير بتاريخ تراثنا النّسائيّ، بحقيقة أنّنا حفيدات لجدّات. وهذا يعني أنّ كاترين برنار كانت موجودة بالفعل وأنّ عملها لا يزال ينبض حياة.

ليست المؤلّفات بالوحيدات اللاّئي تمّ محوهنّ بالطّبع. فهناك أيضا الرّسّامات[23]، والنّحّاتات. قد يعتقد المرء أنّ هذا الاختفاء هو علامة من علامات العصور القديمة. فمن ذا الّذي يمكنه أن يتخيّل أنّه ما يزال يحدث حتّى اليوم[24]؟ ومع ذلك، فإنّ هذا هو واقع الحال. من يتذكّر كلير دي ديرا Claire de Duras في القرن التّاسع عشر؟ وفي القرن العشرين، من يتذكّر كاترين بوتزي Catherine Pozzi، الشّاعرة ورفيقة بول فاليري Paul Valéry الّذي نهب أفكارها بكلّ أريحيّة؟ واحدة من أشهر رسّامات القرن الثّامن عشر الشهير كانت تُسمّى روزالبا كاريرا Rosalba Carriera. من منكم

(23) سأختار المصطلح الشّائع "peintre" لأنه يبدو سائدا عند الاستخدام، لكنّني أحبّ كثيرا كلمة "peintresse".

(24) - ما يثير تساؤلي بشكل خاصّ هو تكرار حالات السّهو هذه. ففي الوقت الّذي كتبتُ فيه هذه المقارنة بين أخت شكسبير الّتي صنعها خيال وولف وكاترين برنار، اكتشفتُ أنّه تم إجراء مقارنة مماثلة تقريبا من قبل كريستين بلانتي في مقالها اللاّمع "أخت بلزاك الصّغيرةLa Petite Sœur de Balzac ". إنّها تروي فيه كيف قادتها أبحاثها إلى اكتشاف نساء مؤلّفات، بعيدًا عن أسطورة منع المرأة من الكتابة. يعود تاريخ هذا المقال إلى عام 1989... إنّ المعارف المتعلّقة بالنّساء تستغرق بالتّأكيد وقتا طويلاً للانتشار.

يتذكّر النّحاتتين لوسيان هيوفيلمانسLucienne Heuvelmans وهيلين بيرتو Hélène Bertaux؟ ولوحات كونستانس مايرConstance Mayer؟ وبولين اوزو Pauline Auzou؟ وكونستانس ماري شاربنتيرConstance-Marie Charpentier؟

تمثل أعمال النّساء المعروضة في المتاحف الكبرى في المتوسط أقلّ من 10٪ من المجموعات الدّائمة. يوجَد دائما مكان لإدوارد هوبر Edward Hopper، لكن لا مكان لجو هوبر Jo Hopper، زوجته الّتي كانت بدورها رسّامة. ربّما لم تكن لوحاتها رائعة؟ ربّما، ولكنّنا لن نعرف ذلك على وجه اليقين. بعد وفاة إدوارد هوبر عام 1967 وجو هوبر في عام 1968، تمّ إسناد أعمال الزّوجين البالغ عددها 3000 عمل إلى متحف ويتني في نيويورك. اعتنى عمّال التّرميم بأعمال إدوارد لكنّهم وجدوا أنّ أعمال جو تشغل مساحة كبيرة، فما كان منهم إلاّ أن قاموا بتدميرها. فلم يتبقّ من أعمالها سوى عدد قليل من الرّسومات واللَّوحات المائيّة، الّتي عُثر عليها بالصّدفة في مخزونهما في عام 2010.

دعونا نَعد إلى عصر النّهضة. لقد تمّ إهمال رسّامات عصر النّهضة الإيطاليّة لفترة طويلة. ونذكر من بينهنّ سوفونيسبا أنغيسولا (1532-1625)Sofonisba Anguissola، لافينيا فونتاناLavinia Fontana (1552-1614)، فيدي غاليزيا (1578-1630) Fede Galizia ، وبلوتيلا نيلي Plautilla Nelli

(1524-1588). ولكنّ أشهرهنّ كانت أرتيميزيا جنتيليسكي Artemisia Gentileschi.

وُلدت أرتيميزيا جنتيليسكي عام 1593 في روما. وكانت الابنة الكبرى للرّسّام أورازيو جنتيليسكي Orazio Gentileschi. تعلّمت الرّسم في ورشة والدها، بمعيّة إخوتها، ولكنّها برهنت بسرعة عن امتلاكها موهبة أعلى منهم بكثير. ومنذ سنّ السّادسة عشر، قدّمت أعمالها الأولى وأعادت صياغة أعمال أبيها. كان تدريس الفنون الجميلة في ذلك الوقت مقتصرا على الذّكور، ولهذا تمّ استبعادها منه. لم يكن هذا مهمّا بالنّسبة إلى والدها الّذي كان مقتنعًا بموهبة ابنته؛ فقرّر أن يأتي لها بمدرّس خصوصيّ ليدرّسها في البيت، وكان هذا المدرّس هو الرّسّام أغوستينو تاسي Agostino Tassi.

اغتصب تاسّي أرتيميزيا. وتعهّد بالزّواج منها لطمس جريمته (يا لها من فكرة رائعة أن تتّحد الضّحيّة مع مغتصبها مدى الحياة) ولكنهّ في الواقع كان متزوّجا بالفعل. وهكذا قرّر والد أرتيميزيا في نهاية المطاف رفع القضيّة إلى المحكمة. كانت محاكمة «فضّ البكارة القسريّ» محنة إضافيّة عاشتها المرأة الشّابّة. وعلى سبيل المكافأة، تمّ إخضاعها لفحص نسائي ولممارسة العرافة sibili، الّتي لم تكن تختلف في شيء عن التّعذيب. إذ يُمرَّرُ خيطٌ حول الأصابع ويشدُّ بقوّة للتّأكّد من أنّ الشّخص الشّاهد لا يكذب، أو بتعبير أدقّ لا يتراجع تحت الألم.

بعد عدّة أشهر من الإجراءات، حُكم على تاسّي بالمنفى لمدّة خمس سنوات، وهو ما لم يحترمه على الأرجح.

بعد ذلك تزوّجت أرتيميزيا من رسّام متوسّط المستوى، ولكنّ زواجها منه كان قبل كلّ شيء فرصة لها للحصول على مزيد من الحرّيّة، فقد كان يسمح لها بممارسة فنّها. انتقل الزّوجان إلى فلورنسا وأصبحت رسّامة مشهورة. كانت أوّل امرأة تُقبَلُ في أكاديميّة الرّسم.

لئن كانت كلّ أعمالها رائعة، إلاّ أنّ أشهر لوحاتها هي «جوديت تقطع رأس هولوفرنيس Judith décapitant Holopherne». تأخذ أرتيميزيا جنتيليسكي مشهدا كلاسيكيّا من الكتاب المقدّس، وتقوم بقراءته بطريقة فظّة للغاية، حيث، للمرّة الأولى، لم يتمّ التّركيز على هولوفرنيس ولكن على حركات جوديت وخادمتها. فنرى عزمهما الثّابت على قتل هذا الرّجل. ولكنّ أرتيميزيا أعارت وجهها لجوديت ووجهَ مغتصبها تاسّي لهولوفرنيس. طبعا للّوحة دلالات أخرى أقوى. ففي هذه التّحفة الفنيّة هناك شيء من التّنفيس عن المشاعر، وهناك تعبير عن اتّحاد النّساء معا ضدّ الرّجل للاستيلاء على السّلطة. يمكن للمرء أن يقرأ فيها تقريبا قتل البطريركيّة ...

في فرنسا أيضا، ستشتهر نساء رسّامات عديدات. لدرجة أنّه في القرن الثّامن عشر، أصبحت الأكاديميّة الملكيّة للرّسم والنّحت تشعر بالقلق. ذلك أنّ عدد الرّاغبات في الانضمام إلى صفوفها كان آخذا في الازدياد. لذلك تقرّر وضع نظام ... المحاصصة. للحدّ من

عدد النّساء، وُضعت حصّة إلزاميّة للرّجال، لا يمكن أن تكون أقلّ من ذلك. لم تكن النّسويات والمناهضون للعنصريّة هم من اخترع نظام المحاصصة هذا. وإنّما المتحيّزون جنسيّا في النّظام القديم. لذلك، فإنّه من العدل أن يتمّ الآن استخدام الأداة الّتي تمّ استخدامها في السّابق لاستبعاد النّساء في سبيل إشراكهنّ.

10

نساء عالمات
في بريق عصر التّنوير

من جديد، أجلس الآن على مكتب، ولكن هذه المرّة في الصّفّ الثّالث. تجري الدّروس في مبان مسبقة الصُّنع لا بدّ وأنّ قطعة من سقفها ستسقط ذات يوم خلال درس رياضيّات لا نهاية له – وسوف يقال إنّ السّقف قد انتحر من شدّة الملل. سوف يجرّ لوحُ الكرتون أثناء سقوطه جزءا من مستعمرة الصّراصير الّتي كانت تعيش فوق رؤوسنا. وسوف تنتشر الحشرات المذعورة في جميع أنحاء القاعة في سرب مقرف إلى حدّ ما، على صرخات التّلامذة المروّعة.

مدرّستنا للّغة الفرنسيّة تدعى السّيّدة دافين Mme Davin. كانت متقدّمة في السّنّ وتبهر الفتيات في الفصل، وخصوصا أنا. أوّلا، لأنّ لديها شعرا أشقر يصل إلى حدّ أردافها. فكانت تبدو وكأنّها راقصة باليه سابقة، أنيقة للغاية وهيفاء، وفي نفس الوقت تتحدّث إلينا عن الجنس باستفاضة. كلّ شيء فيها كان يرجّنا. ولكن قبل كل شيء، لأنّها كانت تتمتّع بذكاء هائل وقد حقّقت إنجازا: ألا وهو شدّ انتباه الفصل إلى درسها. في ذلك اليوم، درّستنا مقتطفات

من كتاب النّساء العالِمات Les Femmes savantes. كنّا نقرأ بصوت عالٍ بينما نؤدّي دور الشّخصيات قليلا ونضحك، ونفهم على الفور مواطن التّشديد في الخطاب من أجل إبراز السّخرية. كان كلّ شيء يسير على ما يرام. بعد ذلك، وبشكل عرضيّ، سألتنا السّيّدة دافين عمّا كان يجعل هؤلاء البطلات مثيرات للسّخرية حقّا. ولأنّنا كنّا واثقات من أنفسنا، تطايرت الإجابات من أفواهنا دفعة واحدة.

تركتنا نتحدّث قبل أن تختتم هي: «إذًا هؤلاء النّساء سخيفات لأنّهنّ يرغبن في التّعلّم؟ لأنّهنّ يردن أن يفهمن الملاحظات العلميّة؟ لأنّهنّ يتطلّعن إلى شيء آخر غير رعاية أزواجهنّ؟».

خيّم صمت رهيب على القاعة. فقد كان وقع كلماتها مثل وقع حمّام بارد.

شعرت بأنّها كانت تدوس على اتّفاق غير معلن وهو أنّ المؤلّفين العظماء يجب أن يكونوا عباقرة وعلى حقّ في كلّ شيء. وها أنّ مدرّستي اللّغة الفرنسيّة تهاجم موليير. لقد شرحت لنا كيف كتب بعضَ المسرحيّات للتّشهير بإساءة استخدام الرّجال للسّلطة (مدرسة النّساء L'École des femmes) ومسرحيّات أخرى للاستهزاء بالنّساء اللّواتي كنّ يسعين للتّخلّي عن دورهن التّقليديّ. في درس واحد فقط، جعلتني السّيدة دافين أقفز قفزة عملاقة في قراءة النّصوص.

لسوء الحظّ، لم أدرس على يديها عصر التّنوير. بعد عصر النّهضة، فإنّ العصر المجيد الآخر هو الّذي تقوم المدْرسة بإبرازه. العصر

الّذي كانت فيه أنوار العقل والمعرفة من شأنها إنارة العالم. ولكن عندما يتمّ اختيار التّركيز على النّساء، تكون الصّورة أقلّ... إضاءة. إنّه لأمر رائع أن نرى كيف تغيّر هذه المقاربة بشكل عميق وجه المشهد. يجب القول إنّه في الفصل المتعلّق بالنّساء، لم يكن مؤلّفونا العظماء ينقصهم الإلهام. إليكم هذه المنتخبات القصيرة:

- روسّو في إميل : Émile يجب أن يكون تعليم النّساء برمّته متّعلّقا بالرّجال. فإرضاؤهم، وخدمتُهم، وجعلهم يحبّونهنّ ويبجّلنهنّ، وتربيتهم صغارا، والاعتناء بهم كبارا، ونصحهم، ومواساتهم، وجعلُ حياتهم مريحة وحلوة، هي واجبات المرأة في كلّ الأزمنة، وما يجب تعليمه إيّاها منذ نعومة أظفارهنّ.

- فولتير: «لأنّ النّساء أضعف منّا جسدا، ولديهنّ مهارة أكبر في أصابعهنّ (فهي أكثر ليونة بكثير من أصابعنا)، ولأنّهنّ غير قادرات إلاّ نادرا على الاضطلاع بالأعمال الشّاقّة مثل البناء والنّجارة والمعادن والحرث، ولأنّهنّ مكلّفات بالضّرورة بالوظائف الأصغر والأخفّ وزنا داخل المنزل وبرعاية الأطفال خصوصا، ولأنّهنّ يعشن حياة أكثر خمولا، فإنّه ينبغي أن تتّسم شخصيّتهنّ برقّة أكبر من العنصر الذّكوريّ». القاموس الفلسفيّ، مقال ""Femme، 1764.

- لابروريار La Bruyère (قبل ذلك بفترة قصيرة بالطّبع)، في كتابه Caractères:

«لماذا يُستهدَفُ الرّجالُ بسبب أنّ النّساء لسن عالمات؟ بأيّة قوانين، وبأيّ مراسيم، وبأيّ نصوص، تمّ منعهنّ من فتح أعينهنّ ومن القراءة، ومن تذكّر ما قرأنه، وإدراجه سواء في محادثتهنّ أو أعمالهنّ؟ ألم يرسّمن أنفسَهنّ، على العكس من ذلك، في هذه العادة المتمثّلة في عدم معرفة أيّ شيء، إمّا بسبب ضعف تكوينهنّ، أو لكسل في عقولهنّ، أو لاهتمامهنّ بجمالهنّ، أو بسبب نوع من الاستخفاف الّذي يمنعهنّ من متابعة دراسة طويلة، أو بسبب الموهبة والعبقريّة اللّتين يمتلكنها فقط للأعمال اليدويّة، أو بسبب تشتّت انتباههنّ النّاجم عن جزئيّات العمل المنزليّ، أو من جرّاء ابتعاد طبيعيّ عن الأمور المؤلمة والخطيرة، أو لفضولٍ مختلفٍ تماما عن ذلك الّذي يرضي العقل، أو لرغبة أخرى كلّيّا غير الرّغبة في ممارسة ذاكرتهنّ؟».

يمكنني أن أملأ صفحات وصفحات بملاحظاتهم المتحيّزة جنسانيّا. ولكن كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ كيف يمكننا المطالبة بأشكال من المساواة بين الرّجال، والتّشكيك في سلطة الملك والسّيّد، دون أن نطبّق هذه الانقلابات على وضعيّة المرأة؟

كان التّفكير في النّساء وفي الاختلافات الجوهريّة بينهنّ والرّجال، الّذي كان بصدد التّطوّر آنذاك، أمرا جديدا. من الصّعب تحديد الوقت الدّقيق لظهور هذا التّفكير الجديد، ولكن دعونا نقل إنّ الأمور قد بدأت تتحرّك انطلاقا من القرن السّابع عشر. لقد كان زمنَ الدّخول في عصر علم الأحياء. درس توماس دبليو لاكوير

Thomas W. Laqueur، مؤرّخ الطبّ والجنسانيّة، هذا التّحوّل النّموذجيّ في كتابه «مصنع الجنس La Fabrique du sexe. حتّى ذلك الحين، كان يُنظر إلى المرأة، كما رأينا آنفا، على أنّها رجل منقوص. وكان يُعتقَد أنّ كلّ عضو من أعضائها هو مجرّد نسخة متدهورة من أعضاء الرّجال، من ذلك على سبيل المثال أنّ بظرها كان عبارة عن قضيب مجهَض. وكانت هذه العيوب تُعزَى إلى مسألة متعلّقة بدرجة الحرارة. ولأنّهم كانوا مقتنعين بأنّ جسد المرأة أكثر برودة من جسد الرّجل (وأكثر رطوبة)، فإنّهم تصوّروا أنّ خصيتيها لم تبرزا إلى الأسفل من جرّاء نقص في الحرارة. كان هناك عيب ميكانيكيّ هو الّذي يصنع المرأة. هذا التّصوّر كان ينطوي أيضا على قصص عن تغييرات مفاجئة في الجنس كان النّاس مغرمين بها. فالفتاة الّتي قفزت بعيدا جدّا أصبحت صبيّا لأنّ القفزة أدّت أخيرًا إلى بروز قضيبها وخصيتيها. منذ العصور القديمة وحتّى عصر النّهضة، كان النّاس يحبّون هذا النّوع من القصص ويصدّقونه.

ولكنّ معرفة الأطبّاء القدامى أصبحت في النّهاية موضع تساؤل، ويعود الفضل في ذلك بشكل خاصّ إلى تطوّر علم التّشريح ونجاح التّشريح.

بدأ حينئذ التّفكير في أنّ هذه الأجساد الذّكريّة والأنثويّة لا علاقة لها ببعضها البعض في نهاية المطاف. فقد قرّر العلماء أنّ الرّجل والمرأة نوعان مختلفان. وهذا ما يسمّى بالمَثنويّة الجنسيّة binarisme sexuel – أي فصل الجنسين إلى فئتين. بصورة إجماليّة، تمّ الانتقال

من نظريّة تحتوي على قالب واحد يحوي الجميع، ولكن في بعض الأحيان يفشل المنتَج فينتج عنه امرأة، إلى فكرة أنّ هناك قالبين مختلفين جذريّا، أحدهما يُنتج النّساء والآخر يُنتج الرّجال.

كان من الممكن أن يكون الاعتراف بخصوصيّة بعض أعضاء المرأة في خدمة المساواة، ولكن لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق. فقد ظلّ الرّجل أفضل، ولكنّ الطّبيعة هي من صار يقول ذلك. فالرّجل أطول، وأقوى، وأكثر ذكاء، كما يتّضح من جماجمهم الأكبر حجما من جماجم النّساء. إنّ المرأة نوع من الأنواع الدّنيا. لا فائدة إذًا من محاولة تعليمهنّ، لأنّ الطّبيعة قرّرت أنّهنّ لم يُخلَقن لهذا.

فجأة، صار يُنظر إلى كلّ شيء على الإطلاق من خلال مصفاة التّفكير في نوع الجنس على أنّه نوع بيولوجيّ. (قلت «التّفكير» لأنّه تمّ اختراع مورفولوجيا نموذجيّة للرّجل، ولكن في الواقع هناك رجال قصار القامة ونساء طويلات القامة.) لقد تمّ وضع عدد معيّن من الأفكار المسبقة الّتي مازالت تعاند الزّمن.

هذا الفكر ينظر باحتقار أيضا إلى العلاقات الجنسيّة المثليّة. كانت هذه العلاقات مقبولة، حتّى وإن كان الرّجل الحقيقيّ بالطّبع هو الشّخص الّذي يقوم بالإيلاج. ولكن بمجرّد أن يتمّ القبول برؤية للجنس مقسّما إلى جزأين متكاملين، فإنّ العلاقة الجنسيّة ينبغي ألاّ تكون إلاّ مع المرأة، وإلاّ فهي علاقة غير طبيعيّة. لقد تمّ الحسم أيضا في مسألة الانسيابيّة. فلا يمكن أن يكون لديك جسد امرأة وقلب رجل معًا. ولا يمكن للمرء أن يعيش تنويعات في المذكّر والمؤنث

المتفاوتة درجتُهما كثيرا أو قليلا. فالواحد منّا يولد وهو ذكر أو أنثى. هو هذا أو ذاك. لست كلبا وقطّا في نفس الوقت - اللّهمّ إذا كنت مخلوقا وحشيّا، خطأً في الطّبيعة وجب تصحيحه. في هذا المنطق، سيأخذ الطّب في اعتباره بشكل متزايد أنّه يجب «معالجة» الأجساد الّتي تمتزج فيها الخصائص الذّكوريّة والأنثويّة. سيتعرّض الأشخاص ثنائيو الجنس intersexes لأشكال من العنف الطّبيّ الّذي يستمرّ حتّى اليوم.

إنّنا إزاء نقطة أساسيّة حقًا. أريد أن أتحدّث عن نقطة تحوّل، ولكنّها لم تحدث في تاريخ محدّد. فقد استغرق الأمر وقتا طويلا حتّى تترسّخ هذه التّصوّرات الجديدة وتتطوّر. بل إنّ المساعي مازالت جارية لإثرائها.

فعلى سبيل المثال، سيتمّ إخبارنا بأنّ لدى النّساء عاهة بيولوجيّة في إحساسهنّ بالاتّجاه، وأنّ هناك تفسيرا لذلك: فالرّجال الذين كانوا بالطّبع صيّادين خلال آلاف السّنين من عصور ما قبل التّاريخ، يمتلكون أدمغة تكيّفت للتّنقّل بشكل جيّد للغاية في الفضاء. في حين أنّ النّساء، اللاّتي مكثن بالقرب من البيت، لم يطورّن هذه القوّة العقليّة.

أنتم تعرفون الآن أنّ هذا خطأ جسيم. (بالإضافة إلى ذلك، حتّى لو تخيّلنا أنّ معظم النّساء لم يمارسن الصّيد، فهذا لا يعني أنّ القطف لم يكن مفيدا لهنّ في تحديد مكانهنّ في الفضاء...) ولكنّنا مازلنا نقرأ هذه النّظريّة المجنونة في كلّ مكان تقريبا.

إنّ ما تمّ إذًا في تلك الحقبة هو بداية البَيْلَجَةِ biologisation (أي إضفاء الطّابع البيولوجيّ) باسم مبادئ السّيّدة الطّبيعة.

من المثير للاهتمام أن نلاحظ أنّ هذه الأَقْلَمَةَ naturalisationلن تؤدّي فقط إلى نزع الأهليّة عن النّساء، بل ستكون أيضا أرضيّة خصبة للعنصريّة. حتّى ذلك الحين، لم يكن مفهوم الوراثة ذاته موجودا. فقد كان يُعتقَد أنّ لون الطّفل يمكن أن يتأثّر بما كانت تنظر إليه أمّه أثناء الحمل، أو بالطّعام أو بالمناخ. كان من السّهل تخيّل أنّ زوجين أبيضين مقيمين في إفريقيا يمكن أن ينجبا طفلا أسود. بالطّبع، كانت هناك بالفعل مفاهيم للعرق، كما هو الحال فيما يتعلّق بالنّبلاء، الّذين لديهم دم «أزرق»، ولكن كان يُعتقد، على غرار اعتقاد الإغريق بخصوص الرّجال والنّساء، أنّه يمكن للمرء أن يصبح نبيلا من خلال التّعليم الّذي يتلقّاه. في القرن الثّامن عشر، بدأ ترتيب العالم بشكل هرميّ، مع شغف بالتّصنيفات.

من الآن فصاعدا، ستكون الطّبيعة هي الّتي أفردت لك مكانة، ولذلك من المستحيل عليك محاولة تغييرها.

كانت العبودية موجودة بالفعل لفترة طويلة - لقد رأيناها منذ العصر الحجريّ الحديث - لكنّها لم تكن مرتبطة بالعرق. بالنّسبة إلى اليونانيين، على سبيل المثال، المستفيدين الكبار من السّخرة، كانت الحرّيّة مثل يد أو ذراع بالإمكان فقدانها، إنّها من الأمور الّتي تحدث في الحياة. لقد تمّ أسرنا، وحرماننا من حرّيتنا. وبإمكاننا أن نستعيدها أيضا في ظروف معيّنة.

مع تطوّر صناعة السُّكّر بشكل خاصّ[25]، أعاد الأوروبّيون اختراع العبوديّة. لقد اختلقوا لها أسسا علميّة وبيولوجيّة ليتمكّنوا من تبريرها. كانت العبوديّة هي الّتي أدّت إلى العنصريّة، ولم تكن العنصريّة هي الّتي أدّت إلى العبوديّة، على عكس ما كنت أعتقده عندما كنت صغيرة. كنت مقتنعة لسنوات أنّ عنصريّة البشر هي الّتي قادتهم إلى هذه الممارسات الّتي تجرّد الإنسان من إنسانيّته، وهي فكرة خاطئة من بين أفكار خاطئة أخرى[26].

كانت العنصريّة عمليّة للغاية. فقد كانت تبيح أخلاقيّا معاملة هؤلاء النّاس، حتّى من تحوّل منهم إلى المسيحيّة، كما تُعامَل الدّوابّ. لقد جعلت العنصريّةُ العبوديّةَ والإيمان المسيحيَّ متوافقين، فيا لها من أعجوبة.

كوليت غييومين Colette Guillaumin هي واحدة من الباحثات الفرنسيات الأوليات اللّواتي درسن آليّة هذا الفكر العنصريّ. فهي ترى أنّه يعمل على حلّ التّوتّر بين المُثل الإنسانويّة humanistes وتكثيف آليات الاستغلال في زمن تطوّر الرّأسماليّة. وقد بُذِلت محاولاتٌ لتبرير استغلال بشر آخرين من خلال الطّبيعة.

---

(25)- نقطة تمّ تطويرها في كتاب Voracisme، بقلم نيكولا كايسر بريل Nicolas Kayser-Bril، نوريتورفو، 2021.

(26) انظر برنامج Un monde en nègre et blanc الّذي لا غنى عنه، بقلم أوريليا ميشيل Aurélia Michel، بوان، "Essais"، 2020.

توضّح الباحثة أنّ العلاقة الحديثة للهيمنة تقوم على العلاقة بين «مُؤَقْلِمٍ» و«مُؤَقْلَمٍ»، مع اعتبار الكائن المهيمِن دائما هو الشّخص الذي يبدو منفلتا من القيود البيولوجيّة.

هل تعتقدون أنّنا ابتعدنا عن النّساء؟ كلاّ، ليس كثيرا. إنّها نفس الحركة الفكريّة التي تقود إلى تنظيم العالم داخل فئات وتغلق على النّساء داخل صندوق، وعلى الرّجال السُّودِ في صندوق ثان وعلى النّساء السّوداوات في صندوق ثالث. ودائما ما يكون الرّجل الأوروبّيّ الأبيض على قمّة الهرم. سواء كنتَ امرأة، أو أسودَ، أو كنت كليهما، فأنت سجينٌ جسدٍ يقيّدك، في حين أنّ الرّجل الأبيض هو رجل حرّ، لأنّه دائما يتجاوز جسده.

هذه الرّؤية الجديدة للعالم المنظَّمة وفق هرم ينبغي أن يكون «طبيعيّا»، بما أنّه بيولوجيّ، نجدها أيضا في العلاقة مع الحيوانات. إنّها الكائنات الأكثر تقيّدا بأجسادها. فالحيوانيّة تمثّل كلّ ما يجب رفضه – والحال أنّه في ثقافات أخرى، لا سيما الطوطميّة أو الشّامانيّة، ترتبط الحيوانات ارتباطا وثيقا بالرّوحانيّة. علاوة على ذلك، كانت الحيوانات في فرنسا العصور الوسطى تُحاكَمُ، ممّا يعني أنّها كانت توضع في مكانة قريبة من مكانتنا. فكان عليها أن تتحمّل مسؤوليّة أفعالها الأكثر خطورة على غرار أيّ فرد آخر. ومن الأمثلة الشّهيرة على ذلك محاكمة عام 1386 في نورماندي، في فاليز. فبما أنّ الخنازير كانت تتنقل بحرّيّة في القرى (إذ كانت تُستخدَم بشكل خاصّ بمثابة جامعة قمامة)، كانت تقع حوادث متكرّرة. وهكذا،

أوقعت خنزيرةٌ مولودًا جديدًا على الأرض وبدأت في التهام ذراعيه ووجهه. ألبسوها ملابس نسائيّة وجرت محاكمتها وحُكم عليها بالإعدام شنقا. في يوم النّطق بالحكم، أُوصِيَ السّكّان بالحضور برفقة خنازيرهم كي يشاهد هؤلاء عذابها ويعتبروا.

كما كان بإمكان الكنيسة الكاثوليكيّة أن تفرض الحرم الكنسيّ على حيوانات.

مع الفيلسوف ديكارت، الّذي اعتبر الحيوانات شبيهة بالآلات، وبعد ذلك مع عصر التّنوير، أصبح كلّ هذا غير وارد[27].

باختصار، إنّه نفس نظام الهيمنة الّذي أخذ يتمظهر آنذاك وسوف يتولّى بناء مجتمعاتنا، نظام هيمنة واستغلال يُمارسان على النّساء، وعلى شعوب معيّنة، وعلى الحيوانات، وبشكل أعمّ على الموارد الطّبيعيّة، ويتمّ طلاء كلّ هذا بورنيش علميّ. إذا كان النّظام الأبويّ موجودا بالفعل منذ فترة طويلة، فإنّه قد شهد حينها شكلا من أشكال الطّفرة.

هذا الاستخدام للمعرفة العلميّة لأغراض قمعيّة يفسّر جزئيّا عدم ثقة بعض التّيارات النّسويّة حاليّا بالعلم والعقلانيّة. فالعلوم العقلانيّة متّهَمَة بتبرير هيمنة الرّجال على النّساء - فقد كانت أدواتهم - وفي نفس الوقت بتدمير ثقافة أنثويّة شعبيّة بأكملها،

(27) - في الوقت الحاضر، تُطرَح المسألة مرّة أخرى في شكل جديد. وهكذا، اعترفت زيلندا الجديدة بنهر وانغانوي بوصفه كيانا حيّا، يملك شخصيّة اعتباريّة، وهو ما يسمح باتخاذ إجراءات قانونيّة باسمه للدّفاع عن سلامته. يكشف هذا عن علاقة مختلفة ببيئتنا.

وطقوس وثنيّة ومعارفَ كانت تنتقل من جيل إلى جيل، بأن تمّ تشويه سمعتها من قبل رجال العلم وحتّى محوها من ذاكرتنا.

ومع ذلك، لا تكمن المشكلة في العلم أو العقلانيّة، بل في استخدامهما السّياسيّ. هناك ما هو أسوأ من ذلك، فهذه الحجج «العلميّة» لم تكن كذلك، بل كانت سخيفة. ولم يكن حتّى عِلما صحيحا، بل كان علما مزيَّفا. كنتُ أنا نفسي، وبدرجة غير قابلة للإصلاح، من أولئك الّذين يجدون في الاكتشافات العلميّة أشياء رائعة وسحريّة. فالنّظر إلى السّماء ليلا ومعرفة أنّ تلك النّجوم هي في الواقع شموس، سوف يظلّ يثير إعجابي بلا شكّ إلى آخر لحظة في حياتي. أنا أرفض أن أتخلّى عن المنطق والعقل العلميين لصالح الرّجال، كما لو كان الأمر يتعلّق بثقافة ذكوريّة وقمعيّة من الأساس، وبأنّ ثقافة أنثويّة لا يمكن إلاّ أن تكون غير عقلانيّة وحسّيّة. إنّ الأمر متروك لنا للاستثمار في هذه المجالات.

لكن دعونا نَعُدْ إلى ذلك الانتقال من نموذج أحاديّ الجنس إلى نموذج قائم على جنسين(28)4. يصرّ توماس دبليو لاكوير Thomas W. Laqueur على جانب آخر. إنّه الاكتشاف الّذي حصل في نفس الحقبة المتمثّل في أنّ المرأة، على عكس ما تذهب إليه المعتقدات القديمة، لا تحتاج إلى هزّة الجماع لتصبح حاملا. هذا ما سيغيّر بشكل كبير وجهة النّظر المتعلّقة بالجنسانيّة الأنثويّة. لقد ذهبت بلا رجعة

(28)- يشير الباحث توماس دبليو لاكوير Thomas W. Laqueur إلى أنهما في الواقع كانا دائما متعايشين، ولكنّ أحدهما يأخذ الأسبقيّة على الآخر حسب الحقب الزّمنيّة. نحن الآن نعيش في زمن المثنويّة الجنسيّة.

فكرة الغِيلان العطشى. فطالما أنّه بإمكاننا فصل النّشاط الجنسيّ للمرأة عن الإنجاب، فستصبح النّساء مريم العذراء من الدّرجة الثّانية، ولا يجب عليهنّ أن يستمتعن خلال الجماع.

مع المثنويّة الجنسيّة جاء أخيرا فخّ آخر: إنّه التّملّق. حتّى ذلك الحين، كنّا مجرّد رجال منقوصين. ولكن من الآن فصاعدا صار بإمكاننا بلوغ الكمال، الكمال الأنثويّ. لم تعد المؤنّث مستبعَدة من مجال المثل الأعلى. يمكنها أن تطمح إليه وسيتمّ تقديم نموذج لذلك لتقتدي به: إنّها القدّيسة مريم العذراء. يجب أن نكون لطيفات، هادئات، رصينات، خجولات، مهتمّات بالآخرين، فهذا هو قَدَرَنا البيولوجيّ. إنّ هذه الصّفات منقوشة في أجسادنا (مثلما يشير إلى ذلك فولتير عند حديثه عن ليونة أصابع النّساء الّتي يوظّفنها للأعمال المنزليّة). لا جدوى من محاولة الهروب من شرطنا. لقد صُنعنا، جسديّا، من أجل هذا. من أجل الوجبات، والخياطة، والأطفال. إنّ الرّحم يهيّئ المرأةَ للبقاء في المنزل.

في ظلّ هذه الظّروف، لم يكن لدى فلاسفة عصر التّنوير شعور بأنّهم يمارسون تمييزا ضدّ نصف البشريّة. لقد اكتفوا باحترام الطّبيعة، وكان ذلك يتوافق مع أفكارهم السّياسيّة.

11

ثائرات مقموعات

يسمح إرجاعُ خصال المرأة وعيوبِها بفهم سبب استبعادهنّ من الحقوق الّتي كانت تطالب بها الثّائرات.

ومع ذلك، فقد لعبن منذ البداية دورا مهمّا في الثّورة الفرنسيّة. نظرا لأنّهنّ كنّ المسؤولات عن التّسوق والوجبات، فقد كنّ يتابعن سعر الخبز يوميّا، وكنّ حاضرات بقوّة فيما يسمّى بأعمال شغب «المعيشة». لقد كنّ إذن مشاغبات قبل الثّورة. وشاركن في جميع الأحداث. كثيرا ما يوصف يوما الخامس والسّادس من أكتوبر من عام 1789 بأنّهما لحظة فولكلوريّة صغيرة. كان الخامس من أكتوبر هو ذاك اليوم الّذي انتفضت فيه النّساء، اللّواتي ذهبن إلى فرساي لاصطحاب العائلة المالكة والعودة بها إلى باريس. ولكن بما أنّها كانت حركة نسائيّة، فقد تمّ التّقليل من أهمّيتها - من الخيال الجماعي، امّحى يوم 6 أكتوبر تماما لصالح يوم 14 يوليو. ومع ذلك، كتب المؤرّخ جيل ميشلاي Jules Michelet: «صنع الرّجال تاريخ يوم 14 يوليو، وصنعت النّساء تاريخ يوم 6 أكتوبر. استولى الرّجال على الباستيل الملكيّ، وأخذت النّساءُ العائلةَ المالكةَ نفسَها، ووضعنها في قبضة باريس، أي في قبضة الثّورة». حسنا، ربّما بالغ في

الأمر قليلا، لكنّ الحدث لم يكن تافها، كان نقطة تحوّل حقيقيّة، تماما مثل يوم 14 جويلية.

عندما يُتَحدَّث عن نساء الثّورة، عادة ما يُذكَرُ اسم واحد فقط لا غير: إنّها أوليمب دي غوغ Olympe de Gouges. وفي بعض الأحيان، يُستحضَر اسم تيروني دي ميريكور Théroigne de Méricourt، ولكن بشكل أساسيّ لأنّها جُنّت في النّهاية وليس بسبب قوّة خطاباتها السّياسيّة. (أرادت تكوين كتائبَ نسائيّة لمحاربة أعداء الثّورة، ولهذا، قالت هذه العبارة الجميلة للغاية: «نحن أيضا نريد أن نكون جديرات بتاج مدنيّ، ونفوز بشرف الموت من أجل حرّيّة ربّما تكون عزيزة علينا أكثر ممّا هي عزيزة عليهم.»)

ولكن كانت هناك أيضا جميع النّساء الأخريات اللاّئي نُسيت أسماؤهنّ. أولئك النّساء اللّواتي قاتلن وكتبن وتصرّفن باسم الثّورة. دعونا نذكر أسماء بعضهنّ: كلير لاكومClaire Lacombe، وبولين ليون Pauline Léon، اللّتان أسّستا معًا جمعيّة المواطنات الجمهوريات الثّوريات، وكان ناديا للنّقاش السّياسيّ لم يكن يُسمح بالدّخول إليه إلاّ للنّساء؛ ولويز دي كيراليو Louise de Kéralio، الّتي أنشأت مجلّة Journal d'Etat et du citoyen، وكان شعارها هو «إمّا العيش بِحُرِّيَّةٍ أو الموت Vivre libre ou Mourir»، وصديقتها الصّحفية إيتا بالم Etta Palm؛ وكذلك آن فيليسيتي كولومب Anne Félicité Colombe، الّتي كانت طابعةَ صحيفة Marat.

هؤلاء النّساء اللّواتي شعرن بأنّهن جزء من الثّورة، كنّ ينشدن المساواة. كتبت إيتا بالم في خطاب لها بعنوان «رسالة المواطنات الفرنسيات إلى الجمعيّة الوطنيّة»: «يا أيّها المشرّعون الموقّرون، هل ستضعون الأغلال في أيدي من ساعدنكم بكلّ همّة على رفع مجد الوطن؟ هل ستستعبدون أولئك اللّواتي ساهمن بحماس في تحريركم؟».

لذلك، فإنّ أوليمب دي غوغ لم تكن وحدها. كان معها عدد من النّساء يكتبن للدّفاع عن مطالبهنّ، في التّجمّعات، وفي الصّحف، وفي الكتيّبات، وفي الرّسائل المفتوحة، وعلى جدران المدينة، للمطالبة بحقوق محدّدة.

كنّ يطالبن في المقام الأوّل، وقبل حقّ التّصويت، بالحقّ في التَّسلُّح. إنّه الجانب الآخر من المواطنة. فالمواطن هو من يصوّت ويحمل السّلاح. بل إنّ الأسلحة أكثر أهمّيّة. إنّه ميثاق الدّم، أن تكون مستعدّا لسفك الدّماء وإراقة دمك في سبيل الدّفاع عن الجمهوريّة.

ثانيا، لم تعد النّساء يقبلن بأن يتمّ استبعادهنّ من الميراث لصالح إخوانهنّ وخاصة الأخ الأكبر. كما كنّ يطالبن بالاعتراف بحقوق الأطفال المولودين خارج رباط الزّواج. وكنّ يردن أن يصرن قادرات على الزّواج دون الموافقة الأبوية. كنّ يطالبن أيضا بتعليم أفضل للفتيات. وبالمساواة بين الزّوجين وفتح الوظائف العامّة للنّساء (وهي الّتي أغلقها رجالُ الدّين في وجوههنّ). كما كنّ يردن

حضور المرأة في القضاء والجيش والمناصب الهامّة في الكنيسة. باختصار، لقد كنّ ينشدن المساواة.

بعد إلغاء الامتيازات في ليلة الرّابع من شهر أوت عام 1789، طالبن بإلغاء الامتيازات الذّكوريّة.

لم يتحقّق طلبهنّ هذا. صحيح أنّه صار بإمكانهنّ أخيرا أن يرثن، ومن حقّهنّ الحصول على الطّلاق، ولكنّهن كنّ مغيَّبات في الدّستور. كان الدّستور يتحدّث عن الرّجل فقط، عن «هو»، عن المواطن، عن الفرنسيّ. يقال أحيانا إنّ بداية الثّورة كانت إيجابيّة بالنّسبة إليهنّ. وهذا يعني أنّه لم تكن هناك رغبة في حصول النّساء على المزيد من الحقوق. فتمّ التّأكيد على حرّيّتهنّ في الزّواج وفي الطّلاق، ولكنّ هذه الحرّيّة كانت مناسبة جدًّا للرّجال أيضا، الّذين سيتمكّنون من التّخلّص من زوجاتهم. كان الخاسر هو الأب والرّابح هو الابن. لم يعد الأب قادرا على فعل ما يريد بميراثه، ولم يعد قادرا على تزويج أطفاله قسرا، ولم يعد بإمكانه حبسهم في السّجن أو في الدّير. سيتولّى الابن السّلطة بتحرير نفسه من والده.

وفقًا للمؤرّخة آن فيرجيس Anne Verjus، فإنّه تمّ الانتقال من المنظومة الأبويّة patriarchisme إلى المنظومة الزوجية conjugalisme. كانت السّلطة الأسريّة، أو المثل الأعلى الزّوجيّ، جزءا من إيديولوجيا الثّائرات اللّواتي كنّ يعتبرن أنّ الزّوجين يحتلّان مكانة أكبر من السّلالة. فأصبحت الوحدة الزّوجية حجر الزّاوية

لنظام سياسيّ عادل ومستقرّ. وقد استحدث النّواب بموجب قانون 3 برومير السّنة السّادسة (24 أكتوبر 1797) عيدَ الأزواج.

لقد وُلد نموذج الأسرة البرجوازيّة. يجب على الأسرة، وبالتّالي الزّوجين، احترامُ نظام الطّبيعة لضمان استقرار النّظام الاجتماعيّ والسّياسيّ. لخّص النّائب غيروديه Guiraudet ما كانت عليه الأمور في عام 1792 على النّحو التّالي: «يجب أن يكون في الأسرة مِلك لئلاّ يكون لديك أيّ ملِك في المجتمع».

بالنّسبة إلى آن فيرجيس Anne Verjus، يجب أن يكون مفهوما أنّ إقصاء المرأة من المواطَنة مرتبط بهذه السّلطة الأسريّة. (وسيظل الحال على ما كان عليه في القرن التّاسع عشر). لا تُعتبَر النّساء، في أذهان المشرّعين، مستبعَدات، لأنّ ربّ الأسرة يمثّل وحدة الأسرة الّتي من المفترض أن يكون لأفرادها نفس المصالح. بعبارة أخرى، هناك ناخب واحد لكلّ أسرة، وهذا لا يمثّل مشكلة كبيرة بما أنّ الأسرة هي قلب واحد. وهذا النّاخب، ويا للمصادفة، هو الزّوج. إنّ هذه السّلطة الأسريّة الزّوجيّة تفسّر سبب عدم تمتّع النّساء بالحقّ في التّصويت ولكن مع ذلك كان يُطلَق عليهنّ اسم «المواطنات» على أيّ حال.

يمكن للمرأة إذًا أن تتزوّج بحرّيّة وتطلّق وترث. هذا أمر جيّد، ومهمّ. ولكنّه غير كاف.

في الحقيقة، سواء أكانت المسألة تتعلّق بالسّلطة الأسريّة أم لا، فإنّ الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان والمواطن لعام 1789 يجب أن

يُقرَأ بصيغة المذكّر. فهو يستثني النّساء من العالميّة المذكورة أعلاه. وعلى حدّ تعبير المؤرّخة دومينيك غودينو Dominique Godineau، «هنّ مواطنات بلا مواطَنة».

بل لقد حدثت ظاهرة خبيثة حقّا. فالأرامل المنتميات إلى بيئة ميسورة، اللّواتي كانت لديهنّ ممتلكات، كنّ يتمتّعن بسلطة سياسيّة: فقد كنّ يشاركن في المجالس المحلّيّة الّتي كان يمكنهنّ التّصويت فيها. وفجأة، تمّ حرمانهنّ من هذا الحقّ. فبما أنّه لم تعد الطّبقة الاجتماعيّة بل جنسُك هو ما يحدّد حقوقك، فقد فقدت النّساء، جميع النّساء، حقوقهن. إنّهنّ متساويات بالطّبع، ولكن فيما بينهنّ فقط. لقد كان انجرافا نحو القاع.

هذا ما دفع الفيلسوفة جينيفييف فراس Geneviève Fraisse إلى تطوير مفهوم «الدّيمقراطية الإقصائيّة». فهي ترى أنّ إقصاء النّساء لم يكن مجرّد عدم اكتمال للعمليّة الدّيمقراطيّة، بل يجب فهمه على أنّه كان قرارا مقصودا.

قبل استبعاد النّساء من المواطَنة، تمّ حتّى التّفكير في خلق تمييز بين المواطنين السّلبيين والمواطنين الفاعلين، وهو تمييز كان ينبغي أن تكون فيه النّساء آليّا مواطنات سلبيّات. ولكنّ النّوّاب سرعان ما تخلّوا عن هذا التّفصيل الدّقيق. فمن الواضح الّذي لا يحتاج توضيحا أنّ المواطن هو رجل فرنسيّ. كان هناك منطق معيّن: ففي

نفس الوقت الّذي يكتسب فيه كلّ الرّجال حقوقهم المواطنيّة، يتمّ استبعاد جميع النّساء منها[29].

الأسوأ من ذلك هو أنّ بعض النّساء عانين من إغلاق الأديرة. لقد كان لإلغاء النّذور الرّهبانيّة وتشتيت المؤسّسات الدّينيّة عواقب وخيمة على آلاف الرّاهبات اللّواتي وجدن أنفسهنّ في الشّارع، وعلى الفتيات الصّغيرات اللاّئي كنّ يكفلن تعليمهنّ على حدّ سواء - خاصّة أنّه لم يتمّ التّخطيط لأيّ شيء فيما يتعلّق بتعليم الفتيات تعويضا للنّقص الّذي تمّ التّسبّب فيه للتّوّ. ولكن في النّهاية، لو أنّه عند اتّخاذ قرارات سياسيّة تمّ التّساؤل عن عواقبها على النّساء، لكان الحلّ معلوما ...

ومع ذلك، لم تخسر النّساء كلّ شيء. بل لقد حصلن على أجمل تكريم. فعند إعلان الجمهوريّة، تمّ صنع ماريان Marianne، وهي صورة لامرأة نصف عارية تمثّل النّظام الجديد. ألستنّ سعيدات بذلك؟

بالمناسبة، كيف نتعامل مع هذا التّناقض الظّاهر؟ فالجمهوريّة تمّ تمثيلها بامرأة والحال أنّها استُبعِدت منها؟ كلاّ، ليس هناك تناقض، كما تشرح ذلك إليان فيينو Éliane Viennot جيّدا. كان رمز السّلطة

---

(29) - ينصّ المرسوم الصّادر في 28 مارس 1792 على أنّ "الرّجال الملوّنين والزّنوج الأحرار يجب أن يتمتّعوا على غرار المستعمرين البيض بالمساواة السّياسيّة". تمّ إلغاء العبوديّة، من النّاحية النظريّة تماما، في عام 1794. وقد نوقشت هذه الموضوعات مطوّلا في الجمعيّة الوطنيّة. ولكن لم يكن هذا هو الحال مع حقوق المرأة السّياسيّة. فقد عارضته جميع الأحزاب تقريبا، عمليّا ونظريّا.

في السّابق هو الملك. ومع إلغاء الملكيّة، لم يعد ينبغي لرمز السّلطة أن يكون شخصا محدَّدا. باسم المساواة بين الرّجال، يجب منع تكريم فرد ذَكَرٍ. وهكذا، تمّ وضع حدّ للتّمثيلات الذّكوريّة للسّلطة. إذًا، إذا تمّ تمثيل المرأة فذلك على وجه التّحديد لأنّه لا سلطة للنّساء. «لا يمكن أن تكون المرأة الرّمزُ للجمهوريّة إلاّ صورة لا تحيل على أيّ مرجعيّة حيّة». إنّ السّياسيين الّذين يقولون لنا إنّ النّساء مكرّمات مبجَّلات في فرنسا، ويردّدون «انظروا، إنّ الدّليل على ذلك هو ماريان»، لا يعرفون التّاريخ. ماريان امرأة لأنّ النّساء لم يكن لديهنّ حقّ الوصول إلى السّلطة. ولو كان يحقّ لهنّ الحصول على المواطَنة، لكان من المحتمل أن يكون رمز الجمهوريّة حيوانا أو زهرة.

لقد أدّت الثورة حتّى إلى لحظات قاسية من كراهيّة النساء. تتعلّق الأولى، بالطّبع، بالمعاملة الّتي تعرّضت لها ماري أنطوانيت Marie-Antoinette (وصديقاتها، مثل أميرة لامبال Lamballe). درست آني ديبرا Annie Duprat بشكل خاصّ حملات التّشهير الّتي كانت ضحيّة لها والّتي تتمحور كثيرا حول الجنس. يجب أن يقال إنّ الزّوجين الملَكيين قد استغرقا سنوات عديدة دون أن ينجبا – زد على ذلك أنّهما عندما أنجبا أخيرا كانت فتاة. لذلك، كانت الملكة بالضّرورة متَّهمة بمضاجعة الجميع ما عدا زوجها: مع زوج أختها، مع صديقتيها أميرة لامبال ودوقة بولينياك Polignac، ووصلت القذارة إلى ذروتها في الادّعاء أثناء محاكمتها بأنّها كانت أمّا سفاحًا للمحارم.

كِدْتُ أنسى امرأة الثّورة الأخرى الّتي سمعنا بعض الحديث عنها في المدرسة: إنّها شارلوت كورداي Charlotte Corday. كنتُ في الفصل CE2 بينما كان يجري الاحتفال بالذّكرى المئويّة الثّانية لثورة 1789، ومع ذلك يطفو الآن بكلّ بوضوح على سطح ذكرياتي الغائمة مشروعُ الدّعاية الّذي رأيناه في المدرسة. لقد عُرض علينا الكثير من الوثائق، وملصق إعلان حقوق الإنسان، وتقويم جمهوريّ لم أكن بمقتضاه قد ولدت في 22 جانفي بل في 3 من شهر بلوفيس. (أعترف بأنّني مازلت أشعر بعاطفة خاصّة تجاه أسماء هذه الأشهر). حتّى شركة بانيني Panini شاركت في العمل من خلال ملصقات خاصّة. لقد تعلّم الفصل بأكمله الأناشيد الثّوريّة مثل الكارمانيول La Carmagnole، و«نعم! ستتحسّن الأمور Ah! ça ira»، وبالطّبع النشيد الوطني لامارسييز La Marseillaise. ثمّ قمنا بقصّ شارات دائريّة من أجل حفلة المدرسة. لقد تحصّلنا على العدد الكامل.

وهكذا التقينا صدفة بشارلوت كورداي Charlotte Corday، الّتي اغتالت مارا Marat في حمّامه. لو سُئِلْتُ عنها في ذلك الوقت، لكنت واجهت صعوبة في معرفة ما إذا كانت عشيقةً محبطةً انتقمت لنفسها أم مَلَكيّةً متعطّشةً للدّماء. على أيّ حال، كان هناك شيء واحد مؤكّد، هو أنّها كانت شرّيرة ومجنونة. وكنت أكرهها.

لم أفهم بتاتا أنّها كانت جريمة سياسيّة ارتكبتها مناضلة شابّة كانت تعتقد أنّ الثّورة تتعرّض لمحاولات التّخريب. لم تكن كورداي

مجنونة. تنسبُ إليها مقولةُ: «لقد قتلتُ رجلا لإنقاذ ألف». في مواجهة دعوات مارا لقتل الجميع، وفي مواجهة ثورة قمعيّة بشكل متزايد وتبتعد عن مُثُلها الإنسانيّة، كانت كورداي تأمل أن يكون لجريمة القتل الّتي ارتكبتها مفعول الصّدمة الكهربائيّة وأن تتوقّف عمليّات القتل.

إليكم ما دوَّنَته، وهي تعرف أنه سيحكم عليها بالإعدام لاحقا: «أريد أن تكون أنفاسي الأخيرة في خدمة أبناء وطني، أن يكون رأسي المحمول في باريس علامة التفاف لجميع أصدقاء القانون! أريد أن يرى الجبل المهزوز خسارته وهي تُكتَب بدمي! أريد أن أكون آخر ضحاياهم، وأن يعلن الكون المنتَقَمُ له أنّني كنت بالإنسانيّة جديرة! [...] فإذا لم أنجح في عملي، فقد أرشدتكم يا أيّها الفرنسيون إلى الطّريق، والآن أنتم تعرفون أعداءكم. ألا فانهضوا! وسيروا! واضربوا!»

بعبارة أخرى، كانت شارلوت كورداي مستعدّة للقتل والموت في سبيل أفكارها. لم تكن تختلف اختلافًا جوهريّا في شيء عن الثّوّار الآخرين. كان الفرق الرّئيسيّ هو أنّها كانت امرأة ولذلك قوبلت جريمتها السّياسيّة بالرّفض. فكان لا بدّ من أن يقال عنها إنّه قد تمّ التّلاعب بها، ولم تتصرّف من تلقاء نفسها، بكلّ برودة أعصاب، وهي في كامل مداركها العقليّة، بل كانت ضحيّة عواطفها. لأنّ المرأة إذا قتلت بدافع من قناعة سياسيّة، فهذا يعني أنّ النّساء هنّ مثل

الرّجال. بيد أنّ هذا لم يكن واردا لأنّهنّ كنّ مختلفات عنهم من النّاحية البيولوجيّة.

ومع ذلك، كان الأمر التّالي جليّا في كل مكان: لقد كانت النّساء منخرطات في السّياسة خلال الثورة. فعلى الرّغم من عدم تمتّعهنّ بالحقّ في التّصويت أو الانتخاب، إلاّ أنّهنّ شاركن في المعارك والاحتجاجات، وحضرن جميع جلسات الجمعيّة الوطنيّة (كان يُطلق عليهنّ من باب السّخرية اسم الحائكات[30] tricoteuses) ونشرن صحفا وكتبن منشورات ووقّعن على عرائض.

لقد مارسن السّياسة بكل الوسائل الّتي كانت متاحة لهنّ.

ولكن، ابتداء من عام 1793، تمّ استهدافهنّ إلى حدّ كبير.

أوّلا، في 30 أفريل 1793، صدر مرسوم بطردهنّ من الجيش. «تُستبعَدُ النّساء اللّواتي يخدمن في القوات المسلّحة من الخدمة العسكرية. سيتمّ منحهنّ جواز سفر وخمسة سنتات على كلّ مكان ليتمكنّ من العودة إلى منازلهنّ». لأنّ النّساء كنّ بالفعل جنديات في الجيش الثّوريّ. وقد استمرّت الكثيرات منهنّ في القتال رغم المنع. ولكن كيف كان مسار هؤلاء المقاتلات اللّواتي لا يُتَحدَّث عنهنّ بشكل عامّ بما فيه الكفاية[31]؟

---

(30) - كما كتب دومينيك غودينو Dominique Godineau، "بالإشارة إلى كلمة لفتة خاصة، فإنّها تؤكّد بشكل أفضل على اعتبار وجود النّساء في الفضاء السّياسيّ شذوذا وحشيّا."

(31)- للاطّلاع على دراسة متعمّقة للخلفيات والدّوافع، انظر كتاب ماري غوبيل ترافاي Marie Goupil-Travert، مقاتلات شجاعات، بطلات متواضعات Braves

إنّ مثال كاترين بوشيتا Catherine Pochetat يسمح بتبديد الكثير من الأفكار المسبقة. في عام 1789، كانت تبلغ من العمر 22 عاما وتعمل غسّالة. شاركت في اقتحام الباستيل. ثمّ التحقت بالمدفعيّة في كتيبة سان دوني. تميّزت بشكل خاصّ خلال معركة جومّاب Jemmapes. بعد أن تمّت ترقيتها إلى ملازم ثانٍ للمشاة في منطقة آردين، قادت فصيلا خلال معركة لييج. أصيبت في إيكس لا شابيل فتمّ تسريحها. قدّمت حينئذ طلبا كتابيّا للحصول على إذن بالعودة إلى القتال، ولكنّ النّواب رفضوه، مشيدين مع ذلك بشجاعتها وخصالها القتاليّة. لقد انتهى القتال بالنّسبة إليها، وعادت إلى منزلها.

لم يتوقّف استهداف النّساء عند هذا الحدّ. ففي 30 أكتوبر 1793، تمّ حظر النّوادي النّسائيّة. فقد أنشأن، مثل الرّجال، نواد سياسيّة لمناقشة الأحداث واقتراح الإصلاحات. وهكذا ظهرت الرّابطة الوطنيّة والخيريّة لصديقات الحقيقة، الّتي أسّستها إيتا بالم Etta Palm، أو رابطة المواطنات الجمهوريات الثّوريات الّتي أسّستها بولين ليون Pauline Léon وكلير لاكومب Claire Lacombe. تمّ إغلاق نواديهنّ إذًا، بينما ظلّت نوادي الرّجال مفتوحة. هذا قانون كان يستهدف النّساء على وجه التّحديد. والتّمييزُ هنا صارخ. لقد قيل للنّساء إنّه ليس من شأنهنّ حشر أنفسهنّ في السّياسة، وإنّه إذا أردن معرفة ما يحدث في البلاد، فليس

---

combattantes, humbles héroïnes، منشورات جامعة رين، 2021.

عليهن سوى الانتظار حتّى المساء عندما يعود أزواجهنّ إلى المنزل ليخبروهنّ عن الأحداث الخارجيّة.

كانت الغاية من ذلك هي استبعادهنّ قدر الإمكان من الفضاء العامّ. أو على وجه التّحديد منعهنّ من الاستخدام السّياسيّ للفضاء العامّ. وبينما بدأن في تنظيم مظاهرات طوال الرّبيع، أقرّ النّواب في 23 ماي 1795 قانونا ينصّ على أنّه لم يعد يُسمَح للنّساء بالتّجمع في أكثر من خمسة أشخاص وإلاّ فإنّهنّ يعرّضن أنفسهنّ للاعتقال. هذا يعني أنّه كان يُعتقَد أنّ اجتماع نساء في مجموعات تضمّ أكثر من خمس كان يمكن أن يشكّل خطرا على السّلطة. (وبالفعل، فقد أطلقن عددا من المظاهرات).

في ختام هذا الفصل الخاصّ بالمرأة والثّورة، تجدر الإشارة إلى أنّ العديد منهنّ، من جميع الجهات، قد تمّ القبض عليهنّ وإعدامهنّ. كما أنّ هناك أخبارا عن وقوع الكثير من حالات الاغتصاب، لكنّنا لن نعرف أبدا مقدار العنف الجنسيّ الذي حدث خلال هذه الفترة الّتي تمّ فيها استهداف النّساء بشكل خاصّ.

ولم تسر الأمور بعد ذلك نحو التّحسّن. ففي نهاية الثّورة، كان رجل عسكريّ هو من تولّى السّلطة: إنّه نابليون بونابرت. كان يعرف مكانة النّساء جيّدا: عليهنّ أن يخرسن ويبقين في المنزل. وكما قال بنفسه: «لقد صنعت الطّبيعة من النّساء عبيدا لنا.» كما كتب أيضا: «وُهِبت المرأةُ للرّجل حتّى تنجب له أطفالا. إنّها ملك له مثلما أنّ شجرة الفاكهة هي ملك للبستانيّ». وهكذا تحوّلت وضعيّتهنّ من

اعتبارهنّ كيسا للفضلات إلى شجرة فاكهة، ولكن ذلك مازال بعيدا عن خدمة قضايانا. (خاصّة وأنّ الأشجار، في قانون نابليون، ليست كائنات حيّة، بل تُعتبَر أثاثا).

بعد فوضى الثّورة، أعاد بونابرت ترتيب هذا المجتمع بقانون مدنيّ سُمِّي «قانون نابليون». قانون ينظّم العلاقات والسّلطة داخل الأسرة. وهنا، أيّها السّادة، كان الفوز بالجائزة الكبرى من نصيبكم. لقد ربحتم السّبائك الذّهبيّة الثّلاث، وعلامة الدّولار، وأصيبت صفّارات الإنذار بالجنون، وانهمرت عليكم الأوراق الماليّة وأضافت المضيِّفةُ الكرَز إلى كؤوسكم من المارتيني.

لقد استحوذتم على كلّ شيء. صرتم تديرون الممتلكات الخاصّة بكم، والممتلكات المنزليّة المشتركة، وممتلكات زوجاتكم دون موافقتها.

لا أريد أن أفسد عليكم كثيرا متعة التّشويق حول ما حدث بعد ذلك. ولكن يجب أن تعلموا أنّ هذا القانون المدنيّ سيستمر تطبيقه على الزّواج إلى أن وقع إصلاح أنظمة الزّواج في عام 1965. عندما تزوّجتْ والدتي في المرّة الأولى، كان هذا القانون لا يزال ساريا. لتحلَّ عليك يا بونابرت.

بصرف النّظر عن المال، كان الزّوج يتمتّع أيضا بكلّ السّلطات، وكان على المرأة أن تخضع له خضوعا كاملا. فهو من كان يختار المسكن، ويقرّر تعليم الأبناء، وكان إذنه مطلوبا كي يُسمَح لزوجته بالعمل، وهو من كان يتقاضى راتبها (استمرّ هذا الأمر حتّى عام

1907). كما أنّها لم تكن قادرة على إجراء امتحان دون تصريح منه. وأخيرا، كانت المرأة المتزوّجة تعتبر قاصرة أبديّة: فالقانون ينصّ على عدم أهليتها المدنيّة. وكانت الزّوجة الّتي يُقبَض عليها في وضع زنا يُحكم عليها بالسّجن. أمّا الزّوج فلا. تحدّد المادّة 324 الشّهيرة والمعروفة باسم «المادّة الحمراء article rouge» أنّه «في حالة الزّنا [...] فإنّ جريمة القتل الّتي يرتكبها الزّوج على الزّوجة، وكذلك على الشّريك، في اللّحظة الّتي يفاجئهما فيها متلبّسيْن بالجريمة في بيت الزّوجيّة، هي جريمة مبرَّرة». لفظة «مبرَّرة» كانت ترخيصا لقتل الزّوجة الخائنة. هذه الخصوصيّة في القانون وهذا التّساهل الّذي يُظهره تجاه الأزواج الّذين يقتلون شريكاتهم استمرّا لفترة طويلة جدّا ... من النّاحية القانونيّة، لن يتمّ تعديل المادّة 324 حتّى عام 1975، ولكن لا يزال هناك محامون ومحاميّات في الوقت الحاضر يدافعون عن الجريمة العاطفيّة.

يمكن للزّوج الحصول على الطّلاق بسبب زانا زوجته. ولكنّ العكس غير ممكن، فزنا الزّوج لا يكفي لتبرير التماسها الطّلاق. (والفكرة وراء ذلك، لأنّه بالفعل كانت هناك فكرة، هي أنّ الزّوجة الّتي تخون يمكن أن تحمل ومن هنا يجد الزّوج نفسه دون علمه مع وريث ليس من صلبه. «حسنا... هذه ضربة أخرى يوجّهها التّكافؤ التّفاضليّ المقدّس بين الجنسين»، وفق تعبير فرانسواز إيريتياي.) يضع قانون نابليون بوضوح أبَ الأسرة بمثابة القائد الأعلى. إنّه إعادة لربّ الأسرة pater familias الرّومانيّ.

طالما كان الأمر كذلك، كان من الأفضل أن تظلّ المرأة عزباء. إلاّ أنّ رواتب النّساء لم تكن مرتفعة - وكان الضّغط الاجتماعيّ قويّا جدّا.

وهكذا تمّ تحت حكم نابليون سنُّ قانونِ النّظام الجنسيّ الثّنائيّ الجديد الّذي كان يغذّي فلاسفة عصر التّنوير. ولم يتوقّف إقصاء النّساء عند هذا الحدّ. فقد اختفت الفنّانات من المختارات، وتمّ تجاهل كلّ مبدعات عصر النّهضة، ومحوُ المؤلِّفات من الذّاكرة الجماعيّة. لقد تمّ التّقليل من شأن سلطة الملكات. وبدأت تنبجس فكرةُ أنّ مكان المرأة هو في المنزل، وأنّها كانت هناك منذ الأزل. وهكذا ضاعت ذاكرة تاريخ النّساء، ذاكرة الحرّيّة الّتي كنّ ينعمن بها في العصور الوسطى. وبدأ تخيُّلُ أنّه منذ فجر التّاريخ، كنّ قابعات داخل المنزل من أجل رعاية الأطفال.

ولكن كلّ ذلك كان له تأثير متناقض. فالثّورة ثمّ الإمبراطوريّة، باستبعادهما جميع النّساء دون تمييز بينهنّ من حيث الطّبقة الاجتماعيّة، قد أوجدتا طبقة النّساء. وبذلك أرسلت العاملة إلى جانب الأرستقراطيّة، والفلاّحة إلى جانب البرجوازيّة. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الاستبعاد نفسه قد أسهم في زيادة الوعي بوحدة الحالة النّسائيّة. وصار من الممكن خوض معارك مشتركة. كثيرا ما يقال إنّه يجب أن تفرِّق كي تسودَ بشكل أفضل. ولكنّ هذا النّظام الأبويّ، باستبعاده جميع النّساء، ربّما ساعد على توحيدهنّ.

12

الفستان والعذراء والدّمية في القرن التّاسع عشر

عبثا بحثت في ذاكرة فصولي المدرسيّة عمّا بقي فيها عن القرن التّاسع عشر، بغضّ النّظر عن الثّورات الصّناعيّة، فأنا لم أجد سوى ثقب أسود، على الرّغم من أنّ شغفي بالقرن التّاسع عشر يعود إلى سنوات مراهقتي. ولكن لماذا إذًا كانت طفلة تبلغ من العمر خمس عشرة عاما ترتدي سروال جينز عليه ثقوب، مفتونةً إلى هذا الحدّ بملَكيّة جويلية والإمبراطوريّة الثّانية؟ هناك فرضيّة واحدة تفسّر ذلك: أنّه كان عصرَ الرّواية الفرنسيّة العظيمة. لقد أحببت القرن التّاسع عشر لأنّه كان قرن بلزاك وديما وهوغو وميسّاي. (تلاحظون خلوّ هذه القائمة من اسم لأيّ امرأة، وسنعود إلى ذلك لاحقا).

لم يكن القرن التّاسع عشر عصر المرأة الذّهبيّ حقّا.

لقد بدأ بشكل سيّئ مع قانون نابليون، وسيأتي كلّ شيء آخر على نفس شاكلته. كانت الفكرة الكبرى للقرن بخصوص المرأة هي ما يسمّى بنظريّة «المجالات المنفصلة». فالرّجال خُلِقوا للخروج إلى العالم بينما خُلقت النّساء للبقاء في المنزل. وكان هناك دليل بيولوجيّ على ذلك: فالرّجل لديه قضيب متّجه نحو الخارج بينما لدى النّساء مهبل متّجه للدّاخل. (نعم، كانت هذه هي الحجج ...) وعلى عكس

الثّقافة اليونانيّة القديمة، تعتمد هيمنة الذّكور هنا، بسبب نظريّة القَالَبَيْن، على حالة طبيعيّة. فلا تضحكوا حين أقول إنّنا ورثة هذا الفكر ووريثاته.

في القرن التّاسع عشر، تمّ التّرويج لمثل أعلى جديد للفحولة. أخذ النّموذج الذّكوريّ في التّطوّر وقد تجلّى ذلك بسرعة كبيرة في الملابس[32]. فبينما كان بإمكان النّبلاء من النّظام القديم أن يرتدوا المنسوجات الحريريّة الورديّة، والشّرائط، والدّانتيل الفاخر، والأحذية ذات الكعب العالي، وجوارب السّاق الضّيقة والتّطريز في كلّ الاتّجاهات، ظهر في القرن التّاسع عشر ما سُمِّي بـ «التّنازل الذّكوريّ الكبير». بالنّظر إلى أنّ هذه الزّخارف كانت تذكّر بشكل كبير بالملوك والنّبلاء، تمّت الدّعوة إلى توخيّ الرّصانة. وهكذا أُهمِلت الباروكات، وصارت قصّات الشّعر أقصرَ. كما صارت الملابس أقلّ تلوينا، وأكثر وظيفيّة. مستقبلا، أمست الخفّة في الملابس مقتصرة على النّساء. فالمواطنون لديهم ما يقومون به أفضل من وضع المساحيق– الأمر الّذي سيترك مجالا معيّنا للغندوريّة dandysme (شدّة التّأنّق).

كان الفرنسيّ من القرن التّاسع عشر جدّيّا أكثر من اللاّزم ومملاّ نوعا ما.

---

(32)- للاطّلاع على دراسة متعمّقة لتاريخ الملابس ودلالاتها، يجب بالطّبع الرّجوع إلى عمل كريستين بارد Christine Bard على التّنورة والبنطلون.

من خلال تأثير التّزامن، سوف تزدهر ملابس النّساء. لقد حدثت طفرة في الأقمشة وانتشار كبير للملابس الجاهزة. فكنّ يضعن طبقات منها فوق طبقات. كنّ يرتدين أوّلا بنطلون الدّانتيل، تليه تنّورة تحتيّة بشعر الخير بطول ثلاثة أو أربعة أمتار حول البطن، يُغطّينه بدوره بتنّورة ثانية، وبثالثة منتفضة، فرابعة، وفوق هذا كلّه، يرتدين أخيرا فستانا. منذ خمسينيات القرن التّاسع عشر، تمّ إدخال المعدن صراحة في الهيكل. ففي مكان تنّورة تحتيّة من شعر الخيل، صارت توضع أطواق معدنيّة تعمل على شدّ الكلّ (وهذا ما كان يسمّى الكرينولين crinoline).

نتيجة لذلك، لم يعد للنّساء أَرْجُلٌ. فالجزء السّفليّ من الجسم بأكمله من الخصر، تمّ حجزه كما لو أنّه قد وُضع في مزهريّة كبيرة لا يظهر ممّا بداخلها غيرُ النّصف العلويّ[33].

وبينما كان الرّجال كلّهم تقريبا يرتدون سراويل وسترات، كانت النّساء عالقات في كيلوغرامات من الأقمشة من جميع الأنواع. كان المقصود هو إعطاء الجسد الأنثويّ والجسد الذّكريّ أشكالًا مختلفة بشكل جذريّ، حتّى لو كان ذلك يعني اختراعهما لأنّهما في الواقع ليسا على هذه الدّرجة من التّعارض. وهكذا عاد المِشَدُّ إلى الموضة بسرعة، مثله مثل أيّ شيء كان يسمح بتمييز الخصر النّحيف وإبراز الثّديين والأرداف للتّأكيد على الاختلاف المورفولوجيّ بين

---

(33) - لفهم هذا التّطوّر الحاصل في هيئات الأشخاص بشكل أفضل، يمكن الرّجوع إلى الكتاب الجيّد لجورج فيغاريلو Georges Vigarello، histoire culturelle du La Robe, Une Moyen Âge à aujourd'hui، سوي، 2017.

الجنسين. وتمّ وضع تشريح زائف، وجسد غير موجود. الكرينولين، التّنورات التّحتيّة، القمصان المضغوطة، الصّدريّات، القمصان بلا أكمام canezou (وهذه هديّة للعبة سكرابل)، كلّها تسمح بتخيّل جسد أنثوي استيهاميّ fantasmé.

من الواضح أنّ ما سهّل هذا الانتشار هو تصنيعُ قطاع النسيج. لذلك يجب أن يُنظر إليه على أنّه سبب اقتصاديّ (كانت هناك صناعة كاملة بصدد التّطور)، وسبب سياسيّ (ينبغي أن تكون المرأة مختلفة جذريّا عن الرّجل)، وسبب اجتماعيّ (كان هذا يسمح للرّجال بالتّباهي بثرواتهم من خلال البذخ الظّاهر على ملابس زوجاتهم وعشيقاتهم). ولكن لا يجب علينا أن نخطئ: فهذه الأنماط كانت لها أيضًا مهمّة أخلاقيّة. لقد كانت تلعب دور الوَصيّ على النّساء. كان المظهر المعدنيّ يعزّز التّضييق الّذي كنّ يتعرّضن له. كنّ سجينات. وعلى الرّغم من أنّ ابتكارات تمّ إنشاؤها لصنع نماذج من المِشدّات أكثر راحة ومرونة، إلاّ أنّ الكرينولين كان يمثّل عائقا رئيسيّا أمام الحرّيّة. مع هذه الأطواق المعدنيّة، كان قُطْرُ التّنّورة يمكن أن يصل إلى ثلاثة أمتار. لم يكن الإسراع في المشيء فقط صعبا، لقد كان هذا اللّباس سجنا حقيقيّا. كانت الحركة من نصيب الرّجال، فيما كان السّكون قدرَ النّساء. (أثناء الحريق الّذي شبّ في بال دو شاريتيه bal de la Charité، ذكرت الصّحف أنّ النّساء بقين سجينات ملابسهن، على عكس الرّجال الّذين تمكّنوا من الفرار وتجاوزهنّ لأنّهم كانوا يرتدون بنطلونات).

مكتبة
t.me/soramnqraa

ولكنّ الأمور تطوّرت إلى أبعد من ذلك. لقد تمّ خلق الفرد الّذي يتناسب مع تلك الفساتين. شهد القرن التّاسع عشر ظهور شخصيّة جديدة ستظلّ ملازمة لنا حتّى القرن الحادي والعشرين: إنّها شخصيّة الفتاة. ظهر نموذج الفتاة البرجوازيّ في النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر. شابّة يتراوح عمرها من 16 إلى 20 سنة، مطيعة، عذراء، وعفيفة. فتاة بعيدة المنال، كأنّها ملاك لم يبق منه شيء أرضيّ تقريبا. ستؤدّي هذه الصّورة النّمطيّة إلى ابتكار يعرفه الجميع ولم يكن موجودا من قبل: ألا وهو الأحذية المُدبَّبَة في الرّقص الكلاسيكيّ.

كانت الرّاقصة ماري تاغليوني Marie Taglioni هي من ابتكرتها. كانت حين ترتديه تبدو وكأنّها تفلت من جاذبيّة الأرض لفرط خفّتها وتحليقها. لقد أدْمَتْ الأحذيةُ المدَبَّبَةُ أجيالا من البنات. كنّ بعيدات جدّا عن دُبّ الإغريق القدماء!

لا يجب أن تخرج الفتاة بمفردها أبدا. ولا يجب أن تعرف أيّ شيء عن الجنس. ويصل الأمر إلى حدّ نصحها بإغلاق عينيها عندما تُغيّرُ قميصَها حتّى لا ترى جسدها العاري. كان يتمّ تعليمها ازدراءَ الحياة الجنسيّة عموما وحياتِها الجنسيّة خصوصا. ويتمّ إظهار العادة السّرّيّة بالطّبع على أنّها مرض رهيب.

لقد أحبّ الرّومانسيون الفتاة كثيرا. (على الرّغم من تعاطفي معهم، إلاّ أنّهم ألصقوا بنا صورة لبطلات غير متحرّرات بشكل كبير.) كانوا هائمين بهذا الكائن الطّاهر والحسّاس الشّبيه بطائر صغير سقط من العشّ. الشّخص الوحيد الّذي لم يهتم بالفتاة كان

بلزاك. ما كان يثير إعجاب بلزاك هي المرأة البالغة من العمر 30 عاما. ولكن بالنّسبة إلى معاصريه، فحياة النّساء تدور بين سنّ الخامسة عشر والعشرين، أي عندما يكنّ على أبواب الزّواج.

هذا الهوس بالفتاة كان يسير جنبًا إلى جنب مع الهوس بالعذريّة. فقبل الزواج، تكون الفتاة طاهرة. أمّا بعده، فسوف تُدَنَّسُ بشكل غير قابل للإصلاح. (يا له من مجتمع فاسد، حيث يقال لكِ إنّه يجب عليكِ مضاجعةُ زوجك حتّى لو كنت لا ترغبين في ذلك، وفي نفس الوقت، يقال لك إنّك بذلك تصبحين نجسة.) أصبحت العذريّة مهمّة للغاية لدرجة أنّ تاريخ عادة الزّواج بارتداء الفستان الأبيض يعود إلى القرن التّاسع عشر. كانت الملكة فيكتوريا هي من أطلق هذه العادة.

مسألة غشاء البكارة الّتي درستها المؤرّخة بولين مورتاس Pauline Mortas بشكل خاصّ في كتابها «وردة شائكة Une rose épineuse»[34]، هي مسألة أساسيّة. كان هناك تصوّر جديد بصدد التّشكّل عن العذريّة وفضّ البكارة باعتبارهما تغييرا جسديّا، تحوّلا – وهو في الحقيقة تغيّر غير بيولوجيّ وإنّما اجتماعيّ فقط. مع ظهور الطّبّ السّريريّ، تمّ التّأكيد على وجود غشاء بكارة ينبغي تمزيقه – وبالمناسبة، فإنّ اختيار لفظي «ممزَّق» و«تمزيق» ينطوي على فكرة وجود عنف لا مناص منه.

---

(34) Une rose épineuse. La défloration au XIXe siècle، مطابع رين الجامعيّة، 2017.

لكنّ الوضع كان أكثر سوءا. فالجميع كان يسبَح في مرض انفصام الشخصيّة تماما بما أنّ مريم العذراء كانت موجودة في كلّ مكان في ذات الوقت. كانت الصُّور المقدسة تُوزَّع على الفتيات، وكنّ يُجبَرن على الصّلاة لأمّ يسوع، وتُوزَّعُ بطاقات «السّلام عليكِ يا مريم» على المتنافسات. في عام 1854، أعلن البابا بيوس التّاسع عقيدة «الحمل الإلهيّ l'Immaculée Conception»، والّتي مفادها أنّ مريم قد أنجبت وهي عذراء. مع نموذج الأمّ العذراء هذا، تنطلق جميع النّساء في الحياة وهنّ خاسرات مسبقا. إذ يجب عليهنّ أن يبقَيْنَ طاهرات ولكن أن يقبلن بالدّنس دون أن ينبسن بكلمة واحدة عندما يحين الوقت. وهكذا كان قدرهنّ هو الحرمان. ولا يمكن أن تكون حياتهنّ إلاّ فاشلة.

لَكُمْ أن تتخيّلوا كيف كان يمكن أن تكون ليلة الزّفاف بالنّسبة إلى هؤلاء الفتيات اللاّئي نشأن مثل الصفحة البيضاء ولم يكن لديهنّ أيّ فكرة عمّا سيحدث. كم من صرخات أطلقن؟ وكم من صدمات نفسيّة تلقّين؟ غالبًا ما كان الزّواج حينئذ يتّسم بسلسلة من حالات الاغتصاب الزّوجيّ - لأنّ فكرة أنّ موافقة المرأة ضروريّة لم تكن مطروحة أصلا. بل إنّ الأمر كان عكس ذلك في الواقع: فالواجب الزّوجيّ كان يحتّم على المرأة إرغام نفسها على الانصياع.

بعد الفتاة العذراء، كان الجانب الآخر من الأنوثة ممثَّلا في الأمّ. (لا تبحثوا عن جانب آخر بينهما، فلن تجدوه). فالقرن التّاسع عشر كان أيضا قرن الأمّهات. كلّما عمل الآباء أكثر خارج المنزل،

انخرطت الأمّهات أكثر في تربية الأطفال. كان هذان هما المجالان الوحيدان آنذاك، وفقدت المدرسة الدّاخليّة مكانتها. في بداية القرن، كان الأولاد يُرسلون إليها من سنّ السّابعة (يحتفظ بلزاك بذكريات بغيضة عنها)، أمّا في نهايته، فلم يكونوا يُرسلون إليها إلاّ في الثّانية عشرة. في الوقت نفسه، كان هناك انخفاض في معدّل المواليد في أمريكا وأوروبّا الغربيّة والّذي يمكن تفسيره بخيارات مدروسة جيّدا. فقد كان النّساء يمارسن الإجهاض على الرّغم من أنّه كان محظورا، وكان الزّوجان يقطعان الجماع كوسيلة لمنع الحمل. وبما أنّ النّساء صرن ينجبن عددا أقلّ من الأطفال، فقد بتن يخصّصن وقتا أكبر لتربية كلّ واحد منهم. مكتبة سُر مَن قرأ

حتّى النّسويات استخدمن الأمومة حجّة في خطابهنّ. فبالنّظر إلى أنّ المرأة تقوم بتربية مواطني المستقبل، فإنّه من الضّروريّ أن تكون متعلّمة بما فيه الكفاية، وأن تكون مسموعة من قبل السّلطة السّياسيّة بل وحتّى ممثّلة فيها، باسم المسؤوليّة المقدّسة الّتي تضطلع بها بوصفها أمّا.

تجلّت هذه الأهمّية المتجدّدة للأمّ في التّطوّر الّذي عرفه كائن معيّن، ألا وهو الدّمية. كانت الدّمى موجودة منذ زمن بعيد، ولكنّها لم تكن للّعب، بل لغرض عمليّ. فقد كان يتمّ استخدامها لعرْض نماذجَ من الملابس على دمية صغيرة، كي يقرّر الزّبائن اختيار تلك الّتي سيتمّ تصنيعها لاحقا. لذلك، كانت تلك الدّمى تمثّل إناثا بالغات. بطبيعة الحال، كان يمكن للأطفال أن يلعبوا بها، ولكن في

القرن التّاسع عشر، حوالي عام 1850، تغيّرت وظيفة الدّمى: بدلا من محاكاة النّساء الشّابّات، أصبحت تحاكي أشكالا من الأطفال، ومنذئذ أصبحت لعبةَ فتاة صغيرة من أجل هدف مفترَض بالكامل ألا وهو تدريبها على الأمومة. فالفتاة لم تكن تلعب بالدّمى، بل كانت تلعب في الواقع دور الأمّ.

ولكنّ الأمّ تمكث في المنزل.

أدّت نظريّة المجالين إلى حرمان النّساء من عدد معيّن من الأماكن وإلى تثمين المجال الذّكوريّ المشترك. فالرّجال كانوا يعيشون جنبا إلى جنب في العالم. في المدارس الدّاخليّة، في المعهد، في بيت الدّعارة، في الجيش، في غرفة التّدخين، في الملاهي، في المقاهي، وفي النّوادي. كانت بعض المساحات مختلطة، مثل الحفلات الرّاقصة، ولكن بشكل أساسيّ لتيسير اللّقاءات الزّوجيّة. أصبح إقصاء النّساء منظّما بشكل متزايد حيثما كان يسود سابقا عدم التّحديد ونوع من المرونة. لقد ولّى زمن نساء العصور الوسطى، اللّواتي كنّ حاضرات في كلّ مكان. وقد جعلهنّ هذا الاحتجاز يفقدن قدرتهنّ في العالم الجديد الآخذ في التّطوّر. وهكذا، في الوقت الّذي أخذت تزداد فيه أهمّيّة البورصة، تمّ حظرها على النّساء. بل لم يكن مسموحا لهنّ حتّى بدخولها. وقد سُنَّت قوانين لتكريس هذا الحظر في عامي 1801 و1816. كان لا بدّ من الانتظار حتّى عام 1985 (هل قرأتم جيّدا هذا التّاريخ؟) كي يتسنّى للمرأة أن تعمل وسيطة في البورصة.

(كانت أوّل امرأة عملت فيها تدعى سيلفي جيراردي Sylvie Girardet).

أحد الأمثلة من بين أمثلة أخرى كثيرة على هذا الاستبعاد للنّساء في لحظة مَأْسَسَةِ أداء المجتمع، هو أنّ إنشاء أوّل كرسيّ لطبّ التّوليد، في فرنسا، قد تمّ في عام 1806. فقد صار التّوليد شأنا يخصّ الرّجال، وغدت فيه النّساء اللّواتي كنّ متكفّلات به منذ زمن طويل عنصرا ثانويّا، مجرّدَ مساعدات. أصبحت القابلات خاضعات لأوامر الطّبيب وأخذت عرى التّضامن بين النّساء في التّفكّك. لقد فقدن سلطتهنّ. ولم يكن الأمر مقتصرا على الولادة فحسب. فجميع مقدّمات الرّعاية التّقليديات صرن غير مؤهّلات، على غرار الرّاهبات والممرّضات والمعالجات من جميع الأصناف.

فيما يخصُّ الجسد، أصبح للنّساء دور واحد فقط يضطلعن به: إنّه دور المريض. لقد جرى إضفاء الطّابع الطّبّيّ médicalisation على الأنوثة. وكما كتبت المؤرّخة العظيمة إيفون كنيبيلر Yvonne Knibiehler، «كانت امرأة القرن التّاسع عشر مريضة أبديّة». كان يُنظر إلى الحياة الجسديّة للمرأة بأكملها على أنّها سلسلة من الأمراض والاختلالات: من الحمل والحيض وانقطاع الطمث. المرأة هي مرض. ويتمّ تفسير ذلك بكونها هشّة وغير مستقرّة. لم يكن أمرا مهمّا أنّ النّساء قد حُرمن من ممارسة الرّياضة البدنيّة، وكنّ أقلّ تغذية من الرّجل، ومُجبَرات على قضاء وقتهنّ في الخِياطة، ومعرَّضات لضغوط اجتماعيّة مجنونة. عندما نلقي نظرة إلى الوراء، يتّضح لنا أنّ منعهنّ

من الحياة والحرّيّة، قد أغرق الكثير منهنّ بالفعل في حالات مرَضيّة. (في «مذكّرات فتاة رصينة Mémoires d'une jeune fille rangée»، حيث قامت سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir بتفكيك شخصيّةَ الفتاة، اتّهمت الأخلاقَ البرجوازيّةَ وأغلالها بأنّها هي الّتي كانت السّبب في وفاة صديقتها المقرَّبة. وبيّنت أنّ المريضة ليست هي المرأة، بل هي الأنوثة البرجوازيّة).

اهتمّت المؤرّخة سابين أرنو Sabine Arnaud بشكل خاصّ بالهستيريا. فكيف يتمّ اختراع مرض ما؟ هذا هو السّؤال الّذي طرحته في كتابها اختراع الهستيريا في عصر التّنوير L'Invention de l'hystérie au temps des Lumières (1670–1820)، حيث قامت بالتّوثيق لتاريخ هذا المفهوم.

كانت الهستيريا، في البداية، مرضا يصيب كلا الجنسين في الحقيقة. كان يمكن أن يؤثّر على الرّجال والنّساء على حدّ سواء. في الواقع، كان يُنظر إليه قبل كلّ شيء على أنّه مرض خاصّ بطبقة اجتماعيّة. فالمرجَّح هو أنّه كان ناجما عن خمول النّبلاء، وتربية راقية جدّا، وإفراط في الحساسيّة. بعد الثّورة، أصبحت الهستيريا مرضا نسائيّا حقّا. لقد تمّ استخدامه آنذاك لانتقاد مجموعة محدّدة، وهي النّساء، باعتبارهنّ يمثّلن إشكاليّة من النّاحية البيولوجيّة. فمرض الهستيريا كان طريقة للقول إنّ أمراض الرّجال تختلف عن أمراض النّساء، ومن ثمّة للتّأكيد مرّة أخرى على ما يفصل بين الجنسين. كان

أيضا إقصاء للأنوثة. لَكَأنّ ما هو أنثويّ كان حالة مَرَضيّة تحمل بداخلها مرضا، مادامت المرأة تحمل رحما في جسدها.

استمرّت هذه الرّؤية للمرأة على أنّها مريضة طبيعيّا لفترة طويلة.

إنّ أسطورة ضعفها المفترض وهشاشتها أسطورةٌ عنيدة حقّا. لذلك كانت سعادتي كبيرة برؤيتها تُنسَفُ في عام 2017 من خلال رسم كاريكاتوريّ رائع للكاتبة المتميّزة إيمانويل تيراس EmmanuelleTeyras بالتّعاون مع ماكسيم بوازوت Maxime Poisot[35]. فهي تقدّم فيه زوجين مُسنّين ومميَّزين بما فيه الكفاية، وهما جالسان وجها لوجه في مطعم. ترفع المرأة أداة مائدة نحو زوجها بينما هو يمسح فمه وتقول له: «لقد جاءني الحيض وأنا في الثّانية عشرة، وانقطع عنّي الطّمث في الثّالثة والخمسين. وهكذا عانيت طوال واحد وأربعين عاما من فترات حيض مؤلم. عندما أنجبت كاترين، تسبّب لي الملقط في جرح بطول ثلاثة وعشرين سنتيمترا. وعندما ولدت فرانسوا، خلّفت لي العمليّة القيصريّة الطّارئة بعد ثمان وثلاثين ساعة من المخاض ندبةً ما تزال إلى اليوم تحرقني. واللّولب النّحاسيّ الضّخم الذي وُضِع بداخلي على مضض في عام 1967 تسبّب لي في انقباضات شيطانيّة استمرّت لعدّة أيام. وقد تحمّلت خمسة وعشرين مسحة فحوصات لعنق الرّحم، وثمانيةَ تصوير شعاعيّ للثّدي، وعمليّتي إجهاض سرّيين دون مسكّنات

---

(35) - يمكن العثور عليها في كتابهما Un clou dans le bec، مارابيل، 2019.

للألم. إذًا يا فيكتور، إنّ مشكلة البروستاتا لديك، هي كما تقول أنت بعباراتك: مجرّد هراء لا أعيره اهتماما.»

ولكن لم يكن يُنظر إلى المرأة في القرن التّاسع عشر على أنّها قديرة أو قويّة، بل على أنّها مريضة على الدّوام ويجب معالجتها بأيّ ثمن – وقد كان الثّمن أحيانا باهظا ... بحلول نهاية القرن، بلغ الأمر إلى درجة إزالة المبايض السّليمة من أجل «تهدئة» النّساء. كان المُرَوِّجُ الكبيرُ لإخصاء الإناث في أوروبّا يدعى ألفريد هيغار Alfred Hegar، وكان أستاذا في أمراض النّساء في فريبورغ. (توفّي ثلث مرضاه من النّساء بسبب تعفّن الدّم). كما كان يمارس الختان. لقد قام هيغار وزملاؤه بتشويه آلاف النّساء، ولكن لا تنسوا من فضلكم، أنّ ذلك كان باسم العلم. فقد كان يُعتقَد أنّ استئصال البظر، أي ختان البنات، يجعل من الممكن علاج النّساء الهستيريات، والممارِسات للعادة السّرّيّة، والمصابات بالصّداع النّصفيّ[36].

كان يُعتقَد بالفعل منذ فترة من الزّمن أنّ المرأة مختلفة بطبيعتها، ولكنّ المجتمع لم يكن قد توصّل بعدُ إلى جميع الاستنتاجات الضروريّة من ذلك. في القرن التّاسع عشر، تمّ الفصل بين المهن حسب الجندر. فكانت هناك وظائف للرّجال وأخرى للنّساء. يجب القول أيضا إنّ أرباب العمل كانوا يدفعون للمرأة أجرا أقلّ من أجر

(36) - في الولايات المتّحدة، خرّب الأطبّاء أوّلا أجسادَ النّساء السّوداوات. على سبيل المثال، نحن مدينون بالشّكل الحديث للمنظار لجيمس ماريون سيمز James Marion Sims، الّذي كان يجرى تجاربه في أمراض النّساء على العبيد الإناث. لقد استعملتُ لفظة "تجارب"، ولكنّ بعض الجلسات والعمليّات الجراحيّة كانت ترقى إلى درجة التّعذيب.

الرّجل (بما أنّه من المفترض أنّه كان قوّاما عليها). وكان الرّجال يثورون ضدّ هذه المنافسة غير العادلة، اعتبارا إلى أنّ أرباب العمل كانوا في كثير من الأحيان يفضّلون توظيف النّساء والأطفال ذوي التّكلفة الأقلّ. لشراء السّلام الاجتماعيّ، تمّ إذًا إنشاء مجالات مهنيّة منفصلة.

هناك مثال آخر على هذه الحركة العامّة المناهضة للنّساء هو الأدب. في بداية ذلك القرن، كان عدد الرّوائيّات متساويا مع عدد الرّوائيين. بعد ذلك، في حوالي عام 1830، تبخّرن كما لو كان وراء الأمر سحرا. خصّص بيير كارل لانجليه Pierre-Carl Langlais مقالة رائعة لهذا الاختفاء بعنوان «هل اختفت النّساء من الأدب في عام 1830 Les femmes ont-elles disparu de la littérature en 1830؟[37]». بعد جمعه المعطيات عمّا تمّ نشره في ذلك الوقت، أكّد أنّ هؤلاء الرّوائيات قد اختفين. يجب القول إنّ الرّواية حتّى ذلك الحين، كانت تُعتبر نوعا أدبيّا فرعيّا. وهكذا سمح هذا التّقليل من قيمتها للنّساء بالسّيطرة عليها. ولكن منذ ثلاثينيات القرن التّاسع عشر فصاعدا، أخذ النّجاح المتزايد للرّوايات في جذب الرّجال إليها. ومن ثمّة أصبحت الرّواية نوعا نبيلا وذكوريّا. اللاّفت في الأمر أنّ اختفاء الرّوائيات، اللاّئي كان عددهنّ في مجال النّشر أقلّ مقارنة بعدد الرّجال، قد رافقه اختفاء لأعمالهن الّتي سبق نشرُها. فمن منكم مازال يقرأ لصوفي غاي Sophie Gay أو كلير دي

(37) - مقال متوفّر على الإنترنت.

ديرا Claire de Duras أو فيليسيتي دي غينليس Félicité de Genlis؟

قامت المؤرّخة كريستين بلانتي Christine Planté بتحليل هذه السّيرورة. واستنتجت أنّ الأمر كلّه كان يتعلّق بنزع الشّرعيّة. فعلى غرار ما فعله فولتير سابقا مع كاترين برنار، كان يقال إنّهنّ لم يكتبن أعمالهنّ بأنفسهنّ، وإنّ رجلا ما قد ساعدهنّ، ثمّ إنّ هذه الكتب لم تكن جيّدة. أو، على أيّ حال، كانت دائما أقلّ جودة ممّا يكتبه الرجال. ولذلك فهي لا تستحقّ أن تُحفظَ في الذّاكرة.

في الحقيقة، يجب إعادة قراءة جميع أعمالهنّ وفق نطرة حديثة لإعادة تشكيل المختارات الّتي ينبغي أن تشملهنّ.

في الرّسوم البيانيّة المقدَّمة في مقال بيير كارل لانغليه Pierre-Carl Langlais، نعثر على العديد من الأمور المذهلة. أولاها أنّه كانت هناك روائيّات منذ وقت طويل جدّا. وثانيتها أنّ وجودهنّ لم يكن منتظما بشكل كبير. ففي فترات معيّنة، كان عدد الرّوايات الّتي كتبها النّساء يضاهي عدد ما كتبه الرّجال، بعد ذلك انهار المنحنى، ثمّ عاد للصّعود من جديد. هذه الظّاهرة كانت متقطّعة. ولكن انطلاقا من عام 1830، انهار المنحنى بشكل دائم. حتّى أصبح عدد النّساء المنشورة أعمالهنّ يساوي ربع العدد الّذي كان من قبل.

ومع ذلك، ظهرت في تلك الفترة (في عام 1829 على وجه الدّقّة) كُتُبُ جورج ساند الأولى George Sand. إنّها حالة مثيرة للاهتمام ممّا يمكن أن نطلق عليه «فخّ المرأة الاستثنائيّة». فوجود

امرأة تدعى جورج ساند تمكّنت من الارتقاء إلى مستوى الكتّاب الذّكور قد تمّ اعتباره دليلا على أنّ الأمر كان ممكنا، وبالتّالي، فإنّه إذا لم تنجح الأخريات، فذلك لأنّهنّ لم يكنّ موهوبات بما فيه الكفاية. ولكن الحقيقة، على وجه التّحديد، هي أنّه لم يُترَك سوى مكان واحد لامرأة واحدة وسط حشد من الرّجال. لقد تمّ القبول بواحدة، ولكن بشرط أن تكون الوحيدة. وهكذا، فإنّ «المرأة الاستثنائيّة» ليست دليلا على أنّ الأبواب كانت مفتوحة أمام النّساء، بل هي دليل عكسيّ تماما، أي أنهّ لم يتمّ قبول النّساء إلاّ بشرط أن يكنّ أقلّيات قليلة جدّا.

هذا ما توضّحه أرقام النّشر الخاصّة بالرّوائيات في ذلك الوقت. لم يتمّ تجاهل أولئك اللّواتي نشرن في الفترة السابقة فحسب (فالاحتفاظ في المختارات بامرأة واحدة في كلّ نصف قرن كان يُعتبر أكثر من كاف)، ولكن بالإضافة إلى ذلك، أصبحن ممنوعات تقريبا من الوصول إلى النّشر بعد ذلك.

ويوضّح مؤلّف الدّراسة أنّه في ظلّ غياب المؤلّفة، تهاوى عدد البطلات بالمثل. كان يجري على قدم وساق إضفاء الطّابع الذّكوريّ masculinisation على الرّوائيّ والرّواية. وهي ظاهرة تثير الدّهشة أكثر إذا ما علمنا أنّ النّساء كنّ بالفعل قارئات كبيرات للرّوايات في ذلك الوقت. وكما استنتج ذلك لانغليز، فإنّ «مجال النّشاط شبه المتكافئ حوالي عام 1815 أصبح ممثّلا حوالي عام 1840 من قبل مؤسّسة ذكوريّة حصريّا. وهكذا، في ظرف ثلاثين عاما اختفت

النّساء الأديبات: فمن حيث النّسبة لم يعد عددهنّ كبيرا، ومن حيث التّمثيل لم يعدن يمثّلن شيئا».

إنّ عمليّة إزالة الطّابع الأنثويّ هذه تتكرّر باستمرار، فهي تستنسخ نفسها في تاريخنا. ويبدو أنّه كلّما استعادت النّساء مكانتها وبرزت من جديد، يجري محوهنّ وتهميشهنّ لاحقا، قبل أن ينجحن من جديد في العودة إلى السّاحة. ظاهرة يجب أن تدفعنا، في عصر ميتو MeToo#، إلى التّفكير. فنحن لسنا في مأمن من أن يتمّ محونا مرّة أخرى.

إنّه في سياق اعتقال النّساء هذا يجب علينا فهم أهمّيّة ظهور المتاجر الكبرى والاستهلاك الجماهيريّ في نهاية القرن. درست ليورا أوسلاندر Leora Auslander كيف أنّ افتتاح المتاجر الكبرى قد مثّل فرصة لنساء الطّبقة البرجوازيّة، اللّواتي كان وجودهنّ مقتصرا على الفضاء المنزليّ، للخروج من البيت. فمن ناحية، يمكن أن نرى في ذلك استلابا رأسماليّا، لأنّ هدف الحياة يتركّز حول فعل الاستهلاك. ومن ناحية أخرى، يمكن أن نرى فيه تحرّرا. لقد توفّر للنّساء سبب للخروج من البيت والتّجوّل في الشّوارع، وكانت التّجارة تشجعهنّ على القيام بذلك. كان الذّهاب للتّسوّق ذريعة سمحت لهنّ بلحظات من الاستكشاف والتّنزّه، وباختراقات محتشمة للفضاء العامّ. فهل تغيّرت بذلك الأمور كثيرا عمّا كانت عليه في السّابق؟ في تلك الفترة، كان بإمكان الرّجال أن يتنزّهوا، فالعالم الخارجيّ ملك لهم. لا يهمّ الوقت، فكلٌّ منهم كان بإمكانه أن

يحدّث نفسه قائلا «سأعود إلى المنزل مشيا على الأقدام، فأنا أريد أن أتمشّى قليلا». أمّا النّساء، فلم يكن لهنّ الحقّ في إتيان مثل هذا السّلوك البسيط. لأنّ التّجوّل لم يكن منصوحا به لهنّ. فلا وقت لديهنّ ليضعنه، كما أنّ الفضاء ليس فضاءهنّ. لقد كان وجودهنّ خاضعا للرّقابة والتّنظيم باستمرار (من خلال الجداول الزّمنيّة وأزيائهنّ). في هذا السّياق، ألم يكن التّمسّك بالتّسوّق يمثّل دائما وسيلة لتبرير الخروج؟

ولكن التّجوّل ظلّ بالطّبع مسألة برجوازيّة. فالمرأة الشّعبيّة لم تكن منكفئة على نفسها في بيتها لتسوّي بأصابعها الرّقيقة مفرشها المصنوع من الدّانتيل. بالنّسبة إلى المؤرّختين الكبيرتين ميشيل بيرو وجوان دبليو سكوت Joan W. Scott، كانت المرأة العاملة إحدى أبرز الشّخصيّات النّسائيّة في القرن التّاسع عشر. كانت النّساء يشتغلن دائما، ولكن حتّى ذلك الحين، كان مكان عمل الرّجل والمرأة على حدّ سواء هو المنزل. كان ذلك الزّمن هو عصرُ ما يسمّى بنمط الإنتاج المنزليّ، حيث كانت الأسرة تشكّل وحدة اقتصاديّة، سواء كانت مزارعة أو حرفيّة. وفي القرن التّاسع عشر، بدأ نمط الإنتاج الصّناعيّ يحلّ محلّ الإنتاج المنزليّ. لقد قام هذا التّصنيع بنقل العمالة نحو المصانع.

طرحَ الفصلُ بين المنزل والعمل الّذي ظهر بعد ذلك مسألة وضع المرأة.

لقد بات مشكلة تستوجب الحلّ. فكيف يمكن للمرأة أن تعمل وتكون في الوقت نفسه أُمّا صالحة وربّة منزل جيّدة؟ هل يجب على المرأة أن تكسب المال؟ ما هو العمل المناسب لها؟ لقد تمّ اعتبار أنّ النّساء لم يكن لديهنّ صعوبة في المصالحة بين العمل والأسرة طالما بقين يعملن في المنزل. ولكن ما العمل الآن بعد أن أصبحت مواقع الإنتاج بعيدة فعليّا عن المنازل؟

لقد تأثّرت عمالةُ المرأة بذلك. كان يتمّ توظيفهن أساسا قبل الزّواج، حتّى سنّ الخامسة والعشرين، وهكذا كنّ يجمعن مهرا. بعد ذلك، صرن يواصلن نشاطهنّ في وضع أكثر هشاشة، وغالبا ما كنّ يتلقّين أجرا مقابل كلّ مهمّة على حدة، ويتكيّفن وفقا لاحتياجات المنزل والولادات. كنّ يخترن الأعمال (خاصّة المنسوجات) الّتي يمكنهنّ القيام بها في المنزل، في نهاية أيامهنّ الطّويلة. وكان هذا يسمّى «كسبا إضافيّا». وفي هذا السّياق، كانت إحدى الحجج الّتي تستعملها الأحزاب المسمّاة يساريّة في ذلك الوقت للمطالبة بالزّيادة في أجور العمّال، هي أنّ تلك الزّيادة من شأنها أن تسمح لزوجاتهنّ بالبقاء في المنزل وعدم اضطرارهنّ إلى الخروج للعمل.

ولكن بحلول نهاية القرن، فُتحت سلسلة كاملة من الوظائف الجديدة أمام النّساء. وكما توضّح جوان دبليو سكوت Joan W. Scott، كلّما كان الاقتصاد يزداد تعقيدا، كانت البيروقراطيّة والإدارة تزدادان نموّا: فصارت هناك حاجة متزايدة إلى الموظّفات والكاتبات على الآلة الكاتبة والسّكرتيرات في مكاتب المؤسّسات والإدارة.

بالإضافة إلى ذلك، أدّى الإنتاج الضّخم إلى التّوزيع على نطاق واسع، وحلّت المتاجر الكبيرة محلّ المتاجر الصّغيرة المملوكة للعائلات، والّتي تشغّل عددا كبيرا من البائعات. كان التّعليم الإلزامي يحتاج إلى معلّمين، ويتمّ تعيين موظّفي الخدمة المدنيّة عند إنشاء الخدمات الاجتماعيّة والصّحّيّة[38]. هذا ما يُعرَف بالقطاع الثّالث - الّذي كان في البداية أنثويّا للغاية. في نفس الوقت، كان يجري تطوير البريد والهاتف والتّلغراف. مع العلم أنّه مقابل نفس الرّاتب، كان يمكن توظيف امرأة متعلّمة تعليما عاليا أو رجلا ذا تعليم متوسّط، ولذلك كان أرباب العمل يسارعون إلى حساب أيّهما أكثر أهمّيّة.

عدا عن مزرعة الأسرة التّي كانت تمثّل استثناء رئيسيّا، أصبحت النّساء يعملن بشكل متزايد بعيدا عن المنزل، ولكنّ هذا لم يكن يرضي النّظام الذّكوريّ الجديد. لذلك بحث السّياسيون عن طرق لإعادتهنّ إلى بيئتهنّ الطّبيعية، أي إلى المنزل.

(38) - في Louise A. Tilly et Joan W. Scott, Les Femmes, le travail et la famille، بايو، 2002، ص.254.

13

مقاومتهنّ النّظامَ الذّكوريَّ للقرن التّاسع عشر

لا ينبغي تصديق أنّ هذا النّظام الذّكوريّ قد تأسّس دون مقاومة. لقد كانت النّسويات هناك، حاضرات، ومتماسكات. كان هناك أوّلا «نساء 48»، وفق التّسمية الّتي أُطلِقت على أولئك اللّواتي شاركن في ثورة 1848 (بعد سقوط نابليون الأوّل، عاد النّظام الملكيّ ليمسك بالسّلطة حتّى عام 1848 وإعلان الجمهوريّة الثّانية. لكن، بعد ثلاث سنوات، كانت الإمبراطوريّة الثّانية مع نابليون الثّالث). إنّ أقلّ ما يمكننا قوله عنهنّ هو أنّهنّ كنّ راديكاليات. فأولئك اللاّئي كنّ في كثير من الأحيان سان سيمونيات saint-simoniennes قد وضعن موضعَ تساؤل الجنسانيّةَ (كنّ يدافعن عن الحبّ الحرّ)، والوالديّة (كنّ يتحدّثن عن «الأمّ الاجتماعيّة») والعلاقاتِ الطّبقيّةَ (كنّ ينادين إلى اتّحاد جميع النّساء).

عندما ننظر إلى أجواء تلك الحقبة، ندرك الشّجاعة الّتي تحلّت بها تلك النّساء اللّواتي كانت الصّحف تسخر منهنّ، واللاّئي تعرّضن للإهانة في الاجتماعات العامّة، وسُجنت الكثيرات منهنّ. بولين رولان Pauline Roland، على سبيل المثال، هي برجوازيّة صغيرة

من الأقاليم انتقلت إلى باريس في سنّ السّابعة والعشرين. كانت تريد أن تعيش حياة حرّة هناك. كانت تظهر مع عشّاقها خارج نطاق الزّواج، بل لقد قرّرت رعاية الأطفال الّذين أنجبتهم من هذه العلاقات الحرّة بمفردها. صارت ناشطة (بوصفها مؤلّفة وصحفيّة) وعملت (مترجمة ومعلمة) لإطعام أطفالها الثّلاثة. قالت: «لن أوافق أبدا على الزّواج من أيّ رجل في مجتمع لا أستطيع فيه تحقيق الاعتراف بمساواتي الكاملة مع الشّخص الّذي سأتزوّج منه». عندما توفّيت ناشطة نسويّة كبيرة أخرى في ذلك الوقت، هي فلورا تريستان Flora Tristan، تولّت بولين رولان أيضا مسؤوليّة رعاية ابنتها. شاركت في ثورة 1848 وانتهى بها الأمر في السّجن. ثمّ قاومت انقلاب نابليون الثّالث عام 1851. وفي هذه المرّة حُكم عليها بالتّرحيل إلى الجزائر لمدّة عشر سنوات. عملت المقرّبات منها، بمن فيهنّ جورج ساند، كلّ ما استطعن لتخفيف عقوبتها. ولكن عندما تمّ إطلاق سراحها، كانت هزيلة جدّا لدرجة أنّها قضت وهي في طريق العودة، دون أن تتمكّن من رؤية أطفالها مرّة أخرى. أهدى لها فيكتور هوغو قصيدة بعنوان «العقاب Les Châtiments».

كان هناك أيضا جميع النّاشطات الأخريات، ومعظمهنّ كنّ كاتبات وصحفيّات، ومؤسّسات صحف كصحيفة صوت النّساء La Voix des femmes أو سياسة النّساء La Politique des femmes، ونذكر منهنّ فلوار تريستان Flora Tristan (1803-1844)، أوجيني نيبوياي Eugénie Niboyet (1796-1883)، سوزان فوالكين Suzanne Voilquin (1801-1876)، جين

دوروان Jeanne Deroin (1805-1894)، إيليزا لومونييه Élisa Lemonnier (1805-1865)، دايزيري غاي Désirée Gay (1810-1891)، ماري رين غيندورف Marie-Reine Guindorf (1812-1837)، أديل أسكيروز Adèle Esquiros (1819-1886)، أناييس سيغالا Anaïs Ségalas (1811-1893)، وجيني ديريكور[39] Jenny d'Héricourt (1809-1875).

أدعوكم إلى قراءة كتاب لور أدلر Laure Adler الرّائع حول هؤلاء الصّحافيات الرّائدات2[40]. إنّها تروي فيه كيف تحرّرت هؤلاء النّساء وسعين إلى تحرير الأخريات، على الرّغم من العبء الثّقيل الّذي كان يطحنهنّ. «لقرون عديدة كانوا يردّدون على مسامعهنّ دون توقّف بأنّهنّ عديمات القيمة حتّى بتن الآن مقتنعات بذلك». هذا الكتاب، الّذي نُشر في عام 1979، يتردّد صداه قويّا لدى الحركات النّسويّة الحاليّة. كانت لور أدلر حينذاك تناضل من أجل حركة تحرير المرأة في السّبعينيات، واكتشفت، من خلال عملها البحثيّ، هؤلاء النّساء الأخريات اللاّتي سبقنها هي وصديقاتها إلى التّحرّك بالفعل، ولكن تمّ نسيانهنّ[41].

---

(39)- للاطّلاع على قصص عن حياتهنّ وحياة ورثتهنّ، انظر الكتاب الجميل جدّا Ne nous libérez pas, on s'en charge، بقلم بيبيا بافار Bibia Pavard وفلورنس روشفور Florence Rochefort وميشيل زنكاريني فورنيل Michelle Zancarini-Fournel.

(40)- À l'aube du féminisme, les premières femmes journalistes 1830-1850. لسوء الحظّ، لا يتوفّر إلاّ في شكل إصدار رقميّ.

(41) - الغريب أنّها لم تذكر شيئا عن الفترة الفاصلة بين عام 1848 وتأسيس حركة

كَتَبَتْ في المقدّمة ما يلي: «على مدى عشرين عاما، باستمرار وبلا كلل، ناضلتْ عشرات النّساء، البرجوازيات والبروليتاريّات، من خلال الكتابة بصفتهنّ نساء ومن أجل النّساء. نحن لم نخترع أيّ شيء. فجريدة Le torchon brule، وقد صدرت بعد ماي [68]، تشبه بشكل غريب صحيفة La Femme libre، الّتي كانت أوّل صحيفة فرنسيّة نسويّة. بعد مائة وأربعين عاما، نحن لا نفعل سوى الانطلاق من جديد.»

بإمكاننا استعادة هذه الصّيغة.

عندما اشتغلتُ على موضوع الأعمال المنزليّة(42)، اكتشفت أنّنا كنّا نكرّر فقط ما كتبته بالفعل هؤلاء النّساء سابقا في Le torchon brule. لقد كتبن عن العبء الذّهنيّ، والإرهاق الّذي تعاني منه النّساء، والملل من تدبير المنزل، والشّعور بالوحدة. في وقت مبكّر من عام 1970، الكثير ممّا نقوله اليوم قد قيل بالفعل وتمّ تحليله. ولكن يبدو أنّه محكوم على كلّ جيل من النّسويات بالتّكرار، بسبب تعرّض عمل أولئك اللّواتي سبقنه للمحو والنّسيان.

ومع ذلك، من خلال كتاب لور أدلر Laure Adler، ندرك إلى أيّ مدى تواجه كلّ حركة نسويّة نفس الأسئلة والصّعوبات. في أيّ

التّحرير النّسويّة MLF، والحال أنّ الحركة النّسويّة عموما والصّحافة النّسوية على وجه الخصوص، سيكون لها ستشهد لحظات أخرى من المجد في نهاية القرن التّاسع عشر. ولكن من المؤكّد أنّ هذا دليل آخر على ضياع ذاكرة ثقافة النّساء.

(42) - انظر Libérées, le combat féministe se gagne devant le panier de linge sale، فايار، 2017.

لحظة تصبح حركة ما فئويّة؟ من ينتحل لنفسه الحقّ في الاستبعاد؟ كيف تُدارُ خلافاتنا؟ كانت نساء 1848 يقلن: «لا توجد بيننا منبوذات». وقد تحدّثت أدلر بالفعل عن الإرهاق النّضاليّ. فقد كتبت حين أشارت إلى انتحار الصّحفيّة والنّاشطة كلير ديمار Claire Démar عام 1833: «حتّى لا يكون نضالُ النّساء مميتا، فإنّه يجب أن يكون جماعيّا.»

دعونا نَعُدْ إلى نسائنا في عام 1848. لقد كتبن كثيرا ونشرن العديد من الصّحف، كما تبنّين خطط عمل، أي «أحداثا يوميّة» كما كان يقال عندما كنتُ صغيرة. فلأنّهنّ أصبن بخيبة أمل بسبب أنّ الجمهوريّة الجديدة (الّتي لم تعمّر كثيرا بعد ثورة 1848 وقبل الإمبراطوريّة) لم تمنحهنّ حقّ التّصويت، دَعَيْنَ قارئاتهنّ إلى التّوجّه إلى مراكز الاقتراع لمحاولة التّصويت وجعلهم يرفضون أخذ أصواتهنّ بعين الاعتبار. لا يجب تقبّل الأشياء بشكل سلبيّ.

ولكنّهنّ لم يتوقّفن عند هذا الحدّ: فقد قرّرن ترشيح امرأة في الانتخابات. بعد أن طلبت منهنّ جورج ساند بشكل أو بآخر أن يغامرن ولو بالفشل، كانت جين ديروين Jeanne Deroin، عاملةُ الغسيل الّتي أصبحت معلّمة ثمّ صحفيّة، هي من أخذ زمام المبادرة. لقد كنّ يعلمن أنّ هذا التّرشيح عبثيّ، ولكن في الوقت الّذي كان يتمّ فيه التّأكيد في كلّ مكان على إلغاء الامتيازات، فإنهنّ أردن التّذكير بأنّ المجتمع كان قائما على الامتياز الذّكوريّ.

مرّة أخرى، كنّ عرضة للسّخرية. ففي الاجتماعات العامّة، كان يتمّ منعهنّ من التّحدّث من خلال إطلاق صيحات الاستهجان عليهنّ.

يجب القول إنّه لم يكن بإمكانهنّ الاعتماد على دعم اليمين، أمّا اليسار ... فلم يكن أفضل بكثير. ومع ذلك، كان الكثير منهنّ اشتراكيات، ولكنّ أحد كبار المفكّرين السّياسيين اليساريين في ذلك الوقت، بيير جوزيف برودون Pierre-Joseph Proudhon، كان يكرّس قدرا كبيرا من الوقت للكتابة في المنتديات الحرة يشرح من خلالها كيف أنّ النّساء... أقلّ شأنا وأنّه يجب الحفاظ على نظريّة المجالين. فـ «المساواة السّياسية بين الجنسين [...] لا تجافي المنطق فحسب، بل وأيضا الضّمير البشريّ وطبيعة الأشياء.»

ولكن ماذا كانت تريد هؤلاء الشّرسات؟ أشياءَ كثيرة... كإصلاح الطّلاق، والمساواة في الأجور، والحقّ في التّصويت، وتوزيع أفضل للأعمال المنزليّة، والحرّيّة الجنسيّة، والحصول على وظائف أفضل، وحماية الأمّهات العازبات.

كان هناك مطلب أساسيّ واحد يربط بينهنّ جميعا، بعيدا عن الخلافات: إنّه التّعليم. كانت الكثيرات منهنّ يعتقدن أنّه من دون تعليم لن يكون للحقّ في التّصويت معنى يُذكر. فهذا مرتبط بذاك. كما أنّ ذلك كان من شأنه أن يجعلهنّ يطمحن إلى الحصول على وظائف أكثر جدارة، ويمكن أن يُبطل هذا الرّاتبَ الأنثويَّ الّذي كان يجبر النّساء على الاعتماد على الرّجل.

وقد تمكّنّ من تحقيق ذلك. كان القرن التّاسع عشر أيضا القرن العظيم لتعليم الفتيات. قامت إليسا ليمونييه Elisa Lemonnier بإعداد تدريب مهنيّ للعاملات الشّابّات. تكاثرت مدارس البنات – وبقيت مشكلة ماذا سيُدرَّس فيها. كان الاعتقاد هو أنّ المرأة لم تكن تحتاج إلى معرفة نفس الأشياء الّتي يعرفها الرّجل. كان عليهنّ أن يستوعبن الدّورات الكلاسيكيّة، بالإضافة إلى قدْر كبير من الخياطة والدّانتيل والرّسم («فنون التّرفيه»، كما كانت تُسمَّى في ذلك الوقت)، وقريبا التّعليم المنزليّ. كانت هناك خشية من أنّ دراسة موضوعات خطيرة للغاية من شأنها أن تؤثّر سلبا على صحّتهنّ. إذ ينبغي الاعتراف بالحقيقة البديهيّة المتمثّلة في أنّ لديهنّ رؤوسا أصغر من رؤوس الرّجال، فكيف إذًا يمكنهنّ تعلّم الكثير من الأمور؟ درست المؤرّخة فرانسواز مايور Françoise Mayeur، المتخصّصة في هذه المسألة، كيف كانت جودة التّدريس بالفعل مختلفة جدّا من مؤسّسة تعليميّة إلى أخرى.

في عام 1861، تمّ كسر قفل ضخم بفضل جولي فيكتوار دوبييهJulie- Victoire Daubié الّتي جاءت من البرجوازيّة الكاثوليكيّة. في عام 1844، حصلت على شهادة الكفاءة المؤهِّلة للتّدريس، وقد كانت الشَّهادة الوحيدة المتاحة للفتيات في ذلك الوقت. كان لديها عطش للمعرفة وبعض الثّقة بالنّفس. وساعدها شقيقها على تعلّم اللاّتينيّة واليونانيّة. التحقت بمتحف التّاريخ الطّبيعيّ لمتابعة دروس علم الحيوان عند عالم الطّبيعة جيوفروي سان إيلارGeoffroy Saint-Hilaire. بل لقد حصل لها على ترخيص

للحضور والدّراسة خارج ساعات الدّوام الرّسميّ. في عام 1859، فازت بالجائزة الأولى لأكاديميّة ليون للعلوم والفنون الجميلة عن مقال رائع نُشر لاحقا تحت عنوان «المرأة الفقيرة في القرن التّاسع عشر بعيني امرأة فقيرة La Femme pauvre au XIXe siècle par une femme pauvre» (يا له من عنوان معبّر!). لقد هاجمت فيه مجتمع التّقدم المزعوم وشهّرت بعالم متحيّز جنسانيّا على نحو متزايد ضدّ المرأة: «يبدو أنّ التّطوّرات الحضاريّة المتسارعة قد أخفقت في تحسين هذه الوضعيّة الحزينة للمرأة، بل إنّها لم تؤدّ إلاّ إلى تفاقمها من خلال إقصائها كلّ يوم عن الأعمال والوظائف الّتي كانت تختصّ بها في السّابق.»

لا شيء كان قادرا على إيقافها. لقد قرّرت أن تثبت أنّ الدّونيّة الفكريّة المفترَضة للمرأة كانت مجرّد أسطورة، ولهذا، مرّت إلى الفعل. فأجرت بعضَ الأبحاث واكتشفت أنّه، من النّاحية القانونيّة، لم يكن هناك أيّ قانون يمنع المرأة من التّسجيل في امتحان البكالوريا. كان يتمّ التّصرّف كما لو أنّ ذلك ممنوع عليهنّ، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك قانونيّا. إنّ تفسير ذلك بسيط: فقد كان من البديهيّ للغاية أنّه ما من امرأة تجتاز البكالوريا لدرجة أنه تمّ نسيان تحديده في النّصوص. لذلك قرّرت دوبييه التّسجيل في الامتحان. جوبه تسجيلها في العديد من الأكاديميات بالرّفض، ولكنّها تمكّنت من الحصول على الموافقة في ليون. في عام 1861، فازت برهانها: لقد أصبحت أوّل امرأة تحصل على البكالوريا. كان عمرها حينذاك 37 عاما، وقد تمكّنت من فتح سبيل جديدة للنّساء.

أصبحت بعد ذلك صحفيّة اقتصاديّة واشتغلت على مسألة الاستقلال الاقتصاديّ للنّساء، ولا سيما غير المتزوّجات منهنّ، ومسألة الفوارق في الأجور. كما أنّها كانت تناضل من أجل حقّ المرأة في التّصويت وتواصل مسيرتها الجامعيّة في الوقت نفسه. فبما أنّها تحصّلت على شهادة البكالوريا، فقد أمكنها تسجيل نفسها في الكلّيّة. وفي عام 1871، أصبحت أوّل امرأة تحصل على درجة الإجازة في الآداب. (كان يحقّ لها إجراء الامتحان ولكن ليس حضور الدّروس في الفصل ...) هاجمت جولي فيكتوار دوبييه بشكل عمليّ كراهيّة النّساء misogynie في المؤسّسة المدرسيّة وانتصرت. وستحذو حذوها أخريات.

في النّصف الثّاني من القرن، برزت حركة أخرى. كانت تعبئةً اجتماعيّةً نسائيّةً حقيقيّةً تمّ اختصارها في كثير من الأحيان في تعبيرات من قَبيل «القيام بالأعمال الصّالحة». في ذلك الوقت، كان من واجب المرأة المسيحيّة المتديّنة مساعدة النّساء الأكثر فقرا. كانت هذه هي وظيفتها بوصفها أُمًّا اجتماعيّة: الاعتناءُ بالأخريات وتكريسُ الوقت لهنّ. انبثق من المحبّة المسيحيّة ما سوف يُعرَف في القرن العشرين بالعمل الاجتماعيّ. في القرن التّاسع عشر، تنظّمت هذه المهمّة في شكل جمعيّات لمكافحة (إدمان الكحول، والأمّهات غير المتزوّجات) أو رابطات من أجل (النّظافة والأخلاق). وقد تطوّرت هذه الحركة لأنّه مع التّصنيع والتّوسّع الحضريّ تضاعفت مشاكل الإسكان غير الصّحّيّ، وإدمان الكحول، والدّعارة، والأوبئة. (يمكن هنا إدراج أيّ رواية من روايات زولا تقريبا عن

البؤس الاجتماعيّ). وبالتّالي كانت هؤلاء المتطوّعات مكلّفات من المجتمع بإصلاح هذه الشّرور.

ولكنّ هؤلاء النّساء سرعان ما فهمن الأهمّيّة السّياسيّة الحقيقيّة لمهمّتهنّ[43]. لقد تركن بيوتهنّ وواجهن قسوة المجتمع. لقد رغبن في أن يلعبن دورا فيه. وهكذا تعلّمن كيف ينتظمن ويتصرّفن[44]. كان لكلّ منهنّ معركتها الخاصّة بها. في فرنسا، أرادت أونرييت برونهيس Henriette Brunhes مساعدة عاملات النّسيج اللاّتي كنّ يعملن في البيوت. ولهذا، قامت بمحاولات لتوعية الزّبونات. فطلبت منهنّ التّخطيط مسبقا لأزيائهنّ قبل وقت معقول، حتّى لا تُضطرّ العاملات للعمل ليالٍ كاملة في اللّحظة الأخيرة. وهكذا، من خلال الرّبط بين فعل الشّراء وظروف عمل العاملات، اخترعت ما نسمّيه «الموضة الأخلاقيّة والمسؤولة».

اكتشفت هؤلاء النّساء التّنظيم الماليّ والإداريّ، فقمن بإجراء دراسات استقصائيّة اجتماعيّة. كنّ على مفترق طرق ما نسمّيه في الوقت الحاضر بالتّعهّد والفضاء الجمعيّاتيّ. لا ينبغي التّقليل من أهمّيتهنّ. فقد كنّ يقمن بحملات تحسيسيّة، ويقترحن مشاريع

(43) - في Femmes, race et classe (1981)، ترصد أنجيلا ديفيس Angela Davis مسارا مماثلا نوعا ما في الولايات المتّحدة. فقد خاضت نساء الطّبقة البرجوازيّة البيضاوات معركة ضدّ العبوديّة. ومن هذا الالتزام نشأت أولى الحركات النّسويّة الأمريكيّة.

(44) يمكننا تقديم مثال مشهور جدّا على ذلك في العالم الأنغلوسكسونيّ: هو فلورنس نايتنغيل Florence Nightingale (1820-1910). كما يمكننا إدراج ماريا مونتيسوري Maria Montessori الّتي قرّرت مدّ يد العون للأطفال الّذين تخلّى عنهم المجتمع.

قوانين (من أجل التّقدّم الاجتماعيّ)، ويُنشئن هياكل، ويعقدن اجتماعات. وهكذا أخذ العمل الخيريّ يتحوّل بشكل متزايد إلى عمل اجتماعيّ. فبينما كانت هؤلاء النّساء يذهبن في السّابق لرؤية عدد قليل من الفقيرات في بيوتهنّ، أصبحن يفتحن مراكز استقبال بدوام كامل. لقد كان عملا اجتماعيّا يفضي منطقيّا إلى التزام سياسيّ. فأخذن في الضّغط على الحكومات لتغيير التّشريعات. لقد أصبحن، على حدّ تعبير ميشيل بيرو Michelle Perrot، «وزيرات الفقراء[45]».

كان هناك، خلف الحواجز الطبقيّة، رابط بين النّساء البرجوازيات والبروليتاريات: وهو أنّهنّ كنّ بلا صوت، ومحرومات من السّلطة السّياسيّة الرّسميّة. ناضل بعض هؤلاء النّساء في حركات منادية بحقّ المرأة في الاقتراع. ووقفن ضدّ قوانين وضعتها سلطة أبويّة لأنّها كانت حكرا على الرّجال فقط.

كما أنّهنّ ساندن العاملات في تحرّكاتهنّ المتمرّدة الّتي كان عددها بلا شكّ قليلا قبل نهاية القرن - وهذا كان يرجع جزئيًا بالتّأكيد إلى أنّ النّقابات لم تكن تثق بالنّساء وتستبعدهنّ في معظم الأوقات من فعالياتها.

---

(45) - أظهرت سيلفي فايت سكريب Sylvie Fayet-Scribe أهمّيّة الالتزام المسيحيّ لهؤلاء النّساء في التّعليم الشّعبيّ والمساعدة الاجتماعيّة. هذا أيضا شكل من أشكال النّسويّة المسيحيّة الّذي ظهر هنا.

لذلك أطلقت النّساء حركاتهنّ الاجتماعيّة الخاصّة بهنّ على غرار إضراب عام 1905.

عرفتُ ذلك للمرّة الأولى من الباحثة سيلفي كرومر Sylvie Cromer، الّتي روت هذه القصّة ذات مؤتمر. وقد استندَت بشكل خاصّ إلى كتاب Le Droit de cuissage en France 1860-1930[46]، لماري فيكتوار لويس Marie-Victoire Louis، الّذي يستعيد مسار تلك الحركة.

في نهاية القرن التّاسع عشر، كان هناك في فرنسا ما يسمّى بالإضرابات من أجل الكرامة. فقد كانت العاملات يتجمّعن للتّنديد بالتّحرش الجنسيّ لبعض مديري ورش العمل. وقد وصلت هذه الحركة ذروتها في عام 1905، في ليموج.

كان أهمّ مصنع للخزف في المدينة مملوكا لرجل يدعى شارل أفيلاند Charles Haviland. كان يشغّل 5740 رجلا و2400 امرأة و1528 طفلا (نعم، أطفال. لأنّه من دون عمالة الأطفال كان الاقتصاد لينهار، كما كان يُزْعَمُ ...). كان أحد رؤساء العمّال، واسمه

(46) - كانت ماري فيكتوار لويس Marie-Victoire Louis أيضا قد أسّست الرّابطة الأوروبيّة لمناهضة العنف ضدّ المرأة في العمل (AVFT). في بداية هذا الكتاب، الّذي يمكن الاطّلاع عليه على الإنترنت، كتبت هذه الملاحظة المؤلمة: "أخيرا، أودّ أن أهدي هذا الكتاب لهذه المرأة الّتي - مثل كثيرات أخريات – لن يحتفظ تاريخها إلاّ بهذه الفقرة الصّغيرة المنشورة في 10 ماي 1982 في Le Quotidien de Paris : "عاملة من إيندر Indre أُحرقت حتى الموت على يد زوجها مساء السّبت. كانت الزّوجة الشّابّة البالغة من العمر 23 عاما قد أخبرته للتوّ بأنّ ربّ عملها قام باغتصابها في ذلك الصّباح. غضب زوجها، فقيّدها وسكب عليها الكيروسين وأضرم النّار فيها". منذ ذلك الحين، لم تغب عنّي ذكراها أبدا".

بينو Penaud، مشهورا بإجباره النّساء على المرور عبر ممرّ صغير، وبعد ذلك ... كلّ من كانت ترفض الانصياع لمضاجعته يتمّ طردها.

عندما نرى كيف يتمّ التّعامل مع النّساء اليوم حين يتقدّمن بشكوى اغتصاب ضدّ رجل أقوى منهنّ، يمكننا أن نتخيّل أنّ الأمر لم يكن سهلا في عام 1905 بكلّ تأكيد.

ومع ذلك، فقد تلقّت الغرفة النّقابيّة للخزف العديد من الشّكاوى. ولكن لا شيء كان يحدث. فقد اعتبر أفيلاند أنّ حرّيته في اختيار المتعاونين معه بوصفه رئيسا أصبحت محلّ تشكيك. ولأنّه كان يعتبر بينو جيّدا جدّا، دعّمه.

تزايد الضّغط في صفوف العمّال والعاملات. فتمّت الدّعوة إلى إضراب وقرّرت النّقابة المحلّيّة لأوّل مرّة مساندة العاملات. وهكذا استفاد الإضراب من دعم النّقابة الماليّ. كان المطلب الرّئيسيّ مع ذلك بسيطا، ألا وهو رحيل بينو، أو على الأقلّ تخفيض رتبته إلى مركز عامل بسيط.

لكن بينو، بالاتّفاق مع أفيلاند، أوضح أنّه بالنّظر إلى طبيعة الوقائع المتّهم بها، فإنّه حفاظا على شرفه لن يستقيل. السّياسيون، من جهتهم، قلّلوا من أهمّيّة هذا الإضراب على أساس أنّه كان يفتقر لمطالب جادّة (أي متعلّقة بالأجور). كانوا لا يرون فيه سوى مشاكل بسيطة في الأخلاق وقابليّة التّأثّر. انضمّت مصانع أخرى إلى الحركة، ونُظّمت اعتصامات ومظاهرات. تمّ إرسال الجيش على الفور (هذا دائما علامة كبيرة على التّهدئة). حدثت اشتباكات، وانفجرت قنبلة.

وأخيرا تمّ استبعاد بينو، ولكن لقي عاملُ خزف يبلغ من العمر 19 عاما حتفه خلال أعمال الشّغب.

قد يذهب إلى ظنّ البعض أنّ حالة هؤلاء العاملات كانت لتمنعهنَّ من الحديث عن هذه المشاكل. كلاّ، لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق: لقد أضربن، وتظاهرن احتجاجا على هذه الاعتداءات الجنسيّة والاغتصاب. مرّة أخرى، نحن لم نأت اليوم بأيّ شيء جديد. وما يثير اهتمامي أكثر هو أنّ هذا يبيّن لنا بكلّ وضوح أنّ شجب العنف ليس من اختصاص طبقة اجتماعيّة أكثر «استنارة» أو تقدّما. كلاّ، هذا ليس صحيحا على الإطلاق. من حيث النّضال الملموس ضدّ أشكال العنف المسلّط على النّساء، كانت العاملات متقدّمات على النّساء البرجوازيات. وبالإضافة إلى ذلك، مازلت أفكّر في زخم الإضراب. هل يمكن أن نتخيّل اليوم شنّ إضراب من أجل هذه القضايا؟ قد تكون حركة أنا أيضًا MeToo# رائعة، ولكنّها لم تدْعُ يوما إلى توقّف عن العمل من شأنه أن يكون له تأثير على الاقتصاد.

من الواضح أنّ حجم تعبئة عام 1905 يمكن تفسيره بأنّها كانت تتعلّق بكرامة طبقة اجتماعيّة تشعر بأنّها مستغَلّة بالفعل. ولهذا فإنّ العمّال هم من نزلوا إلى الشّارع مع العاملات وليس زوجات أرباب العمل. لقد تفوّق الوعي الطّبقيّ على الوعي الجندريّ.

في زمن ميتو MeToo#، كانت النّساء اللّواتي يعملن في شركة تنظيف القطارات في محطّة قطار الشّمال Gare du Nord قد اشتكين

بالفعل منذ فترة طويلة إلى محاكم العمل بسبب التّحرّش. لم ينتظرن أيّ شخص لفعل ذلك. كانت أيضا امرأةٌ تعمل عاملة تنظيف، تدعى نفيساتو ديالو Nafissatou Diallo، هي من قدّم شكوى ضدّ دومينيك شتراوس كانDominique Strauss-Kahn. لذلك، يمكننا القول بالطّبع إنّه نظرا لأنّهنّ يُنظر إليهنّ على أنهنّ أضعف، فسوف يتعرّضن للمضايقة أكثر. ولكن يمكننا أيضا أن نعتقد أنّ النّساء من الطّبقات الاجتماعيّة الميسورة، قد تحمّلن هذا المضايقات لفترة أطول، لأنّ الانتماء الطّبقيّ على وجه التّحديد كان أقوى و / أو لأنّه كان هناك المزيد ممّا يخسرنه.

لئن كان العنف المسلّط على المرأة قد شمل جميع الأوساط الاجتماعيّة، إلاّ أنّ النّساء المنتميات إلى خلفيات شعبيّة بالتّحديد هنّ من مهّدن لنا الطّريق.

دعونا نعد إلى مناضلاتنا في هذا النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر. فبالإضافة إلى السّيّدات الرّاعيات المسيحيّات، كانت هناك أيضا النّسويات العظيمات لتلك الحقبة، واللّواتي غالبا ما كنّ يساريات للغاية، وشارك عدد منهنّ في الكومونة عام 1871. كنّ خلف المتاريس، مثل الرّجال تماما. يمكننا بطبيعة الحال أن نستحضر الكاتبة والنّاشطة لويز ميشيل Louise Michel (1830-1905)، ولكنّني أريد أن أتوقّف في بضعة أسطر عند إحدى رفيقاتها في النّضال الأقلّ شهرة منها: وهي ناتالي ليميل Nathalie Lemel. كانت ناتالي ليميل من بريتون، ثمّ انتقلت مع زوجها إلى باريس

لأسباب اقتصاديّة. كانت عاملةَ تجليد كتب. وكانت أيضا اشتراكيّة ونسويّة. انضمّت إلى الأمميّة وانتُخبت حتّى مندوبة نقابيّة، وهو أمر كان نادرا بالنّسبة إلى المرأة. تركت زوجها المدمن على الكحول وكرّست المزيد من الوقت للنّضال. شاركت في تأسيس تعاونيّة غذائيّة (ألم يسبق أن أخبرتكم بأنّنا لم نخترع شيئا؟) ومطعم للعمّال. خلال الكومونة، كانت مسؤولة على حاجز شارع بيغال Pigalle. ولهذا، حُكم عليها في عام 1873 بالتّرحيل إلى كاليدونيا الجديدة والسّجن هناك، حيث تقاسمت كوخا مع لويز ميشيل. استفادت من العفو في عام 1880 ثمّ استأنفت نشاطها بوصفها ناشطة نسويّة. توفّيت عام 1921، في دار العجزة، في حالة من البؤس. دخل اسمُ رفيقتها في السّجن، وليس اسمها هي، إلى التّاريخ.

أسّست هؤلاء المناضلات الدّؤوبات جمعيّات متّحدة على المستوى الدّوليّ. وأقمن مؤتمرات نسويّة. كانت القضايا الّتي ينبغي الدّفاع عنها عديدة: كالأجر المتساوي عن العمل المتساوي، والحقّ في التّصويت، والحدّ من سلطة الآباء القانونيّة، ومساعدة الأمّهات الوحيدات، وتحسين ظروف عمل المرأة، وحقّ الفتيات في الوصول إلى التّعليم العالي، ومكافحة الدّعارة والسّلطة الزّوجية المطلقة.

لقد قرّرن التّعامل مع الأمور من الجانب التّشريعيّ. كانت أولويتهنّ هي تحديث القوانين.

لم يكن الجزء الأكبر منهنّ معروفا لعامّة الناس. عدد قليل من الأسماء ظلّت طافية على ميادين في الضّواحي ومكتبات بلدية

وجسور للمشاة، على غرار الميدان الّذي يحمل اسم المثقّفة والمناضلة العظيمة ماريا ديرازم Maria Deraismes.

دعونا نذكر أسماء ثلّة منهنّ: جين بوفييه Jeanne Bouvier (عاملة غسيل ملابس، وناشطة نقابيّة)، مارغريت ديران Marguerite Durand (صحفيّة)، هيبرتين أوكليرت Hubertine Auclert (صحفيّة)، مادلين بيليتييه Madeleine Pelletier (طبيبة)، ألكسندرا ديفيد نيل Alexandra David-Néel (مستكشفة)، جين ديولافوي Jane Dieulafoy (عالمة آثار)، سيفيرين Séverine (صحفيّة)، بول مينك Paule Minck (صحفيّة). إنّني أدعوكم لقراءة سيرة حياتهنّ، فكلهنّ نساء رائعات.

كان القاسم المشترك بينهنّ هو الإصرار، وعدم التّخلّي عن المعركة حتّى لو كان ذلك يعني، بالنّسبة إلى البعض منهنّ، ممارسة العصيان المدنيّ. وهكذا، رفضت أوبرتين أوكليرت ومادلين بيليتير دفع الضّرائب طالما ظلّت النّساء مستبعَدات عن البرلمان. عندما تمّ إطلاق طابع بريديّ في عام 1901 احتفالا بإعلان حقوق الإنسان، صمّمت النّاشطة جين أودو ديفلو Jeanne Oddo-Deflou نسخة منافسة تتضمّن حقوق المرأة، قامت بتسويقها وحقّقت نجاحا كبيرا.

في عام 1896، أُرسِلت الصّحفيّة في فيغارو، مارغريت ديران، لتغطية مؤتمر نسويّ. في الطّريق إليه كانت قد كتبت بالفعل في ذهنها مقالا ساخرًا عن هؤلاء النّساء الطّيبات، ولكن بمجرّد وصولها إلى

المكان، أثّرت فيها الخطب الّتي سمعتها بحسّها السّليم. وصارت مقتنعة بأنّه يجب فعلا النّضال من أجل حقوق المرأة. وهكذا غيّرت رأيها تماما وأطلقت صحيفة لافروند La Fronde، وجعلتها صحيفة غير مختلطة: فلم يكن يوجد بها سوى النّساء. لقد أرادت مارغريت ديران أن تصنع صحيفة على غرار جرائد الرّجال، تشتمل على تحليلات سياسيّة واقتصاديّة، وقسم رياضيّ، وتقارير. ولهذا، كان يتعيّن على النّساء الصّحافيات أن يفرضن أنفسهنّ على المؤسّسات الّتي كانت في العادة مغلقة في وجوههنّ. كما أنّ لافروند كانت تموّل أيضا النّقابات النّسائيّة.

وقد أتى كلّ ذلك أُكلَه. فقد تحصّلن على الحقّ في التّعليم، والحقّ في الطّلاق (عام 1884)، ومن ثمّ تركّزت جهودهنّ على هدف واحد: هو الحقّ في التّصويت. في فرنسا[47]، كان يُطلَق على هؤلاء المناضلات اسم suffragettes (اختصارا لتعبير المطالبات الصّغيرات بحقّ المرأة في الاقتراع - المترجم -)، لكنّني لا أحبّ هذا المصطلح حقّا. إذ تشير اللاّحقة «ette-» فيه إلى شيء صغير وظريف. كقولك مثلا fillette (فتاة صغيرة)، أو maisonnette (منزل صغير). فلماذا ينبغي أن يكون حقّ المرأة في التّصويت ظريفا؟

---

(47) - في المملكة المتّحدة، يتمّ التمييز بين مصطلحي المناضلات من أجل الاقتراع les suffragistesللإشارة إلى المناضلات اللّواتي كنّ يتوخّين النّضال القانونيّ. وبين المطالبات الصّغيرات بالحقّ في التّصويت les suffragettes اللّائي كنّ يستخدمن أساليب عمل غير قانونيّة.

لذلك، أنا أفضّل وصفهنّ بـ «المناضلات من أجل الاقتراع les suffragistes».

على حدّ قول المؤرّخة ماتيلد لارير Mathilde Larrère[48]، لم تكن هؤلاء المناضلات يفتقرن إلى الخيال. ولم يحدث أبدا أن تخلّين عن المنشورات والتّجمّعات والأعمال الأكثر راديكاليّة.

في 14 جويلية 1881، قمن بدفن رمزيّ لحقوق المرأة خلال موكب لتكريم النّساء اللّواتي لقين حتفهنّ من أجل ثورة 1789.

كما رفضن المشاركة في التّعداد السّكّانيّ لأنّه «إذا لم تحسبوا لنا حسابا، فلا ينبغي أن تحسبونا».

وقد قمن بتعطيل الانتخابات. ففي عام 1908، حطّمن نوافذ قاعة للاقتراع وقلبت أبيرتين أوكليرت Hubertine Auclert صندوق الاقتراع.

إنّه لأمر مضحك أن نسمع البعض يقول اليوم إنّ النّسويات سيذهبن بعيدا جدّا في مطالبهنّ أو سيكنّ عنيفات للغاية، على عكس جدّاتهنّ. ربّما ينخدع النّاس بصور هؤلاء السّيدات المرتديات لباسا محترما، بتصفيفة شعرهنّ الأنيقة. ولكنّ الحقيقة هي أنّ جدّاتنا قد هاجمن مراكز الاقتراع بالحجارة[49]. كتبت مادلين بيليتييه

(48) - في كتابها Rage Against the Machisme، (منشورات ديتور، 2020). يمكننا أيضا الرّجوع إلى L'Égalité en marche (Des Femmes / Antoinette Fouque)، 1989، من تأليف لورونس كليمان Laurence Klejman وفلورونس روشفور Florence Rochefort، وهو من أوّل الأعمال حول هذا الموضوع.

(49) - حتى وإن كان عدد من مارسن هذا النوع من الأعمال قليلا جدّا في فرنسا بطبيعة

Madeleine Pelletier في مذكّراتها: «من المؤكّد أنّ كسر زجاج ليس حجّة؛ ولكن إذا كان الرّأي العامّ، الأصمّ تجاه الحجج، لا يتحرّك إحساسه إلاّ من الزّجاج المكسور، فما الّذي يجب عمله؟ يجب تكسيره بطبيعة الحال.»

كما أنّهنّ قمن بإرباك سير جلسات الجمعيّة الوطنيّة من خلال رمي منشورات من الشّرفات.

بعد أن فشل القانون، كما كان الحال بخصوص البكالوريا، في منعهنّ من الأهليّة الانتخابيّة، ترشّح العديد منهنّ للانتخابات. ترشّحت أوبرتين أوكليرت، ومارغريت ديران، ومادلين بيليتير، وكارولين كوفمان Caroline Kauffmann، للمنافسة في الانتخابات التّشريعيّة لعام 1910، ولكن لم ينجحن. روت المؤرخة ماتيلد لارير Mathilde Larrère أجواء هذا العمل المثير. كانت المبادرة من هوبيرتين أوكليرت، وعمرها آنذاك 62 عاما، الّتي رفض محافظ باريس منحها إيصال ترشّحها. فكان عليها أن تطعن فيه أمام مجلس الدّولة. وقد رفض معظم مسؤولي مراكز الاقتراع فرز الأصوات الّتي كانت تحمل أسماء نسائيّة. حتّى وإن لم تنجح المحاولة، إلاّ أنّهنّ من خلال تكرار هذه الإجراءات قد انتصرن في نهاية المطاف، في يوم ما – انتصار لم يعشه معظمهنّ خلال حياتهنّ. تمكّنت الصّحفيّة سيفيرين Séverine من توحيد جميع الحركات داخل «التّحالف الاتّحاديّ من أجل حقّ النّساء في التّصويت»، الّذي

الحال. فقد كان عددهنّ أكبر بكثير في المملكة المتّحدة.

نظّم أوّل مظاهرة كبرى له في 5 جويلية عام 1914. لكنّ الزّخم توقّف بسبب الحرب العالميّة الأولى. فقد وافق معظم النّسويات على ترك مطالباتهن جانبا باسم الاتّحاد المقدّس.

ملحوظة: إذا كانت كلمة «النّسوية» قد استُخدمت في الطّبّ (للتّعبير في الواقع عن معنى قريب من معنى كلمة «الأنوثة»)، فإنّه من المتّفق عليه عموما أنّ مخترعها الرّسميّ كان ألكسندر ديما الابن Alexandre Dumas fils، في عام 1872، في مقال له بعنوان «الرّجل – المرأة L'Homme- femme». لم تكن الكلمة بالنّسبة إليه تعني استحضار النّساء اللاّئي كنّ يدافعن عن حقوقهنّ. بل استخدمها فقط في المذكّر، ليسخر من الرّجال الّذين كانوا يدافعون عن حقوق المرأة. فيما يلي المقطع الّذي ظهرت فيه كلمة «نسويّات» رسميّا لأوّل مرة. وإنّه لأمر محزن بعض الشّيء أن نلاحظ أنّه ورد في منتصف خلاصة وافية للفكر الجنسانيّ في ذلك العصر: «إنّ النّسويين، واعذروني على هذا المصطلح الجديد، يقولون بنيّة حسنة جدّا بطبيعة الحال: "إنّ الشّرّ كلّه يتأتّى من حقيقة أنّنا لا نريد أن نعترف بأنّ المرأة مساوية للرّجل وأنّه يجب علينا أن نوفّر لها نفس التّعليم والحقوق الّتي يتمتّع بها الرّجل؛ فالرّجل يسيء استخدام قوّته"، إلخ، إلخ. أنتم تعرفون بقيّة الكلام. سوف نسمح لأنفسنا بالرّد على النّسويين بأنّ ما يقولونه هنا لا معنى له. فالمرأة ليست مساوية للرّجل أو أسمى منه أو أدنى من حيث القيمة، إنّها قيمة من نوع آخر، تماما كما هي كائن ذو شكل مختلف ووظيفة مختلفة. والدّليل على أنّها ليست قويّة مثل الرّجل هو أنّها تشتكي دائما من أنّ

الرّجل أقوى منها؛ ومع ذلك، إذا كانت الطّبيعة قد منحت القوة للرّجل، فذلك ليستخدمها، مثلما يجب عليه استخدام جميع المواهب الّتي حصل عليها للقيام بالعمل الّذي يتعيّن عليه القيام به».

14

بداية القرن العشرين: أيّ مكان للنّساء، الميدان أم المنزل؟

دعونا نبدأ بقصة دنيئة. في شهر أوت من عام 1916، تقتل جوزفين بارتيليمي، الخادمة الشّابّة البالغة من العمر 19 عاما، واللاّجئة من مورث وموزيل، رضيعها الّذي أنزلته للتوّ في دورة المياه. في شهر جانفي عام 1917، مثلت أمام محكمة جنايات نهر السّين بتهمة وأد الوليد. فتمّت تبرئتها وسط تصفيق الجمهور.

لماذا تمّ التّرحيب بامرأة قتلت طفلها؟ كان الرّضيع ثمرة اغتصابها من قبل جنديّ ألمانيّ. دافعت الشّابّة عن نفسها متذرّعة بالعمل الحربيّ: فقد قتلت ببساطة ألمانيّا صغيرا. وقام محاميها بطرح السّؤال التّالي: «هل أذنبت جوزفين لأنّها قتلت طفل أولئك الّذين قتلوا أبناءكم؟»

بهذه المحاكمة بدأ المؤرّخ ستيفان أودوان روزو Stéphane Audoin-Rouzeau كتابه L'Enfant de l'ennemi. يوضّح هذا المتخصّص الكبير في الحرب العالميّة الأولى أنّ تأريخ هذه الحقبة جعل العنف الجنسيّ غير مرئيّ. وهو يندّد بكتابة تاريخ تمّ إفرَاغه من جزء من أحداثه كما لو تمّ تطهيره، ليطمس العنف المسلّط على النّساء.

ومع ذلك، فإنّ لعمليّات الاغتصاب مكانا خاصّا في تاريخ الحرب لدرجة أنّها استُخدمت على وجه التّحديد بمثابة سلاح. يتّسم الاغتصاب في الحرب بخصائص عديدة. ففي معظم الأحيان، يكون جماعيّا. فهو يُمارس بين الرّفاق في ميدان القتال، ممّا يجعله في الآن نفسه عنصرا مقوّيا للمجموعة ومتنفّسا لرعب القتال. ولكنّ الاغتصاب في الحرب هو قبل كلّ شيء أمر علنيّ، فهو غالبا ما يحدث أمام شهود عيان لأنّ الأمر يتعلّق بإثبات الهيمنة(50). بخصوص الحرب العالميّة الأولى في فرنسا، حدثت عمليات الاغتصاب هذه بشكل رئيسيّ أثناء فترات الاجتياح لعام 1914. كان هناك حديث عن «موجة عمليات اغتصاب». ومنذ عام 1915، مثلما أظهرت ذلك قضيّة جوزفين بارتيليمي، طُرحت على المجتمع الفرنسيّ بشدّة مسألةُ مستقبل الأطفال المولودين منها.

ما يُظهره هذا الاستخدام لعمليات الاغتصاب أيضا هو التّصادم بين الذُّكورية عند الأطراف المتصارعة. فخلف المرأة المغتصَبة هناك رجل. وهذا يفسّر أيضا خاصّيّة أخرى: وهي أنّ الضّحايا يمكن أن يكنّ من جميع الأعمار. لا ينبغي الاعتقاد أنّ المستهدفَة هي بالضّرورة الفتاة الجميلة في القرية. فأعمار الضّحايا تتراوح من 12 إلى 72 عاما، لأنّ المهمّ هو أنّهن زوجات وبنات

---

(50) - يشير ستيفان أودوان روزو Stéphane Audouin-Rouzeau أيضا إلى أنّ عمليّات الاغتصاب هذه قد حدثت خلال فترات الغزو الإقليميّ وبدرجة أقلّ بكثير خلال فترات تراجع القوات وانسحابها.

وأمّهات رجل فرنسيّ يجري إذلاله. وهذا ما يفاقم أزمة الذّكورة النّاشئة من الصّراع.

تسبّبت الحرب العالميّة 14 – 18 في هزّة عميقة، في صدمة حقيقيّة. فتلك الدّول الّتي كانت تعتبر نفسها متفوّقة على الشّعوب الأخرى، بقيادة رجال أوروبّيين مثقّفين كانوا يرون أنفسهم في طليعة الحداثة المستنيرة، قد غرقت في رعب الحرب الحديثة الّتي اخترعوها. كيف يمكن العثور على نبل أو فخر في هذه المجزرة، في الخنادق الموحلة، في وسط الجثث والأطراف المبتورة وكلّ التّشوّهات الّتي تتسبّب فيها الأسلحةُ الجديدة؟

لقد انتصرت فرنسا في تلك الحرب، ولكنّ الرّجال عادوا مصدومين في نهاية المعارك. بعضهم كان مستاء من النّساء لأنّهنّ حللن مكانهم في المجتمع، ولم يعشن نفس الكابوس الّذي عاشوه. بالنّسبة إليهم، كانت النّساء جزءا من «المدسوسين». حتّى أنّهم كانوا يشتبهون في أنّهنّ قد اغتنمن الفرصة بشكل جيّد خلال تلك الفترة.

يقال في كثير من الأحيان إنّ الحرب سمحت بتحرير النّساء من خلال السّماح لهنّ بأخذ مكان الرّجال في العمل، لكنّ هذه النّقطة ما تزال محلّ جدال كبير من قبل المؤرّخين.

ما نراه بشكل خاصّ فيما يتعلّق بغالبيّة النّساء هو أنّه في فترة ما بعد الحرب، أدّت أزمة الذّكورة هذه إلى تعزيز الأدوار الجندريّة التّقليديّة. فقد تمّ تسريح النّساء من الجنديّة بشكل سريع وقاس – وبين عشيّة وضحاها أُعدن إلى مكانهنّ القديم. أراد الرّجال استعادة

عالم ما قبل الحرب، ونساءَ ما قبل الحرب. فاستبدال الرّجال كان أمرا استثنائيّا وظرفيّا، تماما كما كانت الحرب حدثًا استثنائيّا أدّى إلى تعطيل عالم كان لا بدّ من إعادة وضعه على قدميه.

تمّ إعادة النّساء إلى مهمتهنّ الرّئيسيّة على الأرض: أن يكنّ أرحاما مطيعة ومنتجة. في عامي 1920 و1923، أصدرت فرنسا قوانين تعاقب أيّ دعاية مناهضة للإنجاب وتكرّس منع الإجهاض. كانت هذه القوانين هي الأكثر قمعا في أوروبّا. فيما يتعلّق بالإجهاض، فقد تَقَرَّرَ تصحيحه - وقد تمثّل ذلك في تحويله من جناية إلى جنحة بسيطة. فهل باتت العقوبات إذًا أقلّ قسوة؟ كلاّ، لقد كانت المناورة أكثر شراسة: ففي السّابق، كان يُحكَم على الإجهاض في محاكم الجنايات، أي من قِبل مواطنين عاديين. ولكنّ المحلّفين المشهورين كانوا متساهلين جدًّا في هذه الحالات. فكانوا يبرّئون 80٪ من المتّهمين. كان المخطّط إذًا هو أنّ هذه القضايا، عند تصحيحها، ستمثل مستقبلا أمام قضاة محترفين سيكونون أشدّ قسوة ويطّبقون النّصوص بصرامة. وبالفعل، فقد انخفض معدّل التّبرئة إلى 19٪ بين عامي 1925 و1935.

(أودّ اغتنام هذه الفرصة لأحدّثكم عن النّهاية الحزينة لمادلين بيليتييه، طبيبتنا النّفسيّة النّسوية الّتي أخبرتكم عنها في الفصل السّابق، تلك الّتي كانت مستعدّة لكسر جميع زجاج النّوافذ للدّفاع عن النّساء. لقد تمّ القبض عليها في عام 1939. تمّ اتّهامها بإجراء عمليّة إجهاض لفتاة كان عمرها 13 سنة اغتصبها شقيقها. دفعت

مادلين ببراءتها باعتبارها كانت مصابة بشلل نصفيّ ولم يكن بقدرتها القيام بهذه العمليّة. اعترفت المحكمة بذلك ولكنّها حكمت بأنّها مع ذلك كانت ما تزال تشكّل خطرا على الآخرين وعلى نفسها، ومن ثمّة قضت بحبسها. وتوفّيت في المستشفى في 29 ديسمبر 1939. لقد توفّيت أوّل امرأة فرنسيّة تخرّجت في مجال الطّبّ النّفسيّ في مستشفى المجانين).

يشهد كلّ هذا على وجود هوس بزيادة النّسل وتراجع حقوق النّساء. كان هناك ما يمكن تسميته بـ «تأميم المرأة». فقد صرن أقلّ امتلاكا لأنفسهنّ من ذي قبل بكثير. صرن مصلحة وطنيّة تتمثّل وظيفتها في إعادة إسكان البلاد. وبدءا من عام 1918، أخذت الدّولة في إقامة احتفالات على شرف الأمّهات. وتحصّلت أمّهات العائلات الكبيرة على ميداليّات.

وكان الخطاب الطّبّيّ يشدّد على ضرورة توافر الأمّهات لأنّهنّ المسؤولات عن صحّة الأطفال الأخلاقيّة. وبذلك، شهدت دروس رعاية الأطفال ازدهارا. فالأمّ الصّالحة تجعل نفسها معلّمة وممرّضة. والمرأة تأخذ على عاتقها مسؤوليّة رفاه أفراد أسرتها، بما في ذلك صحّتهم. أي ما يعبَّر عنه بمصطلح «الرّعاية» الشّهير. وهكذا ازداد ثقل شعورها بالذّنب عليها من أنّها ربّما لم تكن في مستوى المهمّة.

بعد الحرب العالميّة الأولى، منحت العديد من البلدان للنّساء حقّ التّصويت: على غرار ألمانيا، والولايات المتّحدة، وإيطاليا، والمملكة المتّحدة، وإسبانيا، وتركيا وغيرها. ولكن كان هناك بلد صغير يقاوم

ببسالة غزو النّسويّات الشّرّيرات: إنّها فرنسا، سيّداتي وسادتي. في بلدنا، لم يكن واردا السّماح لهؤلاء المجنونات ذوات الأرحام بالتّصويت. امرأة تصوّت؟ ... يا للفظاعة، يا للقذارة...

للخروج من هذا الطّريق المسدود، وافق الحزب الشّيوعيّ على إدراج النّساء على قوائمه المترشّحة في الانتخابات البلديّة لعام 1925. واستخدم نوعا من الخداع للالتفاف على الحظر. قالت صحيفة لومانيتي L'Humanité حينها إنّ «حقيقة حمل المرء اسمَ امرأة لا تشكّل ولم تشكّل أبدا حالةَ بطلان التّرشيح... لأنّ إعلانات التّرشيحات ليست إلزاميّة بأيّ حال من الأحوال، وبما أنّها لا تتضمّن تقديم أيّ وثيقة هويّة، فلا يملك أيّ شخص الأهليّة للتّصديق على جنس المترشّح الّذي يحمل اسما أنثويّا». وهكذا، أمكن لمارت تيسون Marthe ترشيح نفسها بما أنّه لا شيء كان يثبت أنّها امرأة لحظة إيداع القائمات. لقد تمّ انتخاب عشر نساء.

ولكنّ النّتيجة كان محسوما فيها سلفا، فعلى الرّغم من الالتباس حول الأسماء، لم يصادق المجلس الدّستوريّ على انتخابهنّ.

ظلّت النساء غير مؤهّلات للحصول على المواطَنة citoyenneté. ومع ذلك، سمحت الجمعيّة الوطنيّة في النّهاية بتمرير القانون الّذي منحهنّ هذا الحقّ، ولكنّ في كل مرّة استخدم مجلس الشّيوخ حقّ النّقض بصرامة تكاد تكون مُبهرة. فقد عرقل إقرارَ النّص ستّ مرات خلال فترة ما بين الحربين.

في الجهة المقابلة، ضمنت النّسويات من سيحملن المشعل. في ذلك الوقت، كانت لويز وايز Louise Weiss (1893-1983) هي الّتي تنظّم التّحرّكات لصالح حقّ النّساء في التّصويت. أسّست هذه الصّحفيّة حركة «المرأة الجديدة La Femme nouvelle». وعندئذ، قدّمت لها النّاشطة النّسويّة الإنجليزيّة سيلفيا بانكهورست Sylvia Pankhurst النّصيحة التّالية: «يجب أن تكوني حاضرة في الصّفحة الأولى من كلّ الصّحف كلَّ يوم». تساءلت لويز وايز عمّا يجب أن تفعله إلى أن عثرت على سلاحها: ألا وهو السّخرية. طوال أربع سنوات، بدءًا من عام 1934، قادت لويز ما وصفته بحملتها السّاخرة.

في الوقت الّذي كان يتعيّن فيه على أعضاء البرلمان مجدّدا مناقشة الحقّ في تصويت النّساء، قامت هي بتنظيم حملة توزيع زهرة الميوزوتيس myosotis، الّتي تفيد معنى «لا تنسوْني». كما قامت برفقة ناشطات أخريات بإرباك نهائيّ كأس فرنسا لكرة القدم لعام 1936 عبر إطلاق بالونات حمراء محمَّلة بمنشورات في الملعب. (لا أجرؤ على تخيّل الفضيحة لو قاطعت نسويّات هذه الأيّام مباراة نهائيّة لكرة القدم ...) وأهدين لأعضاء مجلس الشّيوخ جوارب مكتوب عليها «حتّى لو أعطيتمونا الحقّ في التّصويت، فسوف يتمّ رتق جواربكم». وخلال سباق جائزة لونشان الكبرى Grand Prix de Longchamp، استخدمن المسار لتعليق لافتات كتبن عليها «يجب على المرأة الفرنسيّة التّصويت». كما ربطن بعضهنّ ببعض في

شكل سلسلة نسائيّة لإغلاق شارع في باريس. ولكن كلّ هذا كان بلا جدوى. فقد واصل مجلس الشّيوخ استخدام حقّ النقض.

انتهى المطاف إلى وضع سخيف في عام 1936. فقد عيّن ليون بلوم في حكومته، الجبهة الشّعبيّة، ثلاث نساء في مناصب وكيلات وزراء الدّولة: وهنّ سيسيل برونشفيكCécile Brunschvicg للتّعليم، وإيرين جوليو كيري Irène Joliot-Curie للأبحاث، وسوزان لاكور Suzanne Lacore لحماية الطّفولة. (قيل إنّه عرض منصبا على لويز وايز، الّتي ردّت قائلة، «لقد ناضلت من أجل أن يتمّ انتخابي، وليس من أجل تعييني»). كنّ يشتغلن على ملفّاتهنّ، ولكن لأنّهنّ كنّ نساء، فلم يكن يحقّ لهنّ أخذ الكلمة في الجمعيّة الوطنيّة. وعلى أيّ حال، لم تستمرّ هذه التّجربة إلاّ عاما واحدا. فقد كان الرّفض المؤسّسيّ لقبولهنّ في الحياة السّياسيّة حالة مستعصية.

والسّبب هو أنّهم كانوا يعتبرون أنّ مجالهنّ، ومَرْبَعَهُنَّ الخاصّ، وموطنهنّ الطّبيعيّ حيث يمكنهنّ المرح بهدوء، هو المنزل.

من الصّعب الحديث عن النّساء دون الحديث عن البيوت. لقد أصبحت طريقة الحفاظ على المنزل موضوعا جادّا في عشرينيات القرن الماضي. فتمّ حينذاك خلق شخصيّة ربّة البيت، الّتي ستسود في خمسينيات القرن الماضي، كما تَطوَّرَ ما كان يسمّى الاقتصاد الأسريّ بوصفه موضوعا في حدّ ذاته.

كانت الخطوة الأولى هي تعزيز المذهب الصّحّيّ l'hygiénisme. لقد سبّبت الانفلونزا الاسبانيّة دمارا في الفترة

1918-1919، وكانت الحقبة مواتية لتدابير الوقاية من الامراض. كان يقال إنّ الهواء الفاسد هو سبب كلّ العلل. اهتمّت المؤرّخة إيفون كنيبيلر Yvonne Knibiehler بالطّريقة التي استُخدمت بها مكافحةُ السّلّ لتطبيب الطّبقات الشّعبيّة (لذلك اعتمد الأطبّاء على السّيدات الرّاعيات اللّواتي تحدثّنا عنهنّ سابقا). يجب تهوية الغرف. كان هناك حديث عن كائنات حيّة غير مرئيّة اكتشفها باستور Pasteur وينبغي الحذر منها. هذا التّطبيب، الّذي جعل النّساء مساعدات للأطبّاء الّذين كان عليهنّ طاعتهم، استكمل ظاهرة التّثاقف الأنثويّ acculturation féminine. فاندثرت الثّقافة الأنثويّة للرّعاية التّقليديّة. وصار انتباه المرء منصبّا على الطّبيب بعد أن كان موجَّها للمعرفة الّتي لدى النّساء من حوله.

ولكن في هذا الكفاح من أجل تحسين الصّحّة العامّة، تصاعدت فجأة متطلّبات النّظافة بشكل كبير، ممّا أدّى إلى زيادة أعباء العمل على النّساء. في دورات التّعليم المنزليّ، كان هناك تركيز على ضرورة غسل كلّ شيء، من أدوات المائدة إلى الفراش، بشكل جيّد، وتهويتها للقضاء على الجراثيم. وطوال فترة دراستهنّ، كانت الفتيات يتعلّمن كيفيّة تنظيف أنواع مختلفة من الأغذية وغسلها وإزالة شحومها والحفاظ عليها. وجرت مضاعفة دورات رعاية الأطفال. وأصبح تدريس أوجه التّقدم في الطّبّ والصّحّة للحدّ من وفيات الرّضع وجوبيّا. فلا يمكن الاعتماد إطلاقا على غريزة الأمومة المعصومة، بل على العكس تماما، يجب تعليم الأمّهات. والدّولة موجودة للقيام بذلك. (من المفارقات، أنّنا في هذه الأيّام نراهن على غريزة أموميّة

محتملة. فالأمّهات الشّابّات يتعلّمن بعض التّصرّفات خلال اليومين أو الأيام الثّلاثة الّتي يقضّينها في مستشفى التّوليد، ثمّ يغادرن وفي أيديهنّ كتيّب.)

ما كان يسمّى بأناقة باسم «الفنون المنزليّة» أخذ في التّطوّر. فقد أقيم أوّل صالون مخصّص لها في عام 1923 في القصر الكبير Grand Palais، تحت رعاية... وزارة التّربية والتّعليم، وكان شعاره صادما: «تحويل النّساء الفرنسيّات إلى ربّات بيوت عصريّات من خلال القدوة والتّعليم». كان المطلوب أيضا إطلاع العائلات على الأجهزة المنزليّة الجديدة الّتي ظهرت، على الرّغم من أنّه لا أحد تقريبا كان قادرا على تحمّل تكلفتها في ذلك الوقت. لكنّ التّكنولوجيا المنزليّة شهدت ثورة أخرى، ثورة إيديولوجيّة.

إذا أحصينا كلّ أولئك اللّواتي كنّ مضطرّات للعمل خارج البيت، على سبيل المثال أولئك اللّواتي وجدن أنفسهنّ أرامل وربّات أسر (600.000)، أو أولئك اللاّئي استعدن زوجا أو ابنا دمّرته الحرب جسديّا ونفسيّا، فإنّنا سنجد عددهنّ كبيرا. وكان يُطلب منهنّ في الوقت نفسه إعادة إسكانِ البلاد ... لقد كنّ مطالبات بالقيام بالكثير من العمل، ومع ذلك كان يتعيّن عليهنّ أيضا الحفاظ على نظافة منازلهنّ وعائلاتهنّ من خلال احترام المعايير الجديدة. ومن ثمّ، اتّخذت الفنون المنزليّة منعطفا غير متوقّع: فمن المفارقات أنّ ذلك كان له علاقة بتحرير النّساء.

جرت هذه الثّورة من خلال اتّباع الأساليب التّيلورية taylorisme (نظريّة إداريّة وفكريّة تُنسَب للمفكّر الأمريكي فريديريك تايلور – المترجم –) مطبّقة على الأسرة.

كانت بوليت بيرنيغ Paulette Bernège هي من قام بالتّرويج لهذه الأساليب الجديدة في فرنسا. لا يذهبنّ في اعتقادكم أنّ بوليت كانت ربّة منزل، وأنّها بدافع الكسل، بدأت في كتابة الكتب حول الموضوع الوحيد الّذي كانت تتقنه. لقد درست لفترة طويلة، فحصلت على البكالوريا العلميّة، ثمّ على الإجازة في الآداب، ثمّ على شهادة الدّراسات العليا في الفلسفة. وكان يُفترض أن تكون الخطوة التّالية هي نيل شهادة التّبريز في الفلسفة، ولكنّها كانت ممنوعة على النّساء. لذلك قرّرت بوليت الدّخول في الحياة العمليّة وأصبحت صحفيّة.

فكيف لامرأة كانت تكتب كتبا من نوع «عن الأسلوب المنزليّ De la méthode ménagère» (نُشر عام 1928 ولكنّ تاريخ آخر إعادة إصدار له يعود إلى عام 1969، وهذا يعني أنّه كان كتابا كلاسيكيّا)، أن تكون إذًا نسويّة؟

كانت بوليت امرأة براغماتيّة. فبالنّظر إلى أنّ النّساء في الواقع كنّ هنّ اللاّتي يعتنين بالمنزل، كانت أفضل طريقة لمساعدتهنّ هي التّفكير في أساليب تجعلهنّ يتوقّفن عن استنزاف أنفسهنّ في هذه المهامّ. إنّ ما روّجت له بيرنيغ كان بداية فكر الحداثة: عليك أن تكون فعّالا

ومنتِجا ولا تهدر وقتك وطاقتك. كانت هذه هي بداية السّعي المستمرّ حتّى اليوم لانتزاع دقائق حياة إضافيّة.

لذلك درست بوليت الشُّقَق الفرنسيّة. كانت تحسب كلّ شيء بالدّقائق. تحسب توقيت كل شيء. وعندما أقول كلّ شيء ... فهذا يعني أنّ «تغيير سرير لشخص واحد دون تفكير منهجيّ يتطلّب 12 دقيقة – أمّا بعد دراسة الحركات فيتطلّب 3 دقائق فقط. وفي كلتا الحالتين، تتمّ مراعاة الوصفات الصّحيّة... كما أنّ تقشير رطل من البطاطس بسكّين عاديّ دون اتّباع أسلوب محدّد ودون تدريب يتطلّب 9 دقائق – أمّا القيام بذلك باستخدام سكّين خاصّ بالتّقشير وفي وضعيّة عمل جيّدة وإضاءة ممتازة وقليل من التّدرّب، فيستغرق ثلاث دقائق[51].»

طوّرت أيضا مفهوم «المسافات مصّاصات الدّماء distances vampires» لتحديد عدد جميع الخطوات الّتي يتعيّن على النّساء القيام بها لتقديم الوجبة، بما أنّ المطبخ عادة ما يكون بعيدا عن غرفة الطّعام، مع وجود ممرّ طويل للعبور، لأنّ بناة المنازل، ولنكن واضحين هنا، لم يفكّروا أبدا في النّساء. (وهذا مثير للدّهشة.) لقد فكّروا قبل كلّ شيء في ضرورة فصل هذه الغرفة عن بقيّة الغرف في الشّقّة. ولكن مع التّقدم التّقنيّ الّذي سمح بالحدّ من روائح الطّهي، لم يعد يوجد أيّ عذر.

---

(51) - De la méthode ménagère، رابطة التّنظيم المنزليّ، ط2، 1934، ص.72.

لإقناع الرّجال بتعديل تصاميم تهيئة الشّقق والمنازل وشراء أجهزة جديدة لزوجاتهم، قدّمت بوليت حجّة دامغة. فبعد القيام بجميع المهامّ المنزليّة اليوميّة في شقّة مشوّشة تماما، مقارنة بنفس المهامّ في شقّة وظيفيّة ومجهّزة جيّدا، قامت بحسبة. فقدّرت أن الوقت الضّائع بسبب هذه المرافق السّيّئة يبلغ ساعتين في اليوم، مضروبا في إجماليّ عشرة ملايين ربّة منزل (اللّواتي سيقمن بهذا العمل لمدّة أربعين عاما في المتوسّط). كما قدّرت خسارة الاقتصاد الفرنسيّ بـ 7.3 مليار ساعة عمل في السّنة، أي 65٪ من ثروة الأسرة ونسبة مكافئة من ثروة البلاد! ها هنا كانت أصالتها، ولا شكّ أنّ ذلك كان جزءا من نجاحها: فقد اعتبرت إدارة الأسرة بمثابة شركة صغيرة، ودفعت التّفكير الاقتصاديّ إلى حدّ المطالبة بأخذ العمل المنزليّ في الاعتبار، تماما مثله مثل العمل المهنيّ، في حساب موارد الأسرة والاقتصاد الوطنيّ[52].

دون أن تزعم انتماءها إلى الحركة النّسويّة، احتجّت بوليت بيرنيغ بكلّ قوّة على «استرقاق المرأة»، على «عبوديّة» الأعمال المنزليّة. وانتقدت الرّجال لأنّهم جعلوا النّساء الفرنسيّات يعملن «أكثر من أيّ بلد متحضّر آخر في العالم». لذلك فهي أوّل من تحدّث في فرنسا عن العمل المنزليّ بوصفه عملا غيرَ مرئيّ وغيرَ مدفوع الأجر يقوم به جزء من السّكّان لصالح جزء آخر. وللتّعريف بأساليبها الجديدة بشكل أفضل، أسّست في عام 1925 رابطة التّنظيم المنزليّ Ligue

(52) - "Et si les femmes faisaient les maisons"، مقال متاح على موقع: d-fiction

de l'organisation ménagère، الّتي عملت مع وزارة التّربية الوطنيّة للمساعدة على تحديث تعليم التّدبير المنزليّ.

في عام 1927، أعدّ لويس لوشور Louis Loucheur، وزيرُ العمل والضّمان الاجتماعيّ آنذاك، قانونا لمعالجة أزمة الإسكان. كان عازما على إطلاق حركة عظيمة لبناء المساكن. وكان لا بدّ من مصادقة مجلس تقنيّ على صحّة الخطط القياسيّة للمساكن. وأخيرا جاءت الفرصة لإعادة التّخطيط! ولئن شعرت بوليت بالسّعادة، إلاّ أنّها سرعان ما أصيبت بخيبة أمل. ذلك أنّ رابطتها وهي نفسُها لم تكونا من بين الخبراء الّذين تمّت استشارتهم، على الرّغم من شهرتهما. عندئذ، نشرت بوليت كتابا أهدته لـ «السّيّد لوشور، الّذي يريد أن يصبح الباني الفرنسيّ الأعظم في عصرنا». وقد حمل الكتاب عنوان «ماذا لو أنّ النّساء يصنعن البيوت Si les femmes faisaient les maisons». يا إلهي! يا لها من فكرة مجنونة! بناء المنزل وفقا لاحتياجات الشّخص المسؤول عنه؟

حسنا، بما أنّ بوليت لم تكن على أيّة حال أوليمب دي غوج Olympe de Gouges، فإنّها لم تشجّع النّساء على أن يصبحن مهندسات معماريات. ولكنّها اقترحت بشدّة أن يُمنَحن وظائف في شركات الهندسة المعماريّة أو التّصميم وفي شركات الأجهزة. لأنّ الأمر لا يتعلق فقط بتصميم الغرف في المنزل. لقد ناضلت ضدّ القوالب الّتي كان لا بدّ من نفض الغبار عنها، وضدّ المقابض النّحاسيّة، من أجل أثاث أملسَ ذي أسطح مستوية يسهلُ غسلُها.

من الواضح أنّ هذه الأفكار كانت منسجمة مع روح العصر.

شارلوت بيريون Charlotte Perriand، المصمّمة والمهندسة المعماريّة، الّتي نُسِب بعض نجاحاتها بشكل خاطئ إلى لو كوربوزييه Le Corbusier، روت كيف أنّها، وهي الّتي نشأت في بيت برجوازيّ تقليديّ تؤثّثه ستائر وسجّاد وقوالب، وجدت نفسها ذات يوم في المستشفى وأعجبت حتّى الانتشاء بنقاوة المَرافق. كان الأثاث بسيطا وعمليّا ومعدنيّا. وهكذا خطرت ببالها الفكرة الرّائعة لتكييف هذا المظهر الطّبّيّ مع تصميم أثاث الاستعمال اليوميّ.

عندما نتحدّث عن التّغيير الجذريّ في التّصميم بين القرنين التّاسع عشر والعشرين، فإنّنا نتحدّث بطبيعة الحال عن الأسباب الاقتصاديّة - فهذا الأثاث القياسيّ هو أكثر بساطة وأقلّ تكلفة عند التّصنيع -، ونتحدّث أيضا عن روح العصر - عن البحث الجماليّ حول ما هو وظيفيّ، والطّليعة الّتي تمجّد الميكانيكا - ولكنّنا ننسى عنصرا آخر وهو أنّه كان يحظى بالإعجاب لأنّ تنظيفه كان أسهل. وكان يتميّز بهواء أنظف. من الواضح أنّ المرأة التي اكتشفت هذا الأثاث الجديد في عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته كانت تفكّر في توفير الوقت فيما يتعلّق بالعمل المنزليّ. هذه نقطة نادرا ما يتمّ تناولها في تاريخ الفنون التّطبيقيّة.

في نفس الوقت، ظهر موقد الغاز والإضاءة الكهربائيّة والمكواة. فماذا كانت تمثّل هذه التّغييرات؟ لقد وضعت المياهُ الجارية حدّا لعمل روتينيّ كان يستغرق 45 دقيقة في اليوم. كما أنّ الإضاءة

الكهربائيّة، الّتي تطوّرت في ثلاثينيات القرن الماضي، قد قلّصت من العمل بمقدار ساعتين ونصف السّاعة في الأسبوع، المكرّستين في السّابق لتنظيف مصابيح الزّيت وإعدادها. التّسخينُ بالغاز أو الكهرباء وفّر بدوره أكثر من 9 ساعات عمل في الأسبوع (سابقا، كان يجب إحضار الحطب ومراقبة النّار باستمرار). ولئن ظلّت النّساء يقمن برتق الملابس البالية، إلاّ أنهنّ لم يعدن يصنعنها بالكامل. لقد أصبحن يشترينها أكثر وأكثر. وبالمثل، مع تصنيع الأغذية، توفّرت الأغذية المعلَّبة، ومن ثمّة تمّ توفير وقت كبير.

لكنّ المتطلّبات المتعلّقة بالصّحّة والنّظافة وخصوصا رعاية الوالدين، ازدادت بشكل كبير. لذلك لم تستفد النّساء لأنفسهنّ من هذا الوقت المدّخر. كما نلاحظ زيادة في الوقت المستغرق في الطّهي. ومن هنا بدأت تفرض نفسها فكرةُ ضرورةِ تنويع الوجبات - فظهرت موضة الوجبات الخفيفة الجيّدة.

وأين كانت المرأة المتشبّهة بالرّجال في كلّ هذا؟ المرأة المتحرّرة ذات الشّعر القصير؟ لقد كانت ظاهرة عرَضيّة، وفقا للمتخصّصين، ولم تكن تمثّل بشكل كبير ما كانت تعيشه فعليّا غالبيّة النساء. إنّ ما حرّر النّساء بالفعل لاحقا هو أنّهنّ أصبحن قادرات على اختيار ملابسهنّ بأنفسهنّ. لقد دفعتهنّ الحرب من قبل إلى تغيير ملابسهنّ. فقلَّ ارتداؤهنّ للأوشحة، لأنّ الأقمشة المتاحة كانت أقلّ. وبالإضافة إلى ذلك، كان من الضّروريّ أن يكنّ قادرات على المشي بيسر، وأن يتحرّكن بسهولة للقيام بأعمالهنّ، ولذلك أصبحت

الملابس أقصر. ثمّ أنّه قد حدث تطوّر في السّرعة (سرعة الدّرّاجات والسّيارات) ممّا ساهم في هذا التّغيير الضّروريّ في الملابس. كما أنّ تبسيط الملابس يعني توفيرَ الوقت. في بداية القرن المنصرم، أطلق مصمّما الأزياء بول بواري Paul Poiret ومادلين فيونيه Madeleine Vionnet بالفعل ملابس بلا مشدّات. وبعد ذلك سادت موضة كوكو شانيل Coco Chanel.

مكتبة
t.me/soramnqraa

15

الحرب العالمية الثّانية: التّقليل من أهمّيّة دور المرأة

من المهمّ إلقاء نظرة عامّة سريعة على النّماذج الأخرى من الأنوثة في أوروبّا عشيّة الحرب العالميّة الثّانية، لأنّه تمّ إفراد النّساء في ظلّ كلّ نظام بهويّة ووظيفة محدّدتين.

في أقصى الشّرق، كانت هناك المرأة السّوفييتيّة. قال لينين:

«ما من دولة، ما من تشريعات ديمقراطيّة، قدّمت للمرأة نصف ما قدّمته السّلطة السّوفييتية منذ الأشهر الأولى من وجودها». يجب القول إنّ النّساء هنّ من أطلقن الثّورة في 23 فيفري (8 مارس بالتّقويم الغريغوري) من عام 1917. فقد خرجن في مظاهرات للمطالبة بالسّلام والخبز. ونتيجة لذلك عيّن الاتّحاد السّوفييتي يوما للمرأة في 8 مارس من كلّ عام.

منذ بداية عام 1917، أصدرت الحكومة المؤقّتة مرسوما ينصّ على حقّ النّساء في التّصويت. ثمّ أتبعتها بمجموعة أخرى من التّدابير التّقدّميّة: كالحقّ في الطّلاق، والمساواة بين الأطفال المولودين في إطار الزّواج أو خارجه، وإلغاء سلطة الزّوج المطلقة، والمساواة التّامّة بين الزّوجين، وإجازة الأمومة، والحقّ في الإجهاض

دون قيود اعتبارا من عام 1920. كان الهدف من كلّ ذلك هو إنهاء الأسرة البرجوازيّة.

لكنّ الظّروف المعيشيّة كانت صعبة للغاية لدرجة أنّ النّساء لم يستفدن من تلك التّدابير حقًا. فكان أكثر الحقوق الّتي كنّ يستخدمنها هو حقّ الإجهاض. في عام 1934، كانت هناك في موسكو ثلاث عمليّات إجهاض مقابل ولادة واحدة.

لم يقبل ستالين بهذا الأمر. فقام بتقييد الوصول إلى الإجهاض، وبالمرّة إلى الطّلاق أيضا، ومن ثمّ أعاد السّلطة الأبويّة. لقد تمّ قبر ثورة النّساء، ويجب على المرأة السّوفييتيّة أن تنجب أطفالا. ستبقى هناك نقطة مهمّة للغاية وغير معروفة نسبيّا، ألا وهي المشاركة الهائلة للمرأة السّوفييتيّة في الحرب العالميّة الثّانيّة – فالتّقديرات تشير إلى أنّ عددهنّ هناك كان 800.000 بين عامي 1941 و1945. كان الاتّحاد السّوفييتيّ البلدَ الوحيد الّذي كوّن نساء على وجه التّحديد في المهن القتاليّة. يصف ستيفان أودوان روزو هذه اللّحظة بأنّها كانت قطيعة تاريخيّة وأنتروبولوجيّة كبيرة مع ما سبق. فقد كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي تشارك فيها النّساء بمثل تلك الكثافة في نزاع مسلّح. ولكن هنا مرّة أخرى، لا نقرأ عن ذلك سوى القليل، سواء في المدرسة أو في أيّ مكان آخر.

كانت هناك الفاشيّة أيضا. تعتبر المؤرّخة فيكتوريا دي غرازيا Victoria De Grazia أنّ الدّيكتاتوريّة الموسولينيّة كانت حلقة خاصّة ومحدّدة من النّظام الأبويّ. فبينما لا يُعتبر نظام فيشي في فرنسا،

من وجهة نظر النّساء، قطيعة نظرًا لأنّه كانت هناك استمراريّة إيديولوجيّة مع الأنظمة السّابقة فيما يتعلّق بمكانتهنّ، فإنّ الفاشيّة الإيطاليّة قد أقامت نظاما قمعيّا جديدا بشكل خاصّ تجاه النّساء. كانت هذه واحدة من خصائصها الكبرى. ما لا يُذكَر إلاّ نادرا، هو، كما كتبت هذه المؤرّخة، «أنّ مناهضة النّسوية كانت تحتلّ مكانة مهمّة في العقيدة الفاشيّة تماما مثل مناهضة اللّيبراليّة والعنصريّة والنّزعة العسكريّة[53]». بإمكان المرء أن يتساءل عن الأسباب الّتي تدفع إلى التّهوين من شأن معاداة الفاشيّة للنّسويّة، وكأنّها كانت أقل خطورة من البقيّة، أو كأنّها تفصيل عرَضيّ.

بالنّسبة إلى النّازيين، كان الأمر أبسط من ذلك، فالنّسويّة هي اختراع يهوديّ. فبما أنّه كان يُنظر إلى النّساء على أنهنّ مجرّد منجبات، فقد قسّمتهنّ النّازيّة إلى فئات للحمل: هناك أوّلا أولئك اللّواتي يتمّ تشجيعهنّ بشدّة على إنجاب العديد من الأطفال، وهناك ثانيا أولئك اللاّئي يُسمح لهنّ بالإنجاب، وهناك ثالثا اللاّتي يكون من الأفضل ألاّ ينجبن، وهناك أخيرا أولئك اللّواتي يتمّ منعهنّ من الحمل. منذ أن أصدر هتلر كتابه «كفاحي»، دعا إلى تعقيم النّساء اليهوديات. وفي عام 1933، تبنّى النّظام قوانين ديموغرافيّة وحدّد لنفسه أهدافا للتّعقيم القسريّ لمئات الآلاف من الأشخاص. (قُدِّر عددهم بنحو 400.000 خلال ذلك العقد، كان نصفهم من النّساء، ولكنهنّ كنّ يمثلن 90 ٪ من أولئك الّذين ماتوا بسبب هذه العمليّات). كما كان

---

(53) - Histoire des femmes en Occident. Le XXe siècle، بيرين، 2002، ص. 197.

يُمارَس إجهاضُ تحسين النّسل l’avortement eugénique حتّى ستّة أشهر من الحمل على النّساء «غير المرغوب فيهنّ» وفق التّسمية المعتمَدة آنذاك. كانت هذه إرهاصات سياسة الإبادة الجماعيّة.

أمّا الإبادة الجماعيّة نفسها، فقد تمّت في البداية عن طريق إطلاق النّار. ولكنّ الجنود كانوا يواجهون صعوبات أخلاقيّة في إطلاق النّار على النّساء والأطفال. فجاءت غرف الغاز لتحلّ هذه المشكلة.

لئن كانت تجربة معسكرات الاعتقال تهدف إلى تجريد الإنسان من إنسانيته – بغضّ النّظر عن جنس المرَحَّلين – ولئن عرف الرّجال والنّساء المصيرَ المأساويّ نفسه في النّهاية، إلاّ أنّ النّازيين قد أقاموا نظاما خاصّا بالأمّهات حديثات الإنجاب، مقارنة بالآباء. لقد شهد العديد من الشّهود على حقيقة أنّ الأمّهات وبناتهنّ الصّغيرات وأولادهنّ الصّغار كانوا يذهبون مباشرة إلى غرف الغاز عندما ينزلن من القطارات. لماذا كانت النّساء اللّواتي كنّ بعدُ صغيرات وقادراتٍ على العمل يُقتَلن؟ كان السّبب عمليّا بحتا. فالنّازيون سرعان ما أدركوا أنّ فصل الأطفال عن أمّهاتهم عند وصول القطارات كان يتسبّب في مشاهد مروّعة، في لحظات من الذّعر كان من الصّعب السّيطرة عليها. وهكذا قرّروا أنّه من الأسهل القضاء على الاثنين، بينما تقوم الأمّهات بتهدئة أطفالهنّ. لذلك تمّ قتل النّساء المتراوحة أعمارهنّ بين 20 و40 سنة بأعداد كبيرة بمجرّد وصولهنّ. أخبر ناجون كانت وظيفتهم في المعتقَل جمعَ حقائب الوافدين الجدد كيف كانوا يحاولون إقناع الأمّهات الشّابّات بتسليم أطفالهنّ إلى شخص

مسنّ تمّت إدانته مسبقا. كانوا يعلمون أنّ هذا الفصل هو فرصتهم الوحيدة للبقاء على قيد الحياة، ولكنّ معظمهنّ رفضن التّخليّ عن أطفالهنّ"[54].

على عكس حرب 1914-1918، لم يكن هناك على الأراضي الفرنسيّة خلال حرب 1940-1944 تمييز واضح بين منطقتين، الجبهة والقاعدة الخلفيّة. كانت الحرب مشتعلة في كلّ مكان وكانت مشاركة المرأة في الصّراع مباشِرة. كنّ في المقاوِمة، حتّى وإن كانت كلمة «مقاومة» تجعلنا نستحضر قبل كلّ شيء صور شخصيات ذكوريّة ذات معاطف طويلة داكنة وقبّعات. كثير منهنّ شاركن في الشّبكات. من المستحيل ذكرهنّ جميعا، بالطّبع، ولكن دعونا نستحضر دانييل كازانوفا Danielle Casanova، المناضلة الشّيوعيّة الّتي دخلت المقاومة في سنّ مبكّرة جدّا، وتمّ اعتقالها في عام 1942 وتوفّيت في أوشفيتز؛ وكذلك سيمون ميشال ليفي Simone Michel-Lévy، الّتي كانت منظِّمَةً لإحدى شبكات المقاومة PTT، وقد تمّ تعذيبها وترحيلها إلى رافنزبروك Ravensbrück ثمّ شنقها؛ ومارسيل هنري Marcelle Henry، الموظّفة السّامية الّتي رتّبت لإخفاء الهاربين وإيوائهم وماتت من الإنهاك عند عودتها من النّفي.

يجب أن نتحدّث أيضا عن إميليان مورو إيفرار Émilienne Moreau-Évrard. كم كانت امرأة قويّة، إميليان. ولدت عام 1898 في با دو كاليه Pas-de-Calais. عاشت في بلدة لوس

(54) - انظر العمل الجماعيّ La Place des femmes dans l'histoire، بيلين، 2010.

Loos، بالقرب من ليل Lille، وكانت ترغب في أن تصبح معلّمة ولكنّ الحرب العالميّة الأولى اندلعت. احتلّ الألمان لوس، فقرّرت إميليان تنظيم مدرسة سرّيّة للأطفال داخل قبو. كان عمرها آنذاك 17 سنة. في سبتمبر من عام 1915، بينما هاجم الأسكتلنديون لاستعادة المدينة، ذهبت لمقابلتهم لتُرشدهم عن مواقع القوات الألمانيّة. ثمّ قامت بمعيّة طبيب اسكتلنديّ بتنظيم مركز إغاثة في منزلها حيث عالجت الجرحى من جرّاء الهجوم.

أقتبس فيما يلي ملفّ سيرتها الذّاتيّة من موقع وسام الاستحقاق l'ordre du Mérite: «لإنقاذ جنديّ إنكليزيّ وقع في مرمى النّار، لم تتردّد لحظة في مغادرة منزلها، متسلّحة بقنابل يدوية، وتمكّنت بمساعدة بعض الجنود الإنجليز، من تجنيبه أذى جنديين ألمانيين كانا مختبئين في منزل مجاور. بعد ذلك بقليل، بينما كان منزلها محاصَرا، أمسكت بمسدّس وأطلقت النّار عبر الباب على اثنين من مشاة العدوّ.»

حصلت بعد الحرب على العديد من الميداليات وقامت صحيفة لوبتي باريزيان Le Petit Parisien بنشر مذكّراتها في حلقات على امتداد شهرين متتاليين. في بداية عام 1916، قام المخرج الأستراليّ جورج ويلوبي George Willoughby بتصوير فيلم مستوحى من مآثرها وكان عنوانه جان دارك لوز The Joan of Arc of Loos (La Jeanne d'Arc de Loos).

ولكنّها لم تذعن لإغراء النّجوميّة، ولم تنس هدفها الأساسيّ وهو أن تصبح معلّمة. وهذا ما حقّقته بالفعل.

عندما اندلعت الحرب العالميّة الثّانية، لم يكن من المعقول بالنّسبة إليها ألاّ تنخرط فيها. لكنّ ما حدث هو أنّ الألمان كانوا يعرفونها، ويعرفون ما فعلته خلال الحرب السّابقة، لذلك بمجرّد وصولهم، وضعوها تحت المراقبة. لم يمنعها ذلك من توزيع منشورات مناهضة لحكومة فيشي سرّا. كما عملت ضابطة استخبارات في جهاز المخابرات، ثمّ أسّست مع زوجها القسم الاشتراكيّ السّرّيّ في لونس Lens. تمّ القبض على زوجها ثمّ أُطلق سراحه – لقد كانا قاب قوسين من الكارثة. لذلك قرّر الزّوجان الذّهاب إلى جنوب فرنسا.

لكن إيميليان لم يكن في نيّتها الاستقرار. فقد أصبحت منسّقة اتّصال لشبكة المقاومة في بروتوس Brutus. وانضمّت في عام 1943 إلى حركة France au Combat. في عام 1944، وقعت كارثة: فقد نفّذ الألمان عدّة مداهمات لمخابئ الشّبكة. كانوا ينتظرون إميليان مختبئين في منزلها. عندما وصلت، أطلقوا النّار عليها، ولكنّهم أخطأوا الرّمي، وتمكّنت من الفرار عبر الأقبية. (يا لها من امرأة، يا لها من امرأة!) انتقلت إثر ذلك إلى لندن، حيث ألقت محاضرات عن المقاومة وقالت على وجه الخصوص: «إنّ النّساء في الغالب هنّ اللاّتي يقمن بتنسيق الاتّصال بين مجموعات المقاومة، وهنّ كذلك اللاّئي يحملن الصّحف والمنشورات ويوزّعنها في كثير

من الأحيان. والنّساء أيضا [...] هنّ اللّواتي يَعُدن منهكات، متعَبات، مستنزَفات، لتبليغ المنظّمات بمعلومات عن تمركز القوات. [...] أستطيع القول إنّ المرأة الفرنسيّة تحرّكت بأسرع ممّا تحرّك الرّجال لأنّها، باعتبارها أمّا، وجدت نفسها في مواجهة مع جميع أنواع الصّعوبات الّتي لا يعرفها الرّجال.»

توفّيت في منزلها، في لونس، في عام 1971.

أُطلق على الجزء الشّمالي من المتنزه، في ساحة الجمهوريّة بباريس، اسم «رصيف إيميليان مورو إيفرار»؛ عندما تمرّون من هناك، يمكنكم أن تتذكّروا هذه المرأة القويّة.

استأنفت غالبيّة نساء المقاومة مجرى حياتهنّ الطّبيعيّ بعد الحرب. لم يطلبن الاعتراف، ولم يخضن مسيرة سياسيّة. لم تنتم أيّ امرأة إلى عضويّة المجلس الوطنيّ للمقاومة. ومن بين «رفاق التّحرير»، وهي رابطة أنشأها الجنرال ديغول، لم يكنّ سوى ستّة من مجموع 1061[55]. لم يحتللن مركز الصّدارة، وأمست المقاومة في أذهاننا ذكوريّة. إضافة إلى ذلك، فإنّ التّاريخ قد ثمّن الأنشطة الّتي شاركن فيها بشكل أقلّ، على غرار الأنشطة في مناطق القتال. فكنّ يُذكَرن أكثر بوصفهنّ منسّقات اتّصال أو استخبارات. وبعد ذلك، في وقت التّحرير، تمّ استبعادهنّ من القتال المسلّح. وهكذا كانت جين بوهيك Jeanne Bohec، الأخصّائية في المتفجّرات، مسؤولة عن

(55) - بيرتي ألبريشت Berty Albrecht، ولور ديبولد Laure Diebold، وماري هاكين Marie Hackin، وسيمون ميشيل ليفيSimone Michel-Lévy ، وإميليان مورو إيفرار Émilienne Moreau-Évrard، ومارسيل هنري Marcelle Henry.

تدريب الرّجال على عمليّات التّخريب، ولكنّ رغبتها في المشاركة في جميع المهمّات القتاليّة جوبهت بالرّفض.

وهكذا إذًا تمّ التّقليل من قيمة دور النّساء في المقاومة بلا شكّ.

ثمّ جاء التّحرير. فرأينا صور النّساء المبتسمات وهنّ يلوّحن بالأعلام أثناء مرور قوّات الحلفاء. كان المشهد يضجّ بالضحك والفرح والابتهاج. ولكن وراء الكليشيهات، كان الواقع أكثر تباينا. فقد شهدت نهاية الحرب ارتفاعا في حالات العنف الجنسيّ.

مرّة أخرى، هذه أحداث نادرا ما يتمّ الحديث عنها والحال أنّها كانت تهمُّ كلَّ معسكر.

لنبدأ بالمعسكر النّازيّ. لقد أعطى إنزالُ الحلفاء عام 1944 دفعا جديدا للمقاومة الّتي ضاعفت عمليّات التّخريب. ردّا على ذلك، قرّرت القيادة النّازيّة أن تكون أكثر وحشيّة مع السّكّان المدنيين. كانت المقاطعة الأكثر تضرّرا من ذلك هي الدّروم la Drôme. قام المؤرّخ فابريس فيرجيلي Fabrice Virgili، المتخصّص في العلاقات بين الجنسين خلال الحربين العالميّتين، بدراسة ما حدث هناك في عام 1944 . وقد قدّر أنّ حالات الاغتصاب الّتي أُبلِغت بها السّلطات يجب مضاعفتها بما لا يقلّ عن إحدى عشرة، أو حتّى عشرين مرّة. ومع ذلك، سجّل الوفد الإقليميّ لدائرة البحث في جرائم حرب العدوّ SRCGE، بعد الحرب، 176 حالة اغتصاب في الدّروم.

في ليفرون Livron، شهّرت هذه الدّائرة بالعديد من عمليات الاغتصاب من هذا النّوع. وتدخّلت بين 21 أوت و28 أوت

1944. في هذا التّاريخ الأخير، كانت أوديل تريتا Odile Trutat هي الضّحيّة. كانت صاحبة قصر فونغران Château de Fontgrand، قبل أن يستولي عليه الفوج رقم 110 في المدفعيّة المدرّعة، ويقومَ جنديان باغتصابها تحت تهديد السّلاح، بحضور العديد من المتواطئين. قام بوصف المشهد صاحبُ مقهى من ليفرون كان شاهدا عليه من مسافة بعيدة. لقد سمع سيّدة القصر، التّقيّة جدّا، تقول وتُعيد: «يا يسوع مريم، سأغفر لك». تمّ العثور على أوديل تريتا ميّتة، وجمجمتها محطمّة، ربّما من ضربات الهراوات، وفخذاها ملطّختان بالدّماء. بُنيت بالقرب من منزلها شاهدة تمّ تدشينها في عام 2019، لتخليد ذكراها. وقد كُتب عليها أنّها اغتيلت على يد الألمان دون أيّ إشارة إلى حادثة الاغتصاب(56).

(بالطّبع لا يعود تاريخ اغتصاب النّساء إلى عام 1944. فهو جزء لا يتجزّأ من جلسات التّعذيب. إنّ النّساء اللّواتي كنّ يتعرّضن للاعتقال والتّعذيب كنّ عرضة للاغتصاب كلّ يوم من قبل العديد من الرّجال)

فيما يتعلق بعمليّات الاغتصاب الجماعيّ، حدثت واحدة من أولاها في سان دونا سور ليرباس Saint-Donat-sur-l'Herbasse. في 15 جوان من عام 1944، أحصت محاضر محاكمة نورمبرغ (اليوم 44، 31 جانفي 1946) 54 امرأة أو فتاة تمّ اغتصابهنّ في 15 جوان 1944. تعرّضت فركور Vercors لنفس

(56) - مقال بقلم فرانك تيزو Franck Tison، "Viols nazis en Drôme (1944)"، متاح على الإنترنت.

الممارسات، بموافقة القيادة النّازيّة. كانت عمليّات الاغتصاب هذه على وجه الخصوص من عمل القوات المنغوليّة وأوروبّا الشّرقيّة الّتي منحها النّازيون تفويضا مطلقا. وكانت تُستخدَم لترويع السّكّان. وكما كتب فابريس فيرجيلي Fabrice Virgili، «على عكس ألمانيا أو إيطاليا، البلدين اللّذين لم يتمّ فيهما إخفاء عمليّات الاغتصاب لا من قبل الضّحايا ولا من قبل المجتمع الّذي حافظ على ذاكرة جماعيّة لها، سرعان ما اختفى اغتصاب النّساء الفرنسيّات من الذّاكرة المشتركة للحرب[57]».

ما احتفظت به الذّاكرة في فرنسا بالمقابل هو النّساء اللّواتي جُزّ شَعرهنّ عند التّحرير بسبب تعاونهنّ مع المحتلّ. لقد اشتغل فيرجيلي أيضا على هذا الموضوع مطوّلا واستمدّ منه عملا رائعا وسمه بـ «فرنسا الذّكوريّة La France virile»[58].نكتشف عند قراءته كم أنّ صورتنا عن هذه الواقعة بعيدة عن الواقع. فهو يقدّر عدد ضحاياها بـ 20 ألفا.

دعونا نقل أوّلا إنّ عمليّات الجزّ لم تبدأ عند التّحرير. فقد بدأ تهديد النّساء بقصّ شعرهنّ منذ عام 1941 وحدث أول جزّ سرّيّ في عام 1943. هذه المدّة تُبطل الفكرة القائلة إنّ الأفعال الّتي ارتُكبت خلال هيجان الأسابيع القليلة بُعيد التّحرير كانت عفويّة.

---

(57)- مقال بقلم فابريس فيرجيلي Fabrice Virgili، Les viols commis par l'armée allemande en France (1940-1944)"، متاح على الإنترنت.

(58) - بايّو، 2000.

الاعتقاد الخاطئ الآخر هو أنّ عمليّات الجزّ كانت من عمل المقاومين المتأخّرين. ولكنّ الواقع هو أنّ من كان يقودها في الغالب هم مقاتلو مقاومة حقيقيون. علاوة على ذلك، فإنّ اللّواتي وُجّه لهنّ الاتّهام بإقامة علاقة جنسيّة مع العدوّ لم يكنّ يمثّلن سوى 40٪ من النّساء مجزوزات الشّعر. فقد عوقب معظمهنّ بتهمة «السّوق السّوداء»، و«الوشاية»، و«التّعاون السّياسيّ»، الأمر الذي جعل فيرجيلي يقول إنّ «جزّ الشّعر لم يكن عقابا على التّعاون الجنسيّ، بل كان العقاب الجنسانيّ على التّعاون». فالمرأة المتعاونة كانت تُعامَل بطريقة مختلفة عن المتعاون الذّكر. (جزّها لم يكن يحول دون محاكمتها، بل وحتّى إعدامها). من خلال جسدها، كانت تجري عمليّة تطهير للوطن وقبل كلّ شيء استعادةُ الرّجال الفرنسيين لفحولَتِهم. كان يُنتَقَمُ بالنّساء من الاذلال. ومن خلال الإساءة إليهنّ، كان يجري التّأكيد على عودة السّلطة الذّكوريّة الوطنيّة.

لسوء الحظّ، إنّ قصّة العنف الجنسيّ خلال الحرب العالميّة الثّانية في فرنسا لا تتوقّف عند هذا الحدّ.

فأولئك الّذين جاؤوا لتحرير البلاد قد ارتكبوه بدورهم. لم تكن المسألة بالنّسبة إلى القوات الأمريكيّة معاقبةَ الفرنسيين بطبيعة الحال. ولكنّ أسطورة المرأة الفرنسيّة، ذات الأخلاق المنحلّة، كانت ماثلة في أذهانهم من قبل. كانت فرنسا، بالنّسبة إليهم، عبارة عن بيت دعارة مفتوح لمن هبّ ودبّ. اهتمّت المؤرّخة الأمريكيّة ماري لويز روبرتس Mary Louise Roberts بذلك بشكل خاصّ في كتابها «ما

يفعله الجنود What Soldiers Do». وجدت أنّ هناك من ناحية صورة عن المرأة الفرنسيّة الّتي تضاجع الجميع، وهناك من ناحية أخرى تنافسا بين الذُّكوريَّة عند الأطراف المتصارعة. كان الرّجل الفرنسيّ، في ذهن الجنديّ الأمريكيّ، عاجزا عن الانتصار على النّازيين، لأنّه تمّ نزع فحولته، وبالتّالي كان من المنطقيّ أن ينتهي به الأمر إلى أن يصبح ديوثا، بينما كان الجنديّ الأمريكيّ يرى نفسه المثل الأعلى الذّكوريّ للمحرِّر. كان الجنود الأمريكيون قد هُيِّئوا لفكرة أنّهم سيكافَؤون بمكافآت مجزية، وأنّ الفرنسيين كانوا مَدينين لهم وأنّ الفرنسيات سيوفين بهذا الدّين.

يجري الحديث عن موجتين من حالات الاغتصاب الفعليّة، في صيف عام 1944 وربيع عام 1945، تتعلّق بنورماندي وبريتاني وإيل دو فرانس.

في أكتوبر عام 1944، تمّت إحالة 152 جنديّا أمريكيًّا على القضاء بتهمة الاغتصاب، ولكن المدهش أنّ 139 منهم كانوا من السّود، والحال أنّ هؤلاء لم يكونوا يشكّلون سوى 10٪ من القوّة العاملة في الجيش. يمكن تفسير هذا التّمثيل غير المتناسب ببساطة: في التقاء الأحكام المسبقة. فعندما كانت المدّعيات يجرّمن شخصًا أسود اللّون، كان يؤخذ بكلامهنّ ويعامَلن على أنّهنّ ضحايا؛ ولكن عندما كنّ يتّهمن رجلا أبيض، كانت السّلطات تشتبه في أنّهنّ عاهرات. كان من المناسب لهيئة الأركان العامّة الأمريكيّة أن تضفي الطّابع العنصريّ على عمليّات الاغتصاب، ممّا سمح لها بالقول إنّ كلّ

المشاكل جاءت من الجنود السّود وليس من البيض بأيّ حال من الأحوال.

بين عامي 1944 و1945، تمّ إعدام 29 جنديّا علنا بتهمة الاغتصاب، 25 منهم كانوا من السّود. ونظرا لأنّه لم يكن هناك سوى الإعدام بالمقصلة في فرنسا، فقد أحضر الجيش الأمريكي جلاّدا من تكساس، متخصّصا في الشّنق. كان الجيش الأمريكيّ يعمل كامتداد لنظام الفصل العنصريّ المعمول به في الجنوب.

لقد حدثت جرائم اغتصاب وجرائم حيثما كان جنود الجيش الأمريكيّ GI متمركزين، في رانس à Reims، وشيربورغ Cherbourg، وبريست Brest، ولوهافر Le Havre، وكاين Caen... كم كان حجمها الفعليّ؟ قدّم روبرت ليلي رقم 17.080 حالة اغتصاب ارتكبها الجنود الأمريكيون، 64٪ منها في ألمانيا و22٪ في فرنسا و14٪ في إنجلترا[59]. من الواضح تماما أنّ الدّافع وراء اغتصاب النّساء الألمانيات لم يكن هو نفسه وراء اغتصاب الفرنسيّات. ولكن كان هناك ميل لتجاهل خصوصيّات العنف في زمن الحرب الّذي عانت منه النّساء في مختلف البلدان.

بعد الحرب، خيّم صمت من نوع آخر: فقد تمّ رفض الاستماع إلى شهادات النّاجيات من معسكرات الاعتقال. كان لا بدّ من الانتظار حتّى السّتّينيات كي يتمكّن «أدب معسكرات الاعتقال» من فرض نفسه مع بريمو ليفي Primo Levi ويورغي سومبران Jorge

(59) - روبرت ج. ليلي Robert J. Lilly، La Face cachée des GI's، بايّو، 2008.

Semprun وروبير أونتلم Robert Anthelme من بين آخرين. لا أفهم مطلقا لماذا لا يُذكر اسم شارلوت ديلبو Charlotte Delbo على نفس المستوى مع هذه الأسماء الكبيرة. أنا نفسي لم يتسنّ لي اكتشافها إلاّ في وقت متأخّر، وذلك بفضل الكتاب الرّائع الّذي كرّسته لها فالنتين جوبي Valentine Goby، والموسوم بـ «أعد نفسي بانتقام باهر Je me promets d'éclatantes revanches».[60]

كانت شارلوت ديلبو مقاومة. ألقي عليها القبض في عام 1942 وتمّ ترحيلها في عام 1943 إلى أوشفيتز، ثم في عام 1944 إلى رافنزبروك. أدعوكم إلى قراءة ثلاثيّة لها بعنوان «أوشفيتز وما بعده Auschwitz et après»، المتكوّنة من الأجزاء الثّلاثة التّالية: «لا أحد منّا سوف يعود Aucun de nous ne reviendra» و«معرفة غير مجدية Une connaissance inutile » و«المقياس في أيّامنا Mesure de nos jours». إنّها ثلاثيّة تخطف الأنفاس. بعد عودتها من المعتقلات، كتبت هذه الجملة، البسيطة جدّا والمثاليّة جدّا: «لقد أعيدت لي الحياة، وها أنا هنا أمام الحياة وكأنّني أمام فستان لم يعد بوسعي أن أرتديه».

في الجزء الأوّل، تحاول أن تمنح للشّعر مكانا في عالم معسكرات الاعتقال وتروي أشياء واضحة، مثل حقيقة أنّ «أوشفيتز» لم يكن موجودا بالنّسبة إليهنّ. فالمكان الّذي كنّ موجودات فيه لم يكن يحمل اسما. كان لا مكانا. ولكنّ ما أذهلني حقّا هو الجزء الثّاني،

---

(60) - L'Iconoclaste، 2017.

الّذي تصف فيه كما لم أقرأ من قبل الشّعورَ بالعطش والجنون اللّذين ينجمان عنه. إنّها تريد هزنا في رجائها للأحياء لمسامحتهم على أنهم أحياء:

«(...) كيف كيف
يُغفر لكم أنّكم أحياء
كيف كيف
يغفر لكم
أولئك الّذين ماتوا
من أجل أن تمرّوا
مرتديين تماما كل عضلاتكم
من أجل أن تشربوا على الشّرفات
من أجل أن تكونوا أصغر سنّا في كلّ ربيع
أتوسّل إليكم
افعلوا شيئا
تعلّموا خطوة
من رقصة
شيئا يبرّر وجودكم
شيئا يمنحكم الحقّ
في أن تمتلكوا جلدكم وشعركم
تعلّموا المشي والضّحك
لأنّه من الغباء جدّا
في النّهاية

أنّ الكثيرين قد ماتوا
وأنتم مازلت أحياء
دون أن تصنعوا شيئا بحياتكم(61).»

كلّ الأدب هنا، في هذه الكلمات،

فاقرأوا شارلوت ديلبو.

---

(61) - شارلوت ديلبو Charlotte Delbo، Une connaissance inutile، مينوي، 1970.

16

الكفاح في سبيل الحقوق منذ فترة ما بعد الحرب

مع انتهاء الحرب، كان من المتوقَّع أن تمنح فرنسا الحرّة المساواة السّياسيّة للنّساء اللّواتي خاطرن بحياتهنّ من أجل البلاد. كان الحقّ في التّصويت يلوح في الأفق. ولكن لا يجب أن نعتقد أنّنا كنّا مدينات بذلك للحرب. دعونا لا ننسَ أنّنا مدينات بذلك قبل كلّ شيء لتصميم عدّة أجيال من النّسويات.

في 21 أفريل 1944، أصبحت النّساء الفرنسيّات أخيرا ناخبات وذات أهليّة. في 21 أكتوبر 1945، خلال الانتخابات التّشريعيّة، تمكّنت 33 امرأة من الوصول إلى الجمعيّة الوطنية لأوّل مرّة، أي ما يعادل 5.6٪ من البرلمان: 17 منهنّ كنّ شيوعيات، و6 اشتراكيات، و9 ينتمين إلى حركة الجنرال ديغول، وواحدة من حزب الحرّيّة الجمهوريّ. كنّ ممرّضات وصحفيّات وعاملات ومعلّمات وكاتبات على الآلة الرّاقنة ومحاميات[62]. وكنّ في كثير من الأحيان مقاتلات في المقاومة، مثل جيرمين بيرول Germaine Peyroles، وفي بعض الأحيان من المرحَّلات النّاجيات، مثل ماري كلود فايون كوتيرييه

---

(62) - يمكن العثور على أسمائهنّ وسيرهنَ الذّاتيّة وصورهنّ على موقع الجمعيّة الوطنيّة، تحت عنوان Les 33 femmes élues députées pour la première fois, en 1945

Marie-Claude Vaillant-Couturier وريموند نيديليك Raymonde Nédélec. دعونا نذكرْ من بينهنّ أيضا المرأة السّوداء الوحيدة، أوجيني إيبوي تيل Eugénie Éboué-Tell، زوجةَ فيليكس إيبوي، الّتي تمّ انتخابها عضوا في البرلمان عن غوادلوب؛ كانت قد انخرطت في القوّات النّسائيّة الفرنسيّة الحرّة خلال الحرب.

وأخيرا حصلت جميع النّساء على المواطَنة. هل الجميع حقّا؟ كلاّ. ففي المستعمَرات، تمّ حرمان نساءِ السّكان الأصليين منها. في عامي 1944 و1945، تظاهرت النّساء السّنغاليات للمطالبة بالحقّ في التّصويت؛ فكان على الحكومة الفرنسيّة أن تُذعن لهنّ في عام 1945. كانت آخر من حصلن عليها هنّ النّساء المسلمات في الجزائر، اللاّئي لم يصبح بإمكانهنّ التّصويت إلاّ انطلاقا من عام 1958. (في حين كان بإمكان مسلمي الجزائر ذلك منذ عام 1947، وكذلك النّساء غير المسلمات في الجزائر.)

في فترة ما بعد الحرب هذه، تحصّلت النّساء على بعض الحقوق الإضافيّة الأخرى. فقد تمّ فتح أبواب القضاء لهنّ في عام 1946. وصدر في نفس العام مرسوم يحظر تخفيض راتب المرأة مقارنة براتب الرّجل، وكان شعار «الأجر المتساوي عن العمل المتساوي» ما يزال ينتظر التّفعيل.

تميّزت تلك الحقبة أيضا بالإعلان عن دولة الرّفاه. لتشجيع طفرة المواليد، تمّ التّنصيص على جملة من المزايا الاجتماعيّة. كان معدّل عمالة الإناث في انخفاض بالفعل منذ عشرينيات القرن الماضي، وقد

استمرّ في التّدهور حتّى السّتينيات، وهكذا ظهرت من جديد السّلطة الأسريّةle conjugalisme إبّان الثّورة الفرنسيّة. لم تكن حقوق المرأة هي ما يفكَّرُ فيه، بل كان التّفكير في الأسرة قبل كلّ شيء. فتمّ إنشاء مواطَنة اجتماعيّة للنّساء تجعلهنّ يعتمدن على الزّوج والدّولة معًا. هذا ما تسمّيه الخبيرة الاقتصاديّة هيلين بيريفييه Hélène Périvier «الاقتصاد السّياسيّ للنّظام الأبويّ[63]»، والّذي ما تزال العديد من آثاره ماثلة حتّى اليوم. لنأخذ أمثلة محدّدة على ذلك.

في الوقت الحاضر، هناك إعانة مخصّصة للبالغين من ذوي الإعاقة. ولكنّ احتسابها يتمّ من خلال الأخذ بعين الاعتبار دخل الزّوج. ومن هنا، إذا كان زوج المرأة المعوقة يجني مالا جيّدا من عمله، فإنّ هذه المرأة لن تتلقّى الإعانة. وسوف تعتمد كلّيّا على زوجها[64]. ومن ثمّة، فإنّ هذه المنح ليست موجّهة لدعم استقلاليّة النّساء، بل إنّ العكس هو ما يحدث، لأنّ الدّولة تقوّي اعتمادهنّ على شركائهنّ.

هناك مثال آخر على هذه «السّلطة الأسريّة» من خلال شيء يعرفه الجميع: وهو الضّرائب. إنّ ضريبة الدّخل دائما ما يُضفى عليها الطّابع الزّوجيّ. بمعنى أنّك إذا تزوّجت أو ارتبطت بقرين، ستكون ملزما بتقديم إعلان مشترك. بيد أنّ هذا الإعلان المشترك يسمح

(63) - في كتابها L'Économie féministe، مطابع العلوم السّياسيّة، 2020.

(64) - في الوقت الّذي أحرّر فيه هذه الكلمات، لا يزال الحال على ما هو عليه، ولكن تمّ تقديم التماس. نأمل أن يتغير الوضع قريبا.

لصاحب الرّاتب الأعلى بتخفيض ضرائبه، فيما يُعرِّضُ صاحبَ الدّخل الأقلّ لزيادة ضريبيّة. وكلّنا نعلم أنّ الدّخل الأكبر في الزّواج المختلط في فرنسا هو في معظم الأحيان دخْل الرّجل.

على حدّ قول هيلين بيريفير، فإنّ «النّظام الضّريبيّ على دخل الأزواج، المصمَّم في عام 1945 والّذي لا يزال ساريا حتّى يومنا هذا، ساهم بدوره في تعزيز خمول النّساء المتزوّجات، أو على الأقلّ في دعم دخل الأزواج الّذين يتبنّون تنظيما قائما على التّوزيع الجنسانيّune organisation sexuée». بعبارة أخرى، من المفيد ماليّا للرّجل أن تعمل رفيقته بدوام جزئيّ، وأن تقوم بالتّالي بالأعمال المنزلية والوالديّة مجانا. إنّه هكذا لن يدفع تكاليف رعاية الأطفال أو المساعدة المنزليّة ويظلّ مع ذلك متمتّعا بخصم ضريبيّ(65).

على العكس من ذلك، يمكننا أن نتخيّل نظاما يدفع فيه كلّ فرد ضرائبه دون أيّ اعتبار لوضعه العاطفيّ. لكن ليس هذا ما تمّ اختياره في أعقاب الحرب. فقد تمّ إعادة بناء فرنسا على خرسانة الأزواج.

هذه المنظومة الاجتماعيّة الّتي أقامتها الدّولة كانت تتوافق أيضا مع سيادة فكرة ربّة المنزل. لم يكن يُتَصوّر وجودُ مصدرٍ سعادةٍ أكبرَ للنّساء من قضائهنّ نصف أسبوعهنّ في تنظيف منزلهنّ. لم تكن فكرة الاستقلاليّة الاقتصاديّة شائعة للغاية.

---

(65) - للمزيد من المعلومات حول ماهيّة الضّريبة النّسويّة، يمكنكم العودة إلى البرنامج الإذاعيّ Rends l'argent حيث تناولتُ هذا الموضوع بإسهاب.

بعد الحرب العالميّة الثّانية، تمّ بناء سبعة ملايين منزل. وفي المتوسّط، تضاعفت مساحة سطحها. أدّى الاتّصال بشبكات المياه والكهرباء والغاز إلى التّخلّص من المهامّ الأكثر مشقّة (مثل أعمال الإمداد الرّوتينيّة، والبدء في مراقبة الحرائق، والتّخلّص من الرّماد والمياه المستعملة). ولكن برز أيضا مزيد من الشّعور بالوحدة بين النّساء. فقد فقدن أماكن تنشئتهنّ الاجتماعيّة الأنثويّة، وسرعان ما ظهر لديهنّ شعور بالضّيق.

في الولايات المتحدة، كان هناك جيل كامل من النّساء قد تمكّن من الالتحاق بالجامعة ومتابعة التّعليم العالي ثمّ تزوّجن ووجدن أنفسهنّ ربّات بيوت. كُلِّفت أحداهنّ ذات يوم للقيام بدراسة صغيرة. كان المطلوب منها هو إعادة الاتّصال بصديقاتها القدامى في الكلّيّة (كان ذلك في بداية السّتينيات بعد أن انتهين من دراستهنّ قبل خمسة عشر عاما) ومطالبتهنّ بالإجابة على استبيان حول ما أصبحن عليه وماذا يفعلن وكيف يقيّمن حياتهنّ. انطلقت في العمل وعندما تلقّت الإجابات، فهمت أنّها قد اكتشف للتّوّ ظاهرة هائلة لم يكن أحد يتحدّث عنها مطلقا. شيئا ما غير مرئيّ تماما.

إنّها حالةٌ من الاكتئاب المعممّ، سمّته «القلق غير القابل للتّعريف» والّذي دفعها إلى تأليف كتاب على مدى خمس سنوات كان له تأثير القنبلة في الولايات المتّحدة: «المرأة الغامضة La Femme mystifiée» (1963). رَوَتِ بيتي فريدان Betty Friedan في هذا الكتاب كيف كانت النّساء الأميركيات، وخاصّة الأمّهات، يعانين

لأنّهن لم يكنّ يتمتّعن بحياة مستقلّة. فهنّ لم يكنّ موجودات بوصفهنّ أفرادا، بل بوصفهنّ شريكات أو أمّهات فقط. هذا الحرمان من حقهنّ الأساسيّ في «الكينونة» أغرقهنّ في عذابات صامتة. «كان عليّ أن أجد اسما لما كان يمنعنا من ممارسة حقوقنا، ويجعلنا نشعر بالذّنب في كلّ مرة كنّا نحقق فيها شيئا باعتبارنا بشرا لا باعتبارنا زوجات أو أمّهات.»

كفاح المرأة هذا من أجل حقّها في أن تعيش حياتها الخاصّة، سيأخذ في فرنسا شكل النّضال من أجل الحقّ في الإجهاض. هذا النّضال أيضا كان حقيقة جيل كامل آمن بالمساواة. لقد رأت المرأة الجامعات تُفتح، وكان لديها طموح. ولكنّها رأت في حظر وسائل منع الحمل والإجهاض مصدرا فظيعا للظّلم. فالطّالبة الشّابّة الّتي تقع في الحمل (لطالما كرهت هذا التّعبير، الّذي يماثل تعبير «الوقوع في الحُبّ») كانت ترى حياتها المهنيّة تتعطّل وربّما، في معظم الأحيان، تتوّقف بشكل نهائيّ. عليكم أن تتخيّلوا ما كان يعنيه ذلك. وَعْدُ الرّجال بالإمساك عن القذف، ثمّ «أوف، أنا آسف»، والحال أنّ هذا لم يكن يعنيهم حقّا، ويستطيعون مواصلة تعليمهم وحياتهم المهنيّة. كانت النّساء يبحثن عن مُجهِضات، فإذا بهنّ يجدن أنفسهنّ يخضعن لعمليّة إجهاض في ظروف مأساويّة وفي كثير من الأحيان صادمة — اقرؤوا كتاب «الحدث L’événement»، وهو قصّة رهيبة من تأليف آني إرنو Annie Ernaux. لقد كانوا يُحْرَمُونَ ممّا كان يمكن أن يحميهم من هذه الكارثة. والأسوأ من ذلك، هو أنّ القانون الّذي

كان ساريا هو نفسُه القانون القمعيّ للغاية لعام 1920. من الصّعب تخيّل الضّغط الّذي كان يحدثه هذا على النّساء الشّابّات.

في هذا السّياق، كان الحصول على حبوب منع الحمل والإجهاض يعني حقّا الحصول على الحقّ الأساسيّ في امتلاك الإنسان جسده. بهذين الإصلاحين، استطاعت النّساء البدء في فعل ما يحلو لهنّ بحياتهنّ، وعيش حياتهنّ بحرّيّة. منذ عام 1956، طالبت جمعيّة «الأمومة السّعيدة» (الّتي انبثقت عنها جمعيّة تنظيم الأسرة) بالحقّ في حبوب منع الحمل. وبالفعل تمّ ترخيص استعمال حبوب منع الحمل في عام 1967، ولكن بطريقة خاضعة للرّقابة المشدّدة.

قبل انتفاضة ماي 68، كانت الحركات النّسوية في حالة تعبئة بالفعل. ولئن شاركت النّساء بكثافة في أحداث ماي، إلاّ أنّهن اختفين كما لو بمفعول سحريّ من الصّورة والصّوت. لم يُشاهَدن في أيّ مكان، ولم يُدعَيْن إلى أيّ طاولة مفاوضات. ومع ذلك، لعبت مظاهرات ماي دوْرا مهمّا للنّاشطات. فقد أصبحن أكثر تسييسا وتعلّمن كيف ينظّمن أنفسهنّ في مجموعات (وينقسمن أيضا، ولكنّنا لن ندخل هنا في تفاصيل تلك الخلافات[66]).

في عام 1971، تمّ نشر بيان لـ 343 امرأة أعلنّ فيه للعموم أنّهنّ قد أجرين عمليّة إجهاض. من بين تلك الأسماء، نجد سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir، الّتي حرّرت النّص، وكريستين

---

(66)- للحصول على سرد تاريخيّ مفصّل عن هذه الحركات، يمكنكم قراءة الكتاب الأكثر شمولا Ne nous libérez pas, on s'en charge، (المرجع آنف الذّكر).

دلفي Christine Delphy، وكاترين دونوف Catherine Deneuve، ومارغريت ديرا Marguerite Duras، وفرانسواز ديوبون Françoise d'Eaubonne، وبريجيت فونتان Brigitte Fontaine، وجيزيل حليمي Gisèle Halimi، وفيوليت لوديك Violette Leduc، ومارسيلين لوريدان Marceline Loridan، وأريان موشكين Ariane Mnouchkine، وجان مورو Jeanne Moreau، وفرانسواز ساغون Françoise Sagan، وكريستيان روشفور Christiane Rochefort، ودلفين سيريغ Delphine Seyrig، ونادين ترونتينيون Nadine Trintignant، وأنياس فاردا Agnès Varda، وإيرسيلا فيان كيبلير Ursula Vian-Kübler، ومونيك فيتيغ Monique Wittig.

في عام 1972، وظّفت المحامية جيزيل حليمي محاكمةَ بوبينيي Bobigny لإعادة موضوع الإجهاض إلى الواجهة. فقامت بتوظيف السّياسة في قاعة المحكمة. وفي عدد من الحالات، سعت بنشاط للحصول على تغطية إعلاميّة كي تدفع معاركَها قُدُمًا. وهكذا رفضت عقدَ الجلسة الخاصّة بقضيّة الاغتصاب الجماعيّ لكلّ من تونغلي Tonglet وكاستيلانو Castellano خلف الأبواب المغلقة. ولتوسيع إطار المحاكمة، قامت بتحريض كلّ من استطاعت، وبإحضار ليس فقط الشّهود في القضيّة نفسها، ولكن أيضا مثقّفات وناشطات، إلى نقابة المحامين، وذهبت إلى حدّ التّفكير في أن يدلي أبناؤها بشهاداتهم.

لم تكن العدالة، حسب رأيها، معزولة عن المجتمع، بل أحد الأماكن الّتي يمكن من خلالها تغيير ميزان القوى. كانت حليمي ترافع بخُطَبِ امرأة مناضلة، وتُسَيِّسُ الفرد، وتناشد من خلاله الرّأي العامّ، والمجتمع ككلّ، الّذي تستدعيه إلى المحاكم. وهذا بالضّبط ما تُتَّهم به النّسويات حاليّا. هناك ميل في الوقت الحاضر للنّطر إلى المحاكم على أنّها فضاءات مقدّسة يجب أن تبقى بمنأى عن الاضطرابات السّياسيّة في المجتمع. ولكنّ جيزيل حليمي كانت تعلم أنّ كل شيء سياسيّ. أنّه عندما يتمّ الحكم في قضيّة اغتصاب، فإنّ النّصوص القانونية (وتطبيقها) هي ثمرة حقبة زمنيّة ويمكن تعديلها والتّأثير عليها وتحويلها، وأنّه من أجل الوصول إلى تطوير الجهاز التّشريعيّ، فمن الفعّال للغاية المرورُ عبر التّغطية الإعلاميّة لبعض المحاكمات.

أسلوب المحامية السّياسيّة هذا، استخدمته بشكل خاصّ دفاعا عن الحقّ في الإجهاض. فالقانون الّذي يجيز الإجهاض ليس ثمرة نضال سيمون فيل وحدها، بل كذلك الآلاف من النّساء اللّواتي قاتلن من أجل حصولنا على هذا الحقّ الأساسي في التّحكّم في أجسادنا. ومن بين هؤلاء اللّواتي يجب ذكر أسمائهنّ، هناك طبعا جيزيل حليمي.

ولكن ما هي محاكمة بوبيني Bobigny؟ كانت محاكمةً حوكمت فيها خمس نساء. فقد تعرَّضت ماري كلير Marie-Claire للاغتصاب في سنّ السّادسة عشر من قِبل صبيّ يدرس معها في نفس

المدرسة الثّانويّة. لم تكن تريد الاحتفاظ بالطّفل الّذي في بطنها وأخبرت والدتها ميشيل بذلك، وكانت هذه تعمل في الهيئة المستقلّة للنّقل في باريس RATP وتربّي بناتها الثّلاث بمفردها. فأخذت في جمع المال الّذي تستطيع دفعه مقابل تكاليف عمليّة الإجهاض لابنتها، الّتي كانت تمارسها صديقةُ زميلةٍ لها. تعرّض الطّفل أثناء العمليّة لنزيف ولكنّه نجا منه. ولكن، في هذه الأثناء، تمّ القبض على مغتصبها بتهمة سرقة درّاجة ناريّة. وحتّى يبدو شخصا جيّدا في عيون الشّرطة، قرّر الإبلاغ عن ماري كلير. وهكذا تمّ القبض على النّساء.

مثّلت هذه المحاكمة لحظة مهمّة تحوّل خلالها الرّأي العامّ إلى مؤيّد لحقوق النّساء. حتّى أن جيزيل حليمي دعت أمّا عزباءَ للإدلاء بشهادتها لإثبات صعوبة الحياة بالنّسبة لهؤلاء النّساء. إليكم فيما يلي مقتطفا من مرافعتها الختاميّة:

فاقرؤوا هذا النّصّ الرّائع وانظروا كيف أنّه للأسف، لم يتقادم بعدُ:

سيّدي الرّئيس، سادةَ المحكمة المحترمين، [...]

إنّني أشعر، وبداخلي امتلاء لم أعشه من قبل، بانسجام تامّ بين وظيفتي المتمثّلة في المرافعة والدّفاع، ووضعي بصفتي امرأة. [...]

لذلك فإنّني أشعر في المقام الأوّل، على المستوى الجسديّ، وهذا ما لا يجب أن أخفيه، بتضامن جوهريّ مع هؤلاء النّساء الأربع ومع الأخريات. [...]

ولكن ما أحاول التّعبير عنه هنا، في هذا اليوم، هو أنّني أشعر بارتباط دقيق وكامل مع السّيّدة شوفالييه ومع هؤلاء النّساء الثّلاث اللّواتي يسميهنّ القانون متواطئات، ومع هؤلاء النّساء الحاضرات في جلسة الاستماع، ومع هؤلاء النّساء اللّواتي يتظاهرن في الشّارع، ومع هذه الملايين من الفرنسيّات وغيرهنّ.

إنّهنّ عائلتي.

إنّهنّ معركتي.

إنّهنّ ممارستي اليوميّة.

ولئن تحدّثت اليوم، أيّها السّادة، عن الإجهاض فقط وعن الوضعيّة المفروضة على النّساء بموجب قانون قمعيّ، قانون ينتمي لعصر آخر، فذلك لأنّ هذا القانون هو حجر أساس الاضطهاد الذي يصيب النّساء وليس لأنّ القضيّة تجبرنا على ذلك [...]

يُراد أن يصنع للمرأة مصير: مصير بيولوجيّ، مصير لا تستطيع أيّ منّا، أو لا تملك، حقّ الفكاك منه. ومصيرنا جميعا، هنا، هو الأمومة. يتحدّد الرّجل، ويوجد، ويتحقّق، من خلال عمله، من خلال إبداعه، من خلال الاندماج الّذي يتمتّع به في العالم الاجتماعيّ. أمّا المرأة، فلا تتحدّد إلاّ بالرّجل الّذي تزوّجته وبالأطفال الّذين أنجبتهم.

هذه هي إيديولوجيا هذه المنظومة الّتي نرفضها.

هل تعلمون، أيّها السّادة، أن واضعي القانون المدنيّ، قد كتبوا في ديباجتهم ما يلي، وهذا هو مصير المرأة بالكامل: «وُهِبَت المرأةُ للرّجل كي تنجب له أطفالا ... فهي إذًا ملكه مثلما أنّ شجرة الفاكهة هي ملك البستانيّ». لا شكّ وأنّ القانون المدنيّ قد تغيّر، ونحن نرحّب بذلك. لكن هناك نقطة جوهرية للغاية وهي أنّ المرأة ما زالت مضطَهَدة، ويجب أن تبذلوا جهدا في هذا المساء لفهمنا.

نحن ليس لدينا حقّ تقرير مصيرنا.

إذا كان لا يزال هناك عَبْدٌ في العالم، فهو المرأة، الخادمة، لأنّها تمثُل أمامكم، أيّها السّادة، عندما لا تحترم قانونكم، عندما تُجهض. أليس المثولُ أمامكم هو بالفعل الدّليل القاطع على اضطهادنا؟ اعذروني أيّها السّادة، فقد قرّرتُ أن أقول كلّ شيء هذا المساء. انظروا إلى أنفسكم وانظروا إلينا. أربعُ نساء يمثُلن أمام أربعة رجال... وللحديث عن ماذا؟ للحديث عن أنابيب وأرحام وبطون وحمل وإجهاض! ...

هل تعتقدون أنّ الظّلم الجوهريّ وغير المحتمَل ليس موجودا هنا بالفعل؟

هؤلاء النّساء الأربع الماثلات أمام هؤلاء الرّجال الأربعة! ألا تعتقدون أنّ هذا هو الدّليل على هذا النّظام القمعيّ الّذي تعاني منه المرأة؟ [...]

وعندما نصوغ هذا الادّعاء الأساسيّ، الجسديّ، بأن نقرّر مصير أنفسنا، بأن نمتلك أجسادنا، فلأيّ جهة نصوغه؟ إنّنا نصوغه إلى

الرّجال. إنّكم أنتم من نتحدّث إليهم. ونقول لكم، «نحن النّساء، لا نريد أن نكون أقنانا بعد الآن.»

فهل توافقون أنتم، أيّها السّادة، على المثول أمام محاكم النّساء بسبب أنّكم امتلكتم حق التّصرف في أجسادكم؟ ... يبدو هذا أمرا جنونيّا! [...]

إنّ القبول بأن نكون مستلبات إلى هذا الحدّ، القبول بأنّنا لا نستطيع امتلاك أجسادنا، سيكون، أيّها السّادة، بمثابة القبول بأنّنا حقّا مجرّد صناديق، بأنّنا أوعية يزرع فيها المرءُ على غرّة، أو عن طريق الخطأ، أو عن طريق الجهل، حيوانا منويّا. سيعني ذلك القبولَ بأنّنا حيوانات للتّكاثر دون أن يكون لنا رأي. [...]

إنّ فعل الإنجاب هو فعل الحرّيّة بامتياز. هو حرّية كلّ الحرّيات، الأكثر أساسيّة، والأكثر خصوصيّة، من حرّياتنا. ولا أحد أيّها السّادة، رجاء افهموني، لا أحد تمكّن من إجبار امرأة على الولادة عندما قرّرت هي عدم الإنجاب. [...]

بحكمكم هذا اليوم، ستقرّرون رأيكم فيما يتعلّق بالإجهاض وفيما يتعلّق بهذا القانون وهذا القمع، وقبل كلّ شيء، لا يجب عليكم تجنّب السّؤال الأساسيّ التّالي: هل للإنسان، بغضّ النّظر عن جنسه، الحقّ في تقرير مصيره؟ إنّه لم يعد لدينا الحقّ في تجنّبه. [...]

لقد انتهيت من مرافعتي، وأرجو من المحكمة أن تعذرني على الإطالة في توضيحاتي. سأقول لكم كلمتين أخريين فقط. [...] «هل لا يزال لدينا، اليوم، الحقّ، في فرنسا، في بلد يقال إنّه «متحضّر»، في

إدانة نساء لأنّهن قرّرن مصيرهنّ أو لأنّهنّ تعاونّ على تقرير مصيرهنّ؟» هذا الحكم، أيّها السادة، وأنتم تعلمون ذلك - فأنا لا أهرب من الصّعوبات، ولهذا أتحدّث عن الشّجاعة - هذا الحكم بالإفراج عنهنّ سيكون حكما لا رجعة فيه، وفي أعقابكم، سَيَهْتَمُّ به المشرّع. نقولها لكم، عليكم أن تنطقوا به، لأنّنا نحن النّساء، نصفَ البشريّة، قد انطلقنا في مسيرتنا. وأعتقد أنّنا لن نسمح لهذا القمع بأن يستمرّ بعد اليوم.

أيّها السّادة، إنّ الأمر متروك لكم اليوم لتقولوا إنّ «عصرَ عالَمٍ آيل للنّهاية قد بدأ».

لقد أُطلِقَ سراحُ ماري كلير، وحُكم على الآخرين بأحكام مخفّفة.

كانت القضيّة قبل كلّ شيء فرصة للنّسويات لجعل المجتمع الفرنسيّ في مواجهة نفاقه. فقد كان من المعروف أنّ النّساء الثّريّات يذهبن إلى إنجلترا للإجهاض وأنّ النّساء الفقيرات هنّ اللّواتي يلجأن إلى المُجهِضات.

الوجه الآخر للنّفاق، ونعني به الفضيحة الهائلة الّتي بتنا نعرفها بشكل أفضل بفضل أعمال فرانسواز فيرجيس Françoise Vergès وميريام باريس Myriam Paris، يتمثّل في أنّه في الوقت الّذي كانت فيه النّساء في فرنسا المتروبوليّة ينظّمن أنفسهنّ للحصول على حقّ الإجهاض، كانت النّساء فيما وراء البحار يعانين الويلات من نفس الدّولة الفرنسيّة. فقد كان يتمّ إجبارهن على الإجهاض، بل وحتّى

على تعقيم بعضهنّ. كان على نساء فرنسا المتروبوليّة أن ينجبن أطفالا، بينما لم يكن على نساء جزر الهند الغربيّة فعل ذلك. بقيت هناك نقطة مشتركة بينهما: ففي كلتا الحالتين، استأثرت الدّولة لنفسها حقّ اتخاذ القرار مكانهما ورفضت تمكينهما من حرّيّة الاختيار.

في مسار الكفاح من أجل الحصول على الحقّ الأساسيّ في الإجهاض، كان هناك منعطف تقنيّ. إنّه ظهور طريقة كرمان la méthode Karman.

كانت عمليّات الإجهاض سابقا تتمّ عن طريق كشط الرّحم curetage؛ ومع طريقة كرمان تمّ الانتقال إلى الشّفط، فقد كان أقلّ إيلاما وأرخص وأقلّ خطورة. وكان بإمكان ممرّضات أو قابلات القيام به في الشُّقق.

في عام 1973، تمّ تأسيس الحركة من أجل حرّية الإجهاض ومنع الحمل MLAC.

وتمّ سنّ أوّل قانون يشرّع الإجهاض في عام 1974. ولكنّ التّصويت النّهائيّ عليه تمّ في عام 1979. وأمّا تكفّل الضّمان الاجتماعيّ به، فقد تمّ في عام 1982.

لا أعرف ما إذا كان بإمكان أولئك اللاّئي لم يعرفن ما كان الأمر عليه في الماضي، وأنا واحدة منهنّ، أن يدركن في هذه الأيام أهمّيّة تلك القوانين. لقد غيّرت حياة النّساء. أولئك النّساء انتصرن كي نحصل نحن على حرّيتنا – لذلك وجب شكرهنّ وعدم نسيانهنّ.

دعونا نكفَّ عن وضع هذا التّاريخ في زاوية صفحة من كتاب تاريخ في فصل خاصّ بالمجتمع، وكأنّه أقلّ أهمّيّة من السّياسة أو الاقتصاد. على العكس من ذلك، يجب دراسة هذه الحركة في أدقّ تفاصيلها، وأساليب عملها، وتنظيمها. يجب أن نعرف أسماء هؤلاء النّساء كما نعرف أسماء الرّجال «العظماء».

لماذا لا يعرف الجميع سيمون إيف Simone Iff، على سبيل المثال؟ كانت ابنة قسّ، بروتستانتيّة، ومقاومة، وأمّا لخمسة أطفال، وقد أعلنت أنّها أجهضت عدّة مرات. كانت واحدة من الدّاعيات لبيان الثّلاث مئة وثلاثة وأربعين امرأة، وترأّست حركة تنظيم الأسرة، وأدلت بشهادتها في محاكمة بوبيني Bobigny، وشاركت في تأسيس الحركة من أجل حرّيّة الإجهاض ومنع الحمل. وممّا قالت على وجه الخصوص قولها إنّ الإجهاض ليس موضوعا متعلّقا بامرأة في محنة لا تستطيع الخروج منها، ولكن ببساطة بالحقّ في اختيار ما تريد. ينبغي أن يكون لنا الحقّ في الإجهاض دون الحاجة إلى تبرير ذلك. لهذا كانت من أولئك اللّواتي كنّ يفضّلن أن تتولّى وزيرةُ حقوق المرأة القانونَ بشأن الإجهاض بدلا من وزيرة الصّحّة، سيمون فايل. وبصفتها كانت عضوا في مكتب إيفيت رودي Yvette Roudy، وزيرةِ حقوق المرأة آنذاك، ناضلت سيمون إيف بعد ذلك من أجل الحصول على تعويض عن الإجهاض من خلال الضّمان الاجتماعيّ، وكان هذا هو السّبيل الوحيد لضمان المساواة في الوصول إلى الإجهاض، بصرف النّظر عن مسائل الطّبقة الاجتماعيّة. كما ناضلت من أجل حجز أماكن في المستشفيات

للإجهاض، وفي عام 1986 شاركت في تأسيس الائتلاف النّسويّ ضدّ الاغتصاب. توفّيت عام 2014، عن عمر يناهز التّسعين، بعد أن كرّست حياتها لتغيير حياة النّساء الأخريات.

وتمشّيا مع حركة استعادة تملّك النّساء لأجسادهن، تندرج الحركة الحاليّة المناهضة لأشكال العنف الجنسيّ. يتعلّق الأمر مرّة أخرى بالدّفاع عن أجسادنا وخياراتنا وحرّيتنا. لا تريد النّساء يدا توضع عنوة على الأرداف، ولا لمسا غير مرغوب فيه، ولا إثارة جنسيّة غير مرغوب فيها. إنّهنّ لم يعدن يردن أن يأتي الرّجال ويستخدموهنّ وكأنّهنّ كشك فواكه وخضروات. إنّهنّ يردن أن يعشن بوصفهنّ بَشَرا كاملين، حرّات في أجسادهنّ، وحياتهنّ، وخياراتهنّ.

يردن أن يتمّ الاعتراف بهنّ والتّعامل معهنّ على قدم المساواة. هذه هي الحركة النّسوية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

17

الفكر المتحيّز جنسيًا ما زال راسخًا

لقد رأينا كيف نظر كلّ عصر إلى العلاقة بين الجنسين والنّوعين الاجتماعيين. ولكن ماذا عن هذه الأيّام؟ إنّنا نعيش في امتداد لفكر الطّبيعة، في امتداد لتصنيف جنسيّ ثنائيّ، مثلما بدأ في فرض نفسه على القرن الخامس عشر، بفكرة قالبين مختلفين، أحدهما للرّجال والآخر للنّساء.

ولكن منذ عصر التّنوير، أحرز العلم تقدّما هائلا. فلم نعد نتحدث حقّا عن الطّبيعة بل عن علم الاحياء. تبقى المشكلة في أنّ البعض مستعدّون لسلك جميع الطّرق المختصَرة، حتّى لو أدّى ذلك إلى ارتكاب عدد معيّن من الأخطاء، طالما وجدوا فيها مبرّرا للهيمنة الذكوريّة.

هل سبق لكم أن رأيتم تلك الصّور لعملاء البورصة وهم يتجّشؤون في الهواتف، وحبّات العرق تتصبّب على قمصانهم البيضاء، مخاطرين بملايين الدّولارات وبوظائف الفقراء؟ غالبا ما يتمّ تشبيه هذا السّلوك بسلوك الحيوان. ويقال لنا إنّه ليس ذنبهم إذا ركبوا المخاطر بشكل متهوّر وخلطوا بين قضيبهم ومعاشاتنا

التّقاعديّة. فهم مبرمَجون ليتصرّفوا على هذا النّحو لأنّهم سيكونون ببساطة ذكورا فحولا، ذكورا أَلْفَا des mâles alphas في أوج التّعبير عن طبيعتهم العميقة.

إذا قمتم بكتابة «alpha male» في محرّك بحث، فستصادفكم مئات المواقع الّتي تعد الرّجال بتعليمهم كيف يصبحون رجالا حقيقيين بخصيتين منتفختين مثل قنبلتين يدويّتين. هذه الفكرة عن الذّكر الفحل، الذَكر ألفا «alpha male»، الّتي ظهرت في القرن العشرين، تقدّم نفسها على أنّها ثمرة أبحاث علميّة أجراها عالِمُ حيوان من بازل. في مقال نُشر عام 1947، كَشَفَ هذا العالِم لأوّل مرّة عن مفهوم الذكور والإناث «ألفا» في قطعان الذّئاب، حيث يجب أن يهيمن زوج ألفا على القطيع. (ستلاحظون بشكل عابر السّرعة الهائلة الّتي تمّت بها إزالة وجود أنثى ألفا من خطاباتنا.)

في سبعينيات القرن العشرين، قام عالم الأحياء ديفيد ماك David Mech بتعميم هذه الفكرة في كتاب أصبح من أكثر الكتب مبيعا. وعلى إثره سيتّم ابتلاع مفهوم ذَكَرِ ألفا لعقود عديدة.

وفجأة، أصبحت أغبى السّلوكيات تُبَرَّرُ بـ«الطّبيعة». إنّه ليس خطأهم، إنّه أقوى منهم، إنّ السّبب موجود في طبيعتهم بصفتهم ذكورَ ألفا، في غريزتهم الّتي تحكم عليهم بـ «تحدّي» أنفسهم ليكونوا المهيمنين. ستكون الذّكورة الغربيّة طبيعيّة، وكذلك هيمنة الرّجال على النّساء. ولا يمكننا فعل أيّ شيء على الإطلاق حيال ذلك.

الغريب في الأمر أنّه عندما نشر ديفيد ميك بالذّات، في عام 1999، مقالا يقول فيه «لقد أخطأنا»، تقلّصت متابعته بشكل كبير. فقد وضّح ميك أنّ الدّراسات الّتي أجريت على الذّئاب، وعلى العديد من الحيوانات الأخرى، كانت مشوَّهة لأنّها أجريت عليها بينما كانت في الأَسر وليس في البَرِيّة. وبعد أن تمّت مراقبة مجموعات من الذّئاب الطّليقة، قام ميك بتصحيح تحليله قائلا إنّ الزّوجين أَلْفَا هما في الواقع الزّوجان الأبويّان. أمّا الذّئاب الّتي كان يعتقد أنّها «مهيمَن عليها»، فهم صغارهما. لقد كانت الظّروف الّتي أوجدها البشرُ في حدائق الحيوان هي الّتي خلقت قطعانا اصطناعيّة مصنوعة من تجميع بين ذئاب لا يوجد رابط بينها، مع زوجين مهيمِنين.

وهكذا ذهبت إلى المدقّة أطنان من الكتب الّتي كُتبت لتعليم المرء كيف يصبح، مثل الذئب، ذَكَرًا ألفا في المدرسة الثّانويّة.

هذا مثال جيّد لما يمكن أن نطلق عليه «الإفراط في البَيْلجة surbiologisation»، وهي عمليّة شرح كلّ شيء بالبيولوجيا، عبر إساءة استخدام النّتائج العلميّة. إنّها نوع من التّفكير السّحريّ الخاصّ بعصرنا. فكلّ شيء ينبغي أن يكون منقوشا في جسدنا، بغض النّظر عن السّياق. حتّى أنّه جرت محاولات لتفسير الاغتصاب على أنّه فعل «طبيعيّ» لأنّه يستجيب لضرورة بيولوجيّة. ومع ذلك، يؤكّد الخبراء في الثّدييات على أنّ حالات الاغتصاب أكثر نُدرة بين أنواع الرّئيسيات الأخرى. في الواقع، إنّ الهيمنة ليست

هي القاعدة في مملكة الحيوان. وإذا تمّ العثور عليها بشكل رئيسيّ لدى الثّدييات، فإنّها بعيدة كلّ البعد عن أن تكون هيمنة منهجيّة.

لننظر في عائلتنا، الرّئيسيّات. للتّذكير، نحن لم ننحدر من القرود، لأنّنا بالفعل قرود. إذ يوجد تقارب جينيّ بيننا والشّمبانزي أكثر من التّقارب بين شمبانزي وغوريلا. ولا يمكننا حتّى الادّعاء بأنّنا أحدث الأنواع – فقد ظهرت قردة الشّمبانزي والبونوبو من بعدنا. لذلك فنحن لسنا نقطة النّهاية المثاليّة لسيرورة طويلة.

إنّ الذكور هم المسيطرون بين قردة الشّمبانزي، على عكس قردة البونوبو حيث تهيمن الإناث المتضامنات فيما بينها للحفاظ على السّيطرة على الذّكور.

ولكن، على شجرة التّطوّر، نحن على مسافة متساوية من بعضنا البعض.

لم تحكم علينا أيّ «طبيعة» بأن يكون لدينا تنظيم شبيه بتنظيم قردة الشّمبانزي.

إذن من أين أتت هذه الفكرة القائلة إنّ الرّجال مبرمَجون على التّصرف بوصفهم ذكورا مهيمنين؟ إنّ هذه الأطروحة متأتّية من عمل عالم الأحياء كونراد لورينز Konrad Lorenz، ثمّ من حركة أمريكيّة ظهرت في السّبعينيات، هي علم الأحياء الاجتماعيّ la sociobiologie. وفقًا لعقيدتهم، يتمّ تنظيم المجتمع حول الذّكور المهيمنين الّذين يسعون إلى نقل جيناتهم. وقد اعتمد هذا العمل على دراسة سلوك الرّئيسيّات. ولكن عندما تمّت ملاحظة هذه

الرّئيسيّات ليس فقط من قِبل الرّجال ولكن أيضا من قِبل النّساء، تبيّن أنّ علاقاتها الاجتماعيّة كانت أكثر تعقيدا وثراء ممّا كان يُتَصَوَّرُ حتّى ذلك الحين.

وهكذا أظهر أخصّائيُّ السّلوك شيرلي ستروم Shirley Strum، في كتابه «رحلة بين قردة البابون Voyage chez les babouins»[67]، أنّ علاقاتهم تتمحور إلى حدّ كبير حول التّحالفات بين الإناث. من جانبه بيّن فرانس دي فال Frans de Waal في دراسته «حول المصالحة بين الرّئيسيّات De la réconciliation chez les primates»[68] أنّ عمليّات المصالحة والاسترضاء كانت أكثر أهمّية بكثير من السّلوكيات العدوانيّة. فإذا كان بإمكاننا أن نلاحظ، خاصّة بين قردة الشّمبانزي، وجودَ ذكرٍ وأنثى أَلْفَا، إلاّ أنّ وظيفتهما لم تكن المخاطرة وسحق الآخرين، بل ضمان سلميّة المجموعة، وإدارة العلاقات بين بعضهم البعض. هنا، وفقًا لفرانس دي فال، يعمل التّسلسل الهرميّ على التّحكّم في العنف بدلا من إطلاق العنان له.

ومع ذلك، فإنّ ما خيّرْنا الاحتفاظ به هو ما من شأنه تعزيز نظام الهيمنة الحاليّ. كما هو الحال في نظريّة الذّكور الفحول، ذكورِ أَلْفَا.

إنّنا ما زلنا عالقين في هذه الفكرة البالية القائلة إنّ الرجال مبرمَجون للهيمنة، وبالتّالي، فإنّ النّتيجة المنطقيّة لذلك هي أنّ النّساء

---

(67) - إيشل، 1990.

(68) - فلاماريون، "مجالات"، 2002.

مبرمَجات ليكنّ مهيمَنات عليهنّ. ولهذا السّبب فهنّ لا يمتلكن إحساسا بالاتّجاه ويرغبن في أن تكون رائحتهنّ زكيّة. (نعم، إنّه أمر سخيف، ولكنّه ليس أكثر كاريكاتوريّة ممّا نسمعه باستمرار.) يجب ألاّ نخطئ: إنّ اللّجوء إلى علم الأحياء أو إلى أيّ نوع من «الطّبيعة» يسير دائما في اتّجاه نفس الأفكار. سيكون معطى بيولوجيّا الأمُّ الّتي تعتني بصغارها وحدها بينما يذهب الأب للصّيد، والذّكورُ الّذين يقاتلون، والنّساء الّذين لا يعرفن كيف يركنّ السّيّارة.

تغيير الجنس، على سبيل المثال، لم يتمّ تقديمه أبدا باعتباره ظاهرة بيولوجيّة طبيعيّة. بل يقال حتّى إنّه يعارض الطّبيعة. ومع ذلك، فإنّ عُشرَ أنواع الأسماك تغيّر جنسها على مدار حياتها.

باختصار، إنّ كلّ ما يعزّز القوالب النّمطيّة الأبويّة يتكرّر ويتضخّم، أمّا ما يناقضها فنادرا ما يُعتَدّ به.

يجب القول إنّه قد تمّ العثور على السّبب النّهائيّ لتبرير الاختلافات في السّلوك بين الرّجال والنّساء. وأنتم تعرفونه حتما. بل وربّما تكونون قد تعلّمتموه في المدرسة.

يُفترَضُ أنّ الذّكور والإناث قد وضعوا استراتيجيات مختلفة لأنّ الرّجال، الّذين ينتجون ملايين الحيوانات المنويّة، سيسعون إلى مضاعفة الشّريكات. وعلى العكس من ذلك، فإنّ الإناث، اللاّئي ينتجن القليل من البويضات والمحكوم عليهنّ بالقيام برعاية والديّة كبيرة، ستقع برمجتهنّ للاحتفاظ بشريكهنّ حتّى يوفّر لهنّ الحماية والغذاء.

يقدّم عالم الأنتروبولوجيا القديمة باسكال بيك Pascal Picq دحضا لاذعا لهذا المنطق. وفقا له، ليس تكاثر الشّريكات بالطّريقة الأكثر فاعليّة للذّكور لضمان نسلهم. وهكذا يلاحظ أنّ العديد من الطّيور قد اتّخذت خيارا آخر، من خلال الزّواج الأحاديّ الصّارم والرّعاية الأبويّة القويّة. (بينما يُقال لنا مرارا وتكرارا إنّ الرّعاية الأبويّة تكاد تكون غير طبيعيّة). وبالمثل، نجد بين الرّئيسيات أنّ الإناث ينجحن تماما في ضمان إعالة صغارهنّ دون مساعدة من الذّكور. في الطّبيعة، لم يَحُلْ وجودُ الأشبال دون الصّيد أبدا، على غرار اللّبؤات الّتي تُوكل نسلها إلى أخريات. والأمر الأكثر إثارة للدّهشة، هو أنّ الدّراسات الجينيّة أظهرت أنّ صغار القردة في مجموعة معيّنة لا ينحدرون في الغالب من ذكور مهيمِنين. وهكذا، يفشل هؤلاء في إجبار الإناث على إعادة إنتاج جيناتهم.

حتّى فيما يتعلّق بقصّة البويضات والحيوانات المنويّة تلك، فإنّ ما تمّ تعليمنا إيّاه كان منحازا. فقد قيل لنا، إجمالا، إنّ الملايين من الحيوانات المنويّة شديدة النّشاط تتسابق، وتواجه عقبات رهيبة، قبل أن يتمكّن أحدها، وهو الفائز، من اختراق هذه البويضة الكبيرة غير المتحرّكة وغير النّشطة الّتي كانت في انتظاره. ولكن عندما يقال إنّ البويضة مخصَّبة، فهذا يعني ضمنيّا أنّها مادّة خاملة. في الواقع، إنّ الإخصاب نشط على كلا الجانبين. وعلى عكس ما تمّ تعليمي إيّاه في دروس قسم الأحياء، فإنّ الحيوانات المنويّة لا تخترق البويضة. ذلك أنّ سطح البويضة توجد فوقه جزيئات (تسمّى بهذا الاسم اللّطيف ZP3) ستتجانس مع البروتينات الموجودة في الحيوان المنويّ

وستسمح للزّوجين الذّكر والأنثى بالاقتران. العملية إذًا نشطة على كلا الجانبين. وليس هناك حيوان منويّ ينتصر على البويضة وكأنّها شُقّة فارغة يضع فيها أغراضه.

والأسوأ من ذلك، تُظهر أحدث الدّراسات أنّ سعيد الحظّ المختار ليس هو الحيوان المنويّ الّذي يُفترَض أنّه كان الأسرعَ، ولكن في الواقع هي البويضة الّتي ستجذب الحيوان المنويّ الّذي تختاره بفضل جزيئات جاذبة كيميائيّا. حتّى الآن، كان يُعتقد أنّ الوظيفة الوحيدة لهذه الجزيئات هي توجيه حيوانات منويّة حتّى تصل إلى البويضة، ولكن وفقا لفريق بحث بريطانيّ، فإنّها تختار الحيوانات المنويّة. وما هو أكثر جنونا هو أنّ هذه العمليّة تعمل حسب الأشخاص. بمعنى آخر، لن تختار كلّ البويضات نفس الحيوانات المنويّة. ستكون هناك مسألة التّوافق بين الأفراد. (الباحثون مهتمّون بهذا الأمر لأنّ ثلث حالات العقم ليس لها تفسير ويمكن أن يكون هذا واحدا من التّفسيرات).

كان من الممكن أن يكون هذا مجرّد حكاية طريفة لو لمْ يتمّ استخدام عقيدة البويضة الكبيرة غير المتحرّكة لتبرير بقاء النّساء في المنازل في كثير من الأحيان، كما لو أنّهن من خلال وراثة السّمات كنّ بالضّرورة أكثر ارتباطا بالبيت. وفي الوقت نفسه، لتبرير فكرة أنّ الرّجال مبرمَجون ليكونوا أكثر ميلا إلى المغامرة والنّشاط، على غرار الحيوان المنويّ القويّ الّذي ينتصر على كلّ العقبات.

سيلاحظ المرء انقلابا كبيرا مقارنة بفكر العصور القديمة. فبينما كان الرّجل لعدّة قرون مدينا بتفوّقه لحقيقة تحكّمه في طبيعته الحيوانيّة، وللسّيطرة الّتي كان يتمتّع بها على جسده، فإنّ البَيْلَجَةَ المفرطةَ قد قلبت العلاقة رأسا على عقب. ذلك أنّ الحاجة إلى الهيمنة، وفقا لها، منقوشة في أجساد الرّجال ولا يمكنهم فعل أيّ شيء حيال ذلك. يمكنهم، في أحسن الأحوال، أن يحاولوا محاربة غرائزهم، من خلال التّعليم، للحدّ من آثارها. ومن هذا المنظور، يُنظَر إلى هيمنة الذّكور على أنّها قانون طبيعيّ، ولكن قبل كلّ شيء، إلى الرّجل على أنّه هو نفسُه ضحيّة له، تمامًا مثل المرأة، ويستدعي الشّفقة. حتّى أنّ التّيّار الذّكوريّ يذهب إلى حدّ استحضار عنف حركة نسويّة من شأنه أن يجبر الرّجال على مخالفة طبيعتهم العميقة. ومثلما كان هنالك أشخاص عُسْرٌ ساخطون، يتمّ الآن خلقُ مهيمنين ساخطين.

نحن نعيش في مجتمع يتحدّث إلينا بخطاب متناقض. ففي الوقت نفسه، يُقال لنا مرارا وتكرارا إنّ المساواة بين الجنسين موجودة بالفعل (وهو ما تناقضه الإحصاءات الوطنيّة حول جميع الموضوعات تقريبا) ويقال لنا إنّ عدم المساواة أمر طبيعيّ. ومن ثمّ، سيكون سعينا لتحقيق المساواة مسعى فاضلا ولكنّه مصطنع.

ومع ذلك، لا توجد مجموعة واحدة من القردة العليا تنتج بنية اجتماعيّة تستغلّ فيها حفنةٌ من الأفراد أفرادا آخرين إلى آخر حياتهم. حتّى بين المجموعات الحيوانيّة الّتي يهيمن فيها الذّكور، فإنّ الإكراه، أي استخدام العنف، نادر جدّا. هل عنف الذّكور «طبيعي»؟ فلماذا

نحن أكثر أنواع القرود عنفا تجاه الإناث؟ في أيّ الرّئيسيّات الأخرى تُقتَلُ أمُّ صغارِها؟

الذّكر ألفا، الحيوانات المنويّة الغازيَةُ، والقردة المهيمِنة، كلّها أمثلة على البَيلجة المفرطة. بالطّبع، ليس علم الأحياء بحدّ ذاته هو المشكلة، وإنّما رؤيتنا المتحيّزة. لحسن الحظّ، كلّما تقدّمت الأبحاث، أصبحنا أكثر وعيا بأخطاء التّأويل الّتي ارتكبناها. وكما رأينا عند مراجعة فترات التّاريخ المختلفة، فإنّ هيمنة الذّكور تختلف، وتغيّر من شكلها وشدّتها. إنّها ليست قضاء وقدرا.

خاتمة

محاربة النّسيان

في أمثلة عديدة رأيناها خلال سرديتنا، شهدنا إعادة اكتشاف لتاريخ النّساء. تبدو السّيرورة بلا نهاية، كما لو أنّ هذا الجزء من تاريخنا كان يسقط باستمرار داخل ما أسماه إيمي سيزير «صندوق النّسيان». بهذا التّعبير، وصف الكاتبُ القدرة التّطوّعيّة لمن أسماه «البرجوازيّ الصّغير» على نسيان الماضي الحافل للمستعمر. ومع ذلك، وفق تأكيده، «لا يمكن للمرء القولُ إنّ البرجوازيّ الصّغير لم يقرأ شيئا. كلاّ، لقد قرأ كلّ شيء، والتهم كلّ شيء. بيد أنّ دماغه يعمل مثل بعض أجهزة الهضم من النّوع البدائيّ. إنّه يصفّي. والمصفاة هنا لا تسمح بمرور إلاّ ما يمكن أن يغذّي قشرةَ الضّمير البرجوازيّ الحيّ.»

هذا الكتاب هو محاولة لمحاربة صندوق النّسيان الّذي ألقيت في داخله النّساء منذ قرون عديدة. دعونا نتذكّر أنّ تاريخهنّ لم يكن موحَّدا ولا متجانسا، وأنّه كانت هناك فترات أفضل وفترات أسوأ،

ودعونا نتذكّر أيضا أنّهنّ كنّ دائما يكتبن ويرسمن ويبتكرن ويتخيّلن ويفكّرن ويتكلّمن - حتّى لو لم يكن يراد إلاّ نادرا الاستماع إليهنّ.

إنّ مكافحة صندوق نسيان الماضي، وإدراكَ وجوده، هما أيضا طريقة لمكافحة صندوق نسيان المستقبل الّذي يمكن أن ينتظر كلماتنا وصرخاتنا الّتي تحتاج بشدّة إلى أن يتردّد صداها فيما وراء الفضاء الإعلاميّ الممتدّ لبضعة أشهر، لتصبح منقوشة في تاريخ البشرية.

علينا ألاّ نسمح لأنفسنا بأن نُنسى.

ومن أجل ذلك، علينا أن نتعلّم تاريخنا.

فهل هذا هو الحال؟ إنّنا، يا قرّائي الأعزّاء، ويا قارئاتي العزيزات، لم نتعلّم كلّ هذا في المدرسة، ولكن ماذا عن تلامذة هذا العصر؟ لقد غُصْتُ في البرنامج الرّسميّ الجديد لفصول المستوى الثّاني في التّخصّص العامّ، وهو مستوى يمكنكم أن تتوقّعوا فيه القليل من التّعقيد. فماذا وجدت؟

لا شيء.

لم أجد شيئا يُذكَرُ عن النّساء.

في 1998، طرحت ندوةُ روان Rouen السّؤال التّالي: «هل تاريخٌ من دون النّساء ممكن؟» يبدو أنّ الرّاعي الرّسمي للتّاريخ في فرنسا قد قرّر ذلك. فبالنّسبة إلى وزارة التّربية الوطنيّة، من الواضح أنّ تاريخا من دون امرأة لا يمثّل أيّ مشكلة.

ومع ذلك، هناك أشياء مثيرة للاهتمام في هذا البرنامج. من الواضح أنّه تمّ النّظر فيه في ضوء التّطوّرات التّاريخيّة. من ذلك على سبيل المثال نجد هذا النّوع من التّوصيات من الوزارة: «إنّ علامات التّنصيص الّتي تحيط بمصطلح "العالم الجديد" تدعونا إلى التّساؤل عن التّاريخ الجغرافيّ للمناطق والتّأكيد على أنّه لا يجب الاقتصار على نظرة الأوروبّيين فقط».

هذا يجعل من غير المفهوم بشكل أكبر عدم ذكر النّساء والحال أنّ العنوان العامّ، للفصل في المستوى الثّاني، هو «المراحل الرّئيسيّة في تشكّل العالم الحديث». في تشكّل العالم الحديث، كان من الصّعب للغاية النّجاحُ في التّخلّص من النّساء.

ما يجعل من هذا الأمر غير مبرَّر أكثر، هو أنّ العمل قد تمّ بالفعل منذ البداية من قبل مؤرّخات. حتّى أنّ جمعيّة Mnémosyne، الّتي تعمل على تطوير تاريخ المرأة والنّوع الاجتماعيّ، نشرت في عام 2010 كتابا رائعا بعنوان «مكانة المرأة في التّاريخ La Place des femmes dans l'histoire». إنّه يساعد المدرّسين الّذين يرغبون في تدريس تاريخ مختلط حقّا، ويعطي لمحة عمّا يمكن أن تكون عليه دروس التّاريخ حين يعاد النّظر فيها بهذه الطّريقة. إنّه إجابة علميّة وبيداغوجيّة.

في مقدّمة الكتاب، تقدّم ميشيل بيرّو ملخصًا مثاليّا للوضع الحالي: «لقد دمجت البرامجُ التّاريخَ الاقتصاديّ والاجتماعيّ، وحتّى التّاريخ الثّقافيّ والدّينيّ، بسهولة أكبر من إدماجها تاريخ المرأة

والعلاقات بين الجنسين. وعلى العموم، فإنّ النساء غالبا ما تسلّلن في هذه الفجوات (خاصّة تلك المتعلّقة بالعمل) عُنوة تقريبا.»

دائما ما نجد في الكتب المدرسيّة الحاليّة الرّوايةَ الوطنيّةَ مع الرّجال العظماء، وفي نهاية الفصل، نجد تاريخا أكثر اجتماعيّا أو ثقافيّا، في شكل ملحق تظهر فيه النّساء بمثابة حكايات هامشيّة أبديّة من التّاريخ. «أليس من المستغرَب التّحدثُ بصيغة ذكوريّة عن الحركات القوميّة أو الاجتماعيّة أو الدّينيّة، وعن الحروب والمذابح والإبادات الجماعيّة، والحال أنّ شعوبا بأكملها معنيّة بها[69]؟» ما نطالب به ليس إنشاء تاريخ خاصّ بالنّساء في المدرسة، ولكن أن يكون لدينا أخيرا تاريخ مختلط. أن يوضع حدّ لغياب المختلط في المناهج الدراسيّة الحاليّة.

ربّما تظنّون أنّني أبالغ وأنّ للنّساء مكانا بالفعل في الكتب المدرسيّة.

تشير المؤرّختان فيرونيك غاريغ Véronique Garrigues وجولي بيلورجيه Julie Pilorget إلى ذلك بنفسيهما: «نلاحظ اليوم، مع البرامج الجديدة للمدارس والمعاهد الثّانوية، مزيدا من التّراجع بخصوص حضور النّساء في التّاريخ الّذي يتمّ تدريسه[70].» للنّظر بمزيد من التّفصيل فيما يتعلّمه التّلاميذ، اخترت عشوائيّا كتاب تاريخ هاشيت Hachette الخاصّ بإصلاح المعاهد الثّانويّة

(69) - مقدّمة لـ"مكانة المرأة في التّاريخ La Place des femmes dans l'histoire" (مرجع مذكور آنفا).

(70)- في مقال كتب في جانفي 2021 وهو متاح على موقع Mnemosyne.

(2019). إنّ النّساء لا يظهرن خلاله إلاّ في ستّ صفحات من إجماليّ 277 صفحة: صفحتان عن النّساء والحياة المدنيّة في أثينا (وهذا بحدّ ذاته نقطة إيجابيّة لأنّها غير موجودة أصلا في التّوجيهات الرّسميّة). ثمّ صفحتان أخريان مع إيميلي دي شاتليه Émilie du Châtelet لاستحضار دور المرأة في الحياة العلميّة والثّقافيّة، وأخيرا صفحتان لدور الصّالونات مع مثال مدام دي تينسين Mme de Tencin.

نعم، ستّ صفحات.

المعذرة، فقد نسيت صفحة أخرى. نسيت الغلاف. وهو يعرض لوحة تَظهَر فيها فتاة تبلغ من العمر 14 عاما، اسمها ماركيز دونتين Marquise d'Antin، وعلى أصابعها طائر يستريح(71). فالفتيات مخلوقات جميلة، ووضع صور جميلة على الأغلفة أمر محبوب.

هذا جنونيّ. هل أنا الوحيدة الّتي ترى في هذا جنونا كبيرا، ودليلا على أنّنا ما زلنا نراوح في نفس المكان جماعيّا؟

كيف يمكننا التّفكير في العلاقة بالسّلطة، الّتي هي الهدف المعلن لبرنامج المستوى الثّاني، دون التّفكير في العلاقات بين الجنسين؟ إنّه أمر سخيف - ولكنّه غير بريء. فلا يزال البعض ينظر إلى تاريخ المرأة على أنّه ثانويّ، على أنّه فئة فرعيّة - وهو ما يندرج في الأساس

---

(71) - دون الرّغبة في الإساءة إلى ماركيز دونتين Marquise d'Antin، فهي ليست شخصيّة متميّزة بشكل لافت. (اكتشفتُ علاوة على ذلك أنّها تزوّجت في الثّانية عشرة من رجل كان يبلغ من العمر 27 عاما). إضافة إلى ذلك، فإنّ اللّوحة هي عمل رجل، كان يدعى جان مارك ناتييMarc Nattier .

ضمن الفكرة القديمة القائلة إنّ النّساء أنفسهنّ لسن سوى فئة فرعيّة من البشريّة.

ومع ذلك، كنت أعتقد أنّ مِنْ مهمّات المدرسة محاربةَ عدم المساواة. فالتّعليم دعامة قويّة لم يتمّ استخدامها بشكل كافٍ للعمل من أجل تحقيق المساواة بين النّساء والرّجال.

في «تاريخ النّساء في الغرب L'Histoire des femmes en Occident»، والمجلّد المخصّص للقرن العشرين، تساءلت المؤرّخةُ مارسيل ماريني Marcelle Marini عن سرّ اختفاء الكاتبات من الكتب المدرسيّة. لقد أقلقها ذلك لأنّ «المدرسة تؤكّد أنّ الأولاد هم الورثة الشّرعيون الوحيدون وحَمَلَةُ الإبداع الثّقافيّ المستقبليّون؛ وفي المقابل يتمّ حرمان الفتيات من أيّ وضع شرعيّ للتّعبير(72)».

يعود تاريخ هذا النّصّ إلى عام 1992. أي إلى ثلاثين عاما تقريبا قبل الآن. فهل تغيّرت الأمور حقّا عمّا كانت عليه؟

إنّ المدرسة ما تزال تخلق بصورة نشطة عدم المساواة بين الفتيات والفتيان.

أولئك الّذين يعتقدون أنّ تغيير المناهج المدرسيّة لا يزال مجرّد نزوة من نزوات نسويات هستيريات، لم يتساءلوا أبدا عمّا يعنيه أن

---

(72) - ومع ذلك، عندما كنت طفلة، أردت أن أصبح كاتبة. لكنّني لم أدرك إلاّ الآن أهمّيّة قراءة الكونتيسة دي سيغور Comtesse de Ségur في تلك السّنّ. فقد كانت امرأة تكتب، وكانت قصصها التي أحببتها كثيرا تصوّر فتيات صغيرات.

يكبر المرء في ظلّ تاريخ يُقصى منه أمثالنا من بني جنسنا. أيّتها الفتاة الصّغيرة، ما الّذي نفهمه عندما لا يتمّ إخبارنا إلاّ بتاريخ الرّجال؟ إنّ هذا ما حصل لي. ولم يكن هذا يمثّل مشكلة بالنّسبة إليّ، لأنّني لم أكن أفكّر في أيّ شيء آخر. الآن فقط، وأنا في سنّ الرّشد، عندما اكتشفت تاريخ أسلافنا، تاريخَ نصف أسلافنا على وجه الدّقّة، أدركت الخديعة الّتي كنتُ ضحيّة لها. إنّ الإقصاء الّذي تعرّضت له أسلافي يُغضبني. إنّهنّ يستحققن مصيرا أفضل من هذا. هل لأنّنا نساء، لا يمكن أن يكون تاريخنا إلاّ هامشيّا؟ محصورا في الأعمال المتخصّصة؟ (كعملي هذا، مثلا.) لماذا لا يتمّ إدماج هذا النّصف من تاريخنا المشترك في البرامج الدّراسيّة؟

إنّ الأمر لا يتعلّق بمجرّد مَنْحِ «مكانٍ» للمرأة في التّاريخ، على غرار الصّفحة المخصَّصة لإميلي دي شاتليه في الكتاب المدرسيّ. إنّ المطلوب هو ربط هذين التّاريخين ببعضهما البعض. إنّها مسألة تتعلّق بالإدراج. يتمثّل أحد الأهداف الحاليّة للحركة النّسويّة، فضلا عن المساواة، في نزع الطّابع الذّكوريّ عن العالم. ومن ثمّ نزع الطّابع الذّكوريّ عن التّاريخ أيضا، لإفساح المجال، قليلا، للآخرين، والوصولِ ربّما إلى العثور على وحدتنا في آخر المطاف.

لأجل ذلك، يجب أن نتحلّى بالشّجاعة لمساءلة حدودنا التّاريخيّة ونماذجنا. يجب أن يسير تاريخنا على قدميه. يجب أن يتضمّن أيضا تاريخَ غير البيض. عندما نقول إنّ النّساء الفرنسيّات حصلن على حق التّصويت في عام 1944، فإنّنا نرتكب خطأ. فقد كانت النّساء

الجزائريّات المسلمات مستبعَدات بعدُ من هذا التّصويت. إنّ تاريخ نساء أقاليم ما وراء البحار ومقاطعاته، تاريخَ نساء المستعمرات الفرنسيّة، هو موضوع يستحقّ في حدّ ذاته كتابا كاملا. وهذا التّاريخ أيضا يجب تدريسه في المدرسة.

يقال إنّ التاريخ يكتبه المنتصرون. وهذا صحيح، ولكنّه ليست حتميّا. فالأمر يعتمد علينا كي لا نبقى عالقين في وجهة النّظر السائدة. المسألة هي مسألة اختيار. لذلك دعونا نوسّعْ بؤرة نظرنا: إنّ تاريخنا المشترك أكبر بكثير ممّا تعلّمناه في المدرسة.

النّساء لسن حدثا طارئا في التّاريخ. لسن مجرّد معطى يكاد لا يُذكر. فاستبعادهنّ من السّلطة السّياسيّة هو في حدّ ذاته موضوع تاريخيّ يستحقّ مكانة كبيرة في البرامج التّعليميّة.

إنّ هذا أمر مهمّ.

إنّ هذا أمر ضروريّ.

ومثلما كتبت جينيفيف فرايس Geneviève Fraisse، «النّساء والرّجال يصنعون التّاريخ». وعلى عكس ما قد يعتقده المرء، فإنّ كونك رجل أو امرأة ليس بالثّابتة البيولوجيّة. الأمر ليس «هكذا بكلّ بساطة». فكلّ عصر يعيد اختراع ما يعنيه هذا، بما في ذلك الممارسات الّتي تبدو أكثر «طبيعيّة». لنأخذ النّشاط الجنسّي مثالا على ذلك. بين العصور الوسطى الّتي تخيّلت أنّ للنّساء شهيّةً جنسيّةً نهمةً، والقرن التّاسع عشر الّذي اعتقد أنّهنّ غير مهتّمات تماما بهذه الأشياء المبتذلة، نرى أنّ النّشاط الجنسيّ ليس نشاطا «طبيعيًا»، بل

هو ممارسة اجتماعيّة يشكّلها السّياق الّذي يحيط بنا. ولهذا السّياق تأثير حقيقيّ. إفذا نشأت امرأة في مجتمع يخبرك بأنّ احتياجاتك الجنسيّة لا يمكن كبتها، فمن المحتمل أنّك ستعبّر عنها أكثر، بل وتشعر بها أكثر ممّا لو نشأت في بيئة تخبرك بأنّك قبل كلّ شيء كائن حسّاس للمشاعر.

يقال إنّ المسألة أدائيّة c'est performatif. فقولُك مَنْ هنّ النّساء يؤثّر عليهنّ ويشكّل من هنّ حقّا.

أن تكون امرأة أو رجلا، في كلّ ثقافة، هو نتيجة لوضعيّات يختلط فيها البيولوجيّ والاجتماعيّ، حيث يكون البيولوجيّ غير قابل للانفصال تقريبا عن الاجتماعيّ، وقد ابتلعه هذا الأخير. يغرس فينا المجتمع في وقت مبكّر جدّا سيناريو ما يعنيه أن تكون امرأة أو رجلا.

إنّ تعليم هذا التّاريخ يعني إذًا معرفة أنّه لا يوجد شيء منحوت في الصّخر، بما في ذلك الجنس. كلّ شيء يمكن أن يتغيّر. كلّ امرأة يمكنها أن تبتكر طريقتها في الوجود. إنّ هذا التّاريخ يعطينا حرّية هائلة. بل إنّ هذا هو الغرض من التّاريخ. أن يساعد على تغيير العالم بقدر ما هو فنُّ تذكّرِ ما نحن قادرون عليه وما هو ممكن. وعلى حدّ تعبير المؤرخ باتريك بوشرون Patrick Boucheron، «التّاريخ هو فلسفة عمليّة للفعل البشريّ. نكتشف فيه أنفسنا أكثر إبداعا وحرّيّة ممّا كنّا نظن.» إنّ التّاريخ يسمح بفتح مجال الاحتمالات. وكما قالت عالمة الأنتروبولوجيا مارغريت ميد Margaret Mead، «لا تشكّوا

أبدا في أنّ مجموعة صغيرة من المواطنين الملتزمين والمفكّرين يمكنها تغيير العالم. في الواقع، لا شيء غير ذلك قد تمكّن من القيام بذلك على الإطلاق.»

قد يكون الإحجام عن إدراج هذا الموضوع في البرامج الرّسميّة هو بسبب الخوف من صنع تاريخ نضاليّ.

فهل تاريخ النّساء نضاليّ؟ نعم، إنّه كذلك بقدر نضاليّة غيرهنّ. هنا، بالطّبع، قمت باختيارات، ولكن هل التّاريخ «الرّسميّ»، تاريخُ الكتب المدرسيّة التي تُستبعد منها النّساء، هو حقّا موضوعيّ؟ لماذا يوجد انطباع بأنّ إدراج النّساء في التاريخ سيكون قرارا سياسيّا والحال أنّ استبعادهنّ هو الّذي كان قرارا سياسيّا حقّا؟ نادرا ما يُذكَر عملُ الرّجل الّذي يجدّد الهيمنة الذّكوريّة على أنّه عمل مناضل ولا يكاد يفرض نفسه أبدا على هذا النّحو. وهكذا يبدو الخطاب السّائد والرّسميّ محايدا. إنّه ليس كذلك. ولكنّه يتمكّن، من خلال موقعه الأغلبيّ، من نيل الاعتراف بموضوعيّة خياراته.

ومع ذلك، يمكن للمرء أن يتساءل كيف يمكن أن تكون حقيقةُ استبعاد نصف السّكّان الفرنسيين من كتب التّاريخ دليلا على الموضوعيّة. أليس العكس هو الصحيح؟

لفترة طويلة، أمكن تبرير ذلك من خلال توضيح أنّ الحقائق كانت هي السّبب. فالنّساء لم يشاركن في التّاريخ ولهذا لم يُتَحدَّثْ عنهنّ. آمل أنّه في نهاية قراءة هذا الكتاب، لن أجد نفسي مضطرّة مرّة أخرى لأن أوضّح لكم لماذا أعتبر هذا المبرّر سخيفا. فقد صنعت

النّساء التّاريخ، لقد سُدْنَ، وحكمن، وحاربن، وناضلن، وكتبن، وصرخن أحيانا. لم يكنّ أبدا متفرّجات في عالم يحكمه الرّجال. هذه فعلا خرافة تاريخيّة. وحتّى عندما تمّ استبعادهنّ من دوائر السّلطة، استمررن في المقاومة. وهذا أيضا يمثّل تاريخنا المشترك.

وتاريخ المرأة ليس فقط تاريخ النّساء. إنّه أيضًا تاريخكم، أيّها السادة. فأنتم أيضا أحفاد هؤلاء النّساء اللّواتي تمّ نسيانهنّ وإسكاتهنّ.

فلا تتركوهنّ يختفين من جديد.

يجب أن يبقين موجودات في ذاكرتنا – وتاريخنا.

فمن دونهنّ، لسنا مكتملات ولا مكتملين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN

شكر

أودّ أن أشكر جوليا بافلوفيتش Julia Pavlowitch الّتي، بينما كانت خارجة ذات يوم من لقاء في مكتبة في لاروشيل، قالت لي: «ولكن لماذا لا تسردين علينا كلّ هذا في كتاب؟».

لقد كنت محظوظة بمراجعة ثلاث مؤرّخات لامعات لما كتبت: وهنّ فيرونيك غاريغ Véronique Garrigues، ولورا ماري Laura Mary، وبيبيا بافار Bibia Pavard. أشكرهنّ جزيل الشكر على دقّة تصحيحاتهنّ، الّتي ساهمت بلا شك في تحسين هذا النّص - وبشكل أعمّ على اشتغالهنّ على تاريخ النّساء.

شكرا لكلّ الفريق الرّائع من Iconoclaste, you rock, girls.

شكرا لصوفي دي سيفري Sophie de Sivry على تشجيعها ودعمها المستمرّ، خاصّة عندما كان عملي يتعثّر.

أنوّه بشكل خاصّ بأريان جيفار Ariane Geffard الّتي، بالإضافة إلى كونها وكيلة أعمالي، هي شخصيّة استثنائيّة. دون حماسك وصبرك، ربّما لم يكن لهذا الكتاب أن يرى النّور أبدا.

شكرا لمن صحّح في الظّل وأصغى إلى شكواي وأنيني وتذمّري وسخطي، لأكثر من عقد من الزّمن دون أن يتراخى أو يفقد صبره.

شكرًا أخيرا وخاصّا، لجميع النّساء اللّواتي يعملن جاهدات من أجل جعل هذا العالم مكانا أفضل.

تيتيو لوكوك

المنسيّات العظيمات

أحدثَ كتاب تيتيو لوكوك ضجَّة كُبرى في فرنسا فورَ صدوره، كما تصدَّر قائمة أكثرَ الكتب مبيعًا لشهورٍ طويلة.

تخوضُ تيتيو لوكوك في هذا الكتاب صراعًا كبيرًا معَ الأفكارِ السَّائدة التي تقومُ على قراءة التَّاريخ قراءةً أبويَّة وذكوريَّة، دونَ أدنى إشارة إلى دورِ المرأة في الأحداث التَّاريخيَّة الكبرى، فالكاتبة ترى أنَّ حريَّة المرأة ومنزلتها اليوم لم تتحقَّق بمحضِ الصُّدفة بل هي نتيجة لتراكمات تاريخية كُبرى خاضت فيها المرأة صراعاتٍ وتجارب إنسانيَّة عظيمة، ولكنَّ هذه التَّجارب في نظرِ الكاتبة، قد تعرَّضت للطَّمس والنِّسيان ومن هذا المنطلق تأخذنا لوكوك في رحلةٍ تاريخيَّة كُبرى، من عصور ما قبل التَّاريخ إلى اليوم، محاولةً أن تبيِّنَ للقارئ أنَّ حضور المرأة ملازمٌ لحضور الرَّجل وأنَّهُ في فتراتٍ زمنيَّة معيَّنةٍ، كانَ للمرأة اليد الكبرى، في تغيير مجرى التَّاريخ، وهو نفسهُ التَّاريخ، الذي شطبها ومحاها من مدوَّنتهِ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

WWW.PAGE-7.COM
ISBN: 978-603-8387-83-2
9 786038 387832
Designed by Tawfiq Omrane

صفحة ٧